الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وعشرة . السنة العاشرة . مارس ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 110 - March 2008



في معرض حلمي التوني : العين تطرب قبل الأذن أحيانا

فيصل دراج يكشف : تحولات الرواية العربية

الكتاب الأخير ليونان لبيب رزق : العيب في ذات أفندينا

القاهرة ٢٠٥٠ .. ردود وتعليقات : رشدي سعيد / أحمد الحفناوي / جليلة القاضي

السنة العاشرة
العدد المائة وعشرة
مارس ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد الحفناوي.. أستاذ تاريخ الحضارة المشرع بجامعة الأزهر.
- أليستير هورن.. مؤرخ بريطاني.
- جليلة القاضي.. مديرة أبحاث بالمعهد الفرنسي للأبحاث من أجل التنمية.
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبناني.
- رشدي سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصري مقيم في الولايات المتحدة.
- عبد السلام المسدي.. أستاذ اللسانيات بالجامعة التونسية ووزير سابق.
- عزالدين نجيب.. ناقد وفنان تشكيلي.
- فايز سارة.. كاتب سوري.
- فيصل دراج.. ناقد أدبي أردني.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
- ماكس رودنبيك.. مراسل مجلة الإيكونوميست Economist في الشرق الأوسط، ومقره في القاهرة.
- محمد السماك.. كاتب لبناني.
- يونان لبيب رزق.. أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس راحل.

رسوم العدد للفنان
محمد حجي

لوحة الغلاف للفنان حلمي التوني من معرض موسيقى شرقية

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٦٣/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد - داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - البلاد العربية بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٣٧٥٦٧ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية، السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

❊ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❊

أمريكي في إيران..!!

إذا تركنا جانبا احتمال ضربة «استباقية».. فقد كلفت العقوبات الاقتصادية الدولية إيران الكثير. بهروب الاستثمار الأجنبي المطلوب بشدة، مع الرفع الحاد لتكاليف التعاملات التجارية الإيرانية

ماكس رودنبيك

** لا يختلف مطار الإمام الخميني الدولي في طهران عن أي مطار حديث كبير إلا في البوسترات المعلقة في ممراته الطويلة والتي تعلن - بدلا عن طلاء الشفاه والعطور - أن هذا العام هو عام الوحدة الوطنية والتضامن الإسلامي. ومع ذلك، لا يمضي وقت طويل، قبل أن يواجه أي حامل جواز أمريكي اختلافات أعمق.

ضباط الهجرة مهذبون. محرجون قليلا، حين يتذكرون أن عليك أن تخضع لبصمات الأصابع ويرسخ سريعا، تبادل هزات الكتف اللامبالية، نوعا من التواطؤ. علينا جميعا. بعضنا من مسافرين أمريكان متعبين وضباطا إيرانيين ضجرين، أن نقوم بطقوس مرهقة أملتها دبلوماسية المعاملة بالمثل. ولكن الأمريكيين نادرون هنا، دفعة من رحلات، تصل وتغادر. قبل أن يعثروا على الاستمارات المناسبة لحالتك، مع الدباسة لإرفاقها مع بعضها. وقلم للتها، ومفتاح غرفة قد توجد فيها الختامة. وهكذا. وحين تنتهي المهمة اللزجة، يقدم لك أحد الضباط أوراق كلينكس لمسح اللطخات البنفسجية الداكنة.

في الخارج، تعكس أول دفقة من ضوء النهار ظلال الجبال البعيدة. نتتبع العلامات المؤدية إلى طهران وليس قم أو أصفهان النائية، ونخرج إلى طريق الخليج الفارسي السريع ذي الحارات الست. يولج سائق التاكسي شريط كاسيت في المسجل، ويدندن مع الموسيقى التي يحبها. كما يقول. الفرقة هي Dire Straits . وبينما تستدعي إيقاعاتها الزاعقة القوية ذكريات طرق سريعة عريضة أخرى، يدرك المرء فجأة أن هذه الأغنية «سلاطين رقصة السوينج» Sultans of Swing، ترجع في تاريخها إلى عام ١٩٧٨ حين كانت الثورة الإسلامية تقترب من ذروتها.

نمر بمحطة رسوم الطريق، ثم نتجه إلى الشرق، عبر مخرج. أمامنا ترتفع أربعة أبراج عالية مغمورة بالضياء. المنائر: هذا هو ضريح آية الله الخميني، الذي حرّم في ظل حكمه، موسيقى البوب.

في نهاية الأسبوع ذاك، عبرت طهران مرة أخرى لزيارة الضريح، حاسبا أنني سوف أراه في يوم خال من زحمة المرور، لأن المرور في بقية أيام الأسبوع لا يطاق في هذه المدينة التي تضم ستة عشر مليون نسمة تقريبا. ولكن في اليوم الذي أعزم فيه على الزيارة، كانت الحكومة قد قررت الاحتفال باستشهاد ستين جنديا من الحرب الإيرانية العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨، والذين تم التعرف على جثثهم مؤخرا. (هذه فائدة مرعبة من فوائد الغزو الأمريكي للعراق: لقد أقامت العصابات في البصرة، حيث كان القتال على أشده حينئذ هناك، تجارة مزدهرة من بيع بقايا مفترضة للجنود الإيرانيين). وقد أدى الاحتفال في وسط المدينة والذي حضره الرئيس محمود أحمدي نجاد بنفسه، وحمولة شاحنات من الباسيج الذين يرتدون القمصان السود، وهم المحاربون المتطوعون، أدى إلى أزمة مرورية طاحنة.

أخيرا استطعنا الوصول إلى ضريح الخميني. وتقوم قبته ومنائره المبنية من الكونكريت المسلح، خلف ساحة لوقوف السيارات في طرف من مقبرة (بهشت الزهرة) مدفون فيها حوالي ٣٠٠ ألف شهيد مما يسمى رسميا «حرب فرضها العراق». هناك لوحة عملاقة في مدخل المقبرة تصور الوجه الوسيم لبطل شاب ملتح، تحيطه حالة من زهور التيوليب الأرجوانية، مع بعض الدم على جبينه وشفتيه اللتين تليقان بالأمير النائم (في الأسطورة المعروفة - المترجمة).

ولكن الجو هنا احتفالي وليس كئيبا. والعائلات جاءت وكأنها في نزهة خلوية، تفرش طعامها وشرابها على الحشائش، ومجموعات من الأصدقاء يثرثرون وهم يمرون من خلال بوابات منفصلة للرجال والنساء تفضي إلى الضريح. بعد عشرين سنة تقريبا من موت قائد الثورة، ولما يكتمل بناء الضريح ويبدو أنه سيظل هكذا. وحواجز البناء تغلق معظم المجمع ولا تسمح إلا بالوصول إلى غرفة وحيدة، مضاءة بمصابيح النيون، حيث تسند الدعامات الحديدية سقفا أشبه بهنجر. وهناك سياج من الألومنيوم يحيط بمكان دفن الإمام. والأرضية داخل السياج، تمتلئ بنقود ورقية صغيرة. وقد قيل لي إنها النذور التي تحققت للسائلين. ولا تملك إلا أن تفكر بأن عدم اكتمال بناء هذا النصب العظيم للثورة، قد يكون مقصودا. فهذا الحشد الحاضر سوف يبدو ضئيلا جدا، إذا تناثر في كافة أرجاء المجمع الشاسع، لو كان البناء قد اكتمل.

لم يكن هناك الكثير الذي يمكن رؤيته في الواقع ولكن أثناء استدارتي للعودة، تقدم مني شاب بابتسامة على وجهه وقدم نفسه على أنه مهندس يعمل لدى شركة أوروبية في إيران. والسبب الوحيد الذي جاء به إلى هنا، كما أوضح لي بسرعة، هو إرضاء حماته، التي تزور الضريح قادمة من محافظة بعيدة. وقال إنه ولد في عام الثورة وأن والده قتل في الحرب مع العراق. ولكنه يعتقد أن «مسألة الاستشهاد» طبخة محروقة. ويعتقد أن الحكومة الراهنة لن تستمر طويلا، لأن الكثير من الناس مثله، والذين رفضوا التصويت في انتخابات ٢٠٠٥، سيفعلون الشيء ذاته في الانتخابات البرلمانية في مارس القادم، أو الرئاسية في ٢٠٠٩ على الأقل، إذا لم يهاجم جورج بوش إيران وفي تلك الحالة سوف يتسبب في رد فعل شعبي. يقول المهندس إن تعليقات الرئيس أحمدي نجاد حول الهولوكوست وإسرائيل كانت «غبية». ولا يشك في أن البلاد سوف تتغير، مهما حاول الأصوليون عرقلة ذلك. ولكنها سوف تتغير تدريجيا وسلميا «لقد جربنا الثورة ولا أحد يريد واحدة أخرى».

كلما تجولت في هذه البلاد شديدة الكبرياء والتي تماثل المكسيك في المساحة، يفاجأ المرء من سأم مماثل من السياسة، ممزوجا برفض جهود الدولة لإشعال جمر الحماسة الثورية. الضجر ليس منبعه الإعجاب الكاسح بالثقافة الغربية. فالإيرانيون يعتزون باختلافهم، إنهم يفضلون بشكل واضح، طعامهم وموسيقاهم وأشعارهم، ناهيك عن دياناتهم. وليس بالضرورة أن المزاج القاتم سببه الغضب من قهر النساء أو المعارضة أو الأقليات. وفي حين أن ممارسات النظام من حظر كتب معينة أو رمي الناشطين في السجون، قد ازدادت ضراوة تحت حكم أحمدي نجاد. ولكن مع هذا فإن مستوى الخوف يظل أقل مما كان في الثمانينيات. وإلى جانب فرض الزي المرهق وبعض قوانين التمييز، فإن النساء في إيران أكثر حرية من نظرائهن في الدول المجاورة. فالنساء المحجبات يعملن ويقدن السيارات ويمارسن رياضة العدو في المنتزهات العامة ويرشحن في المناصب العامة. والأقليات أفضل بشكل عام، متمتعين بحرية العبادة وحقوق اللغة وحصص في البرلمان (مع استثناء ملحوظ للبهائيين وهم فرع حديث من المذهب الشيعي يعتبره الملالي هرطقة). وعلى عكس أشقائهم المتمردين عبر الحدود في تركيا، فإن الأكراد الإيرانيين لا يشعرون في الأغلب بالحاجة إلى التمرد. ومازال المعارضون السياسيون من الأنواع الأخرى يتعرضون إلى العقاب ولكنهم في خطر أقل مما يحدث في السعودية، على سبيل المثال، أو سوريا. فالإيرانيون، على الأقل، يستطيعون الانتخاب، ويدركون أن أصواتهم ستحدث فرقا.

كما لا يمكن إرجاع الضجر إلى اقتصاد مهزوز، فحسب. حقا إن الأسعار وبالأخص الإيجارات ترتفع بسرعة مؤلمة لاسيما لمحدودي الدخل، والفساد على أوجه، والهوة بين الغني والفقير ليست أقل مما كانت أيام الشاه، ورجال الأعمال يشكون مر الشكوى من عدم كفاءة وخطأ سياسات إدارة أحمدي نجاد. ولكن مستويات المعيشة والخدمات العامة في السنوات الأخيرة، آخذة في التحسن بثبات، وإن كان بطيئا. والعقوبات الاقتصادية ليس لها تأثير محسوس حتى الآن. الحياة صعبة للكثير ولكنها

بالترتيب مع:
NewYork Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري

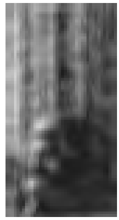


تبدو محترمة مقارنة بالمعايير فى المنطقة.

ولكن يبدو أن هناك عنصراً واحداً يسبغ الكآبة على قطاع كبير من الجمهور الإيراني. وهذا هو الرغبة فى الهروب من جيتو ذهنى يدفعهم إلى رؤية الأعداء فى كل مكان، وللإبقاء على أفكار منافقة للطهارة والنقاء. والصبر على توجيهات وتشديدات الوعاظ والشرطة والمحتسبين المتلفعين بالشادور. إنه نزوع مقموع للحرية الشخصية أكثر منه للتغيير السياسى.

ومع ذلك فإن أحمدى نجاد يستمر فى اجتذاب أنصار أساسيين، يتكونون من أناس مثل مراقبى فرض القانون، الشباب الدين يترصدون فى المتنزهات لاصطياد عشاق غير محتشمين. والحموات الريفيات اللاتى يحببن أساليبه الشعبية. ورجال دين معممين يحلمون بمجتمع خال من العيوب يحاكى فى مثاليته الزخرفة المتداخلة فى جدران المساجد؛ وعناصر الثورة الاسلامية الذين يشاركون الرئيس فى كراهيته للمتحررين وفنونهم المتفسخة. وإذا جردت خطب أحمدى نجاد من لمساتها الدينية. فإن خطابه ينتهى إلى مجرد استعارات لخطبة عادية، مثل توبيخ الصفوة فى المدينة «أولئك المولولون الذين يجلسون فى شقق فاخرة فى شمال طهران» وممتدحا الفلاحين والعمال الشرفاء واعداً إياهم بنصيب أكبر. وكما يصدر عن زعماء العالم الثالث الثوريين، فهو يهاجم الإمبرياليين الأجانب، متهما إياهم بمحاولة إبقاء دول مثل إيران ضعيفة ومتخلفة تكنولوجيا.

وبدرجة أكبر مما صادف الديماغوغيين الآخرين مثل هيوجو شافيز رئيس فنزويلا. فإن سلوك أولئك الأعداء الأجانب، زاد من تأثير مثل هذا الكلام. لقد تحمل الإيرانيون طويلا الخطاب حول الشيطان الأكبر، وسمعوا أصوات المشاركين فى التظاهرات الصغيرة التى تحشدها أجهزة حكومية يرددون «الموت لأمريكا». ولكن إلى جانب ما تعلموه فى المدرسة من الأشياء الشريرة التى قامت بها أمريكا مثل دعم الشاه والعراق خلال «الحرب التى فرضها العراق» فإن ما يعرفه معظم الإيرانيين فعلا عن أمريكا قبل غزوها أفغانستان والعراق، هو أفلام فيديو البوب تعرض على شاشات الفضائيات فى لوس أنجيلوس. الإيرانيون سمعوا أشياء شريرة عن إسرائيل أيضاً، ولكن فى معظم الحالات،



أمريكي في إيران

كان الإيرانيون يعتقدون ان الدولة اليهودية الصغيرة بعيدة جداً عن إيران وهي ليست مشكلتهم.

ولكن الحرب الأمريكية على (الإرهاب) جاءت بأساطيل الكفار فجأة إلى أبوابهم. ويتفاخر المسئولون الأمريكان بأن «الرجال الحقيقيين يذهبون إلى طهران» وحين أخرج الرئيس بوش من جعبة سحره «محور الشر» وإيران في مركزه، ورفض مبادرة إيرانية عام ٢٠٠٣ لتفتح حوار استراتيجي، وحين شرع المسئولون الأمريكان في الحديث علانية حول قصف البلاد، وتمويل مجهود سري للإطاحة بالقادة الإيرانيين، وعن الحاجة إلى حشد العالم لفرض عقوبات، فجأة، بدا وكأن أمريكا تمثل دور شرير الشاشة الدولي في سيناريو كتبه الخميني منذ زمن طويل. وخيم خطر إسرائيل قريباً أيضاً، بعد ان سوت طائراتها الحربية مواقع في قلب مواطن الشيعة الموالية لإيران في صيف ٢٠٠٦، وبدأ قادتها في النقاش حول ضربة استباقية على المرافق النووية الإيرانية.

في إيران، استفزت، حتى أشد نقاد الحكومة، الفكرة القائلة بأن البلاد لا تحتاج إلى الطاقة الذرية، طالما لديها هذه المصادر الهايدروكربونية الضخمة. ويكرر المواطنون العاديون الخط الرسمي القائل بأن الحصول على التكنولوجيا النووية هو حق وطني، وأن البرنامج يتفق مع القانون الدولي، وأنه، على أية حال، سلمي في كل مراحله. ويتساءل كثيرون: حتى لو صنعت إيران قنبلة، فأين هي المشكلة؟ هل إيران أقل استقرارا أو أكثر خطورة من جارتها باكستان؟ هل تحاربت مع جيرانها أكثر مما فعلت إسرائيل المسلحة نوويا؟

هناك بعض الحقيقة في هذه الآراء، ولكنها أيضاً تعكس نجاح الرئيس أحمدي نجاد في وضع القضية النووية في اطار صراع ملحمي للانتصار على القوى الشريرة واستعادة مكانة إيران الجديرة بها بين الأمم. ونتيجة لذلك، ليس هناك، أي نقاش في إيران حول تكاليف البرنامج، أو جدوى تطوير قدرة على مستوى صناعي لتخصيب الوقود النووي، إذا لم تكن هناك مرافق نووية فاعلة قادرة على استخدامه.

إن ما يتجادلون بشدة حوله، في كواليس السلطة، كما قيل لي، هو كيفية التعامل الأفضل مع المعارضة الدولية لمشروع إيران النووي. وتنقسم الآراء بين المعسكرات السياسية الثلاثة في البلاد. الإصلاحيون الذين ازدهرت قضيتهم خلال حكم الرئيس محمد خاتمي ١٩٩٧ - ٢٠٠٥ وهؤلاء يعتقدون أن إيران لن تخسر إذا أحنت رأسها لمطالب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من أجل إيقاف التخصيب النووي، مؤقتا على الأقل. أما البراغماتيون المحافظون أمثال أولئك الذين تحلقوا حول رئيس سابق اخر هو علي أكبر هاشمي رافسنجاني، يدعون إلى مزج الشدة بالمرونة، والتفاوض مع الأمم الأخرى لتأمين أهداف إيران وتقليل الأضرار المحتملة من عقوبات اقتصادية وغيرها.

ومن جانبهم يرى أصوليو أحمدي نجاد، بأن على إيران أن تخوض العاصفة دون أن تنحني، وهم يحاولون زيادة تأثيرهم في قضايا أخرى مثل الضغط على الأمريكان للانسحاب من العراق. وفي رأيهم أن الضغط الدولي على إيران لن يساعد إلا في اصطفاف الرأي المحلي خلف الرئيس، إضافة إلى أن الغرب المعادي سوف يقابل كل تنازل بالمطالبة بالمزيد.

في واشنطن، أوائل ديسمبر، أطاح الإفراج عن تقييم استخباراتي معدل جذريا، حول طموحات إيران النووية، بهذا النقاش. وكما هو متوقع، أعلن معسكر أحمدي نجاد انتصارا، مؤكدا أن تغير نغمة أمريكا يعكس اعترافا بأن إيران بلغت من القوة مما يصعب اللعب معها. ولكن الحقيقة أن الإفراج كان عن قرار مفترض اتخذ عام ٢٠٠٣ من قبل الإدارة الإيرانية الإصلاحية السابقة، لإيقاف الخطط السابقة لإنتاج أسلحة نووية. وقد أدى ذلك القرار إلى إنقاذها من التهديد بالعقاب الأمريكي. علاوة على ذلك، بافتراض دقة التقييم الاستخباراتي الجديد، كان سيبدو أنه بالتغطية على انقطاع برنامج الأسلحة، فإن إدارة أحمدي نجاد قد قادت إيران إلى مياه عميقة الخطر. وإذا تركنا جانبا احتمال ضربة «استباقية»، فقد كلفت العقوبات الاقتصادية الدولية إيران الكثير، بهروب الاستثمار الأجنبي المطلوب بشدة، مع الرفع الحاد لتكاليف التعاملات التجارية الإيرانية.

بطبيعة الحال، يقول المسئولون الإيرانيون إنه لم يكن هناك أبداً برنامج اسلحة. ولكن من الصعب تصور أي غرض آخر لمشروع نووي طموح يؤكد على تخصيب الوقود. كما يوحي أيضا، اتهام العديد من المفاوضين النوويين الإيرانيين بالتجسس والخيانة، كما فعل مؤخرا الرئيس أحمدي نجاد، بأن هناك في الأمر سراً كبيرا يخشى عليه من التسرب. إضافة إلى المنطق. فإذا نظرت إلى موقع إيران الاستراتيجي حين بدأت البرنامج خلال الثمانينيات، في وسط حرب طاحنة مع العراق، الذي استخدم غازات ضد الجنود الإيرانيين، فإن الحصول على قنبلة ذرية قد يبدو معقولا كما فعلت أمريكا بعد ايو جيما Iwo Jima (*) (في الواقع أن الجيشين، العراقي والإيراني، استخدما ضد بعضهما الغازات التي تعرقل حركة الجنود وهي مما تستخدمها جيوش العالم في الحروب، وكان على الكاتب أن يأتي بأمثلة أكثر منطقا، كأن يجعل من سعي الباكستان للحصول على قنبلة ذرية، وسعي العراق للحصول على مفاعل نووي .قصفته إسرائيل فيما بعد .وهما جارتان لإيران، حافزا أكثر احتمالا . المترجمة).

وبغض النظر عن المسألة، تظل الحقيقة وهي أن التقييم الاستخباراتي القومي المنقح يعكس فرصة ممتازة لفتح صفحة جديدة في العلاقات الإيرانية الأمريكية. وكما أظهر الدعم الإيراني للإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان، وكما أوضح تأثيرها على الشيعة العراقيين، فهناك الكثير مما يمكن أن يكسبه البلدان من تعاون أكبر.

لم ينتج عن ربع قرن من العداوة بين الولايات المتحدة وإيران، سوى المشاكل لكل منهما يبدو أن الرئيس أحمدي نجاد يدرك ذلك، ففي تعليق له مؤخراً، وصف التقييم الاستخباراتي القومي بأنه ايجابي، وأضاف «إذا اتخذوا خطوة واحدة أو اثنتين إلى الأمام، فإن الوضع (بين إيران وأمريكا) سوف يكون مختلفا إلى درجة كبيرة».

في منتصف ديسمبر، أعلنت روسيا أنها قد أرسلت شحنة أولية من الوقود النووي إلى المفاعل الإيراني الذي سيكون تحت رقابة الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وقد وافق بوش فيما بعد على ذلك. ولكن للأسف، لايبدو واضحا، حتى الآن، ما إذا كانت إدارة بوش مستعدة للسعي إلى مفاوضات مباشرة مع طهران. وقد حذر وزير الدفاع روبرت غيتس، وهو يتحدث مؤخراً أمام جمهور مسترِيب في دولة البحرين الخليجية، من أن إيران مازالت خطرا مهلكا. «أينما اتجهت، ترى أن السياسة الإيرانية هي بذر القلاقل والفوضى، بغض النظر عن القيمة الاستراتيجية أو هدر دماء الأبرياء». هنالك الكثير من الأسباب التي تجعلك تكره النظام الإيراني، خاصة تحت إدارته الحالية، ولكن مثل هذا الخطاب الناري يبدو أن القصد منه إغلاق انفراج ممكن، أكثر منه انتهاز فرصته. ☒

كلما تجولت في هذه البلاد شديدة الكبرياء والتي تماثل المكسيك في المساحة، يفاجأ المرء بسأم مماثل من السياسة، ممزوجا برفض جهود الدولة لإشعال جمر الحماسة الثورية

هامش:

(*) ايو جيما Iwo Jima اكبر جزر اليابان وقد كانت مسرحا لمعارك طاحنة في الحرب العالمية الثانية. (الكاتب هنا ايضا يعزو، خطأ ـ أن امتلاك أمريكا للقنابل الذرية كان بسبب معركة في الحرب العالمية الثانية، وفي الواقع أن أمريكا كانت تملك القنبلة . فهي لا تصنع بين يوم وليلة . وقد أسقطت كما نعلم على اليابان في هذه الحرب قنبلتين دمرتا مدينتي هيروشيما وناجازاكي من أجل انتزاع الاستسلام من اليابان . المترجمة).


استمتع بمزايا أكثر
مصر للطيران تطير يوميا الى أكبر مطارات باريس
شارل ديجول بدلا من مطار أورلي
اعتبارا من ٣٠ مارس ٢٠٠٨
وبهذه المناسبة سعر خاص جدا
١٥٩٥ جنيه بخلاف الرسوم و الضرائب
مصر للطيران
EGYPTAIR
تمتع برحلتك
مع مصر للطيران

تشكر «وجهات نظر» الذين استجابوا لدعوتها إلى حوار معمق حول مشروع القاهرة ٢٠٥٠ الذى طرحه وزير الإسكان المهندس أحمد المغربى على صفحات المجلة عدد أغسطس الماضى.
وهنا نبدأ فى نشر المشاركات بمقالات لثلاثة من المعنيين والمتخصصين فى الموضوع والذين ينتمون إلى أجيال ومدارس فكرية وأكاديمية مختلفة.

المحرر

القاهرة.. لماذا؟

رشدى سعيد

نشرت مجلة «وجهات نظر» فى عددها الصادر فى أغسطس ٢٠٠٧ دعوة للحوار حول موضوع القاهرة ٢٠٥٠ دعت فيه المهتمسين والمتخصصين لإبداء آرائهم فى شكل مدينة القاهرة كما يجب أن يرود فى هذا العام - وأعقبت المجلة دعوتها بنشر ترجمة لمحاضرة كان قد ألقاها حول هذا الموضوع السيد أحمد المغربى وزير الإسكان المصرى أمام غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة - وقد ظننت أن المجلة بنشرها هذه المحاضرة قد بدأت الحوار من حيث ينبغى له أن يبدأ، فلدى وزير الإسكان من المعلومات والبيانات والخطط والدراسات الكثير مما قامت بها أجهزة وزارته، بل والعديد من الخبراء الأجانب والمصريين الذين استعانت بهم وزارته منذ بدء التفكير فى التخطيط المستقبلى لمدينة القاهرة على طول السنوات الستين الماضية. وكان فى تصورى أن تحتوى



المحاضرة على طرح لرؤية السيد الوزير لمستقبل المدينة كما استخلصها من هذا الكم الهائل من البيانات والمعلومات والخطط التى قامت بها وزارته عبر السنين. فمثل هذا الطرح سيكون بمثابة القاعدة التى يمكن أن يدور حولها الحوار المجدى الذى يمكن أن يوصلنا إلى تصور سليم وعملى.

وقد جاءت محاضرة الوزير عامة، إذ استعرضت مشاكل القاهرة دون أن تطرح لها حلاً ودون أن تعطى القارئ أى تصور معين عن شكل القاهرة كما يجب أن يراها. وإن كانت المحاضرة قد حملت الكثير من الإيحاءات عما يدبرد لها السيد الوزير من خطط إن صحت قراءتى لهذه الإيحاءات فإنى أعتقد أن تنفيذها سيزيد من مشاكل القاهرة وسيتركها فى حال أسوأ مما هى عليه اليوم. القارئ لمحاضرة السيد الوزير سوف يلاحظ أنه على

غير اهتمام كبير بالحفاظ على الأرض الزراعية، فهو غير راض عن قانون تجريم البناء عليها لما جاء به من «آثار أولية ولاحقة»، كما أنه محبذ لاستخدام الأرض المطلة على نهر النيل والجزر المنتشرة فيه لبناء ضواح جديدة للإسكان الفاخر.

الحفاظ على الأرض الزراعية هو فى رأيى من أهم واجبات الحكومة الرشيدة، ليس فقط بسبب أهمية هذه الأرض كمصدر للغذاء وللعمالة، بل وكرئة للمدينة تنقى هواءها وكمتنفس لسكانها للنزهة والترويح. وإذا كان لنا أن نتصور شكل قاهرة المستقبل كما نحب أن نراها، فعلينا أن نتصورها فى صورة مدن مستقلة تتناثر على طول المساحة الصحراوية التى تمتد من السويس والإسماعيلية إلى غرب القاهرة تتخللها وتفصلها المناطق الزراعية الخضراء ويربطها خط أو خطان للمترو السريع المقام فوق الأرض فى معظمه.

والقارئ لمحاضرة السيد الوزير لابد أن يلاحظ أن قضية المناطق العشوائية التى تحيط بالقاهرة، بل وإسكان الفقراء على وجه العموم هى من القضايا الخارجة عن نطاق اهتماماته، فليس فى المحاضرة ذكر للطريقة التى سيستطيع بها الفقير أو متوسط الدخل إيجاد مسكن آدمى وكريم يعيش فيه وهل سيكون ذلك عن طريق الدعم أو عن طريق إيجاد طرق بديلة للبناء تفتح الطريق أمام الفقراء للسكن غير العشوائى - وعلى العكس من ذلك، ففى المحاضرة ما يوحى بأن السيد الوزير مهتم بإسكان النخبة - ولا شك أن القرارات التى اتخذها ببيع الأراضى الصحراوية المحيطة بمدينة القاهرة لشركات المقاولات لبناء مجمعات سكنية فاخرة محاطة بالأسوار ما يؤكد هذا الاتجاه. وإذا استمرت الوزارة فى تنفيذ خطتها هذه وشغل الأراضى المحيطة بالقاهرة بالإسكان الفاخر سيكون من الصعب الكلام عن أى مستقبل لمدينة القاهرة وستتحقق نبوءتى التى كنت قد كتبتها فى مقال لى صدر بمجلة الهلال (يونيه ١٩٩٦) عن «حتمية انشطار المجتمع المصرى إلى شطرين، فى طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء. وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستتهمش تماما ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات. وفى عشرينيات القرن القادم (أى الواحد والعشرين) ستكون الأجيال الجديدة من أبناء كلا الشطرين قد شبت وتثبتت قواعدها وزاد انفصالها عن بعضها البعض واختلفت طموحات وطريقة عيش ولغة كل منهما، وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن محاطة بأسوار وذات حرس خاص. وسترسل أبناءها إلى مدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها. وستترك النخبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لا مناص سيكون مصيرها مزيداً من الانحدار.

ولى أمل كبير فى أن ينظر السيد الوزير إلى هذه النبوءة وأن يعمل كل الجهد لكى يجعلها لا تتحقق..

وفى نهاية هذه المداخلة أريد أن ألفت النظر إلى الدراسة الشاملة والبديعة التى حررها الأستاذ الدكتور أبوزيد راجح ضمن دراسات منتدى العالم الثالث والتى نشرتها المكتبة الأكاديمية سنة ٢٠٠٨ فى مجلدين تحت عنوان: «العمران المصرى: رصد التطورات فى عمران أرض مصر فى أواخر القرن العشرين واستطلاعات مسارات المستقبل حتى عام ٢٠٢٠م. ■

أصبحت القاهرة تضم ما يقرب من ربع سكان الجمهورية وهذا ما لم نشهده فى تاريخ العواصم العالمية

القاهرة مدينة مغلقة!!

أحمد الحفناوى

■ القاهرة تعانى منذ فترة طويلة من مشكلات تصدمنا مظاهرها فى كل يوم، إن لم يكن فى كل ساعة - وليس فى ذلك أدنى مبالغة.

لقد أصبحت منذ أواخر الخمسينيات - كامل العدد - ومنذ هذا التاريخ وبالرغم مما تعانيه من كثافة سكانية مخيفة إلا أن الهجرة لم تنقطع إليها من الأقاليم بوجه عام، ومن أبناء الوادى «الصعيد» بوجه خاص، وهذا ما جعلها تعيش وكأنها لا يحكمها قانون!!

لقد أصبحت غابة من البشر وأصبح النظام فيها شاذاً والفوضى هى الأساس، كما أن الشوارع أصبحت بشعة لا تليق بشعب يضرب بجذوره فى عمق التاريخ، ناهيك عن المرور والزحام والاختناق.

إن مملكة التسول - التى يديرها سارقو الأطفال والناضورجية قسمت القاهرة إلى قطاعات:

١ - قطاع الأماكن السياحية والفنادق الفاخرة ويقف أمامها من المتسولين: النسوة وحملة الأطفال الرضع.

٢ - قطاع الشوارع التجارية ويقف فيها من المتسولين الرجال ذوو العاهات الحقيقية والمزيفة، يتحولون فى كثير من الأحايين إلى «نشالين».

إلى آخر ما يمكن أن تراه فى جدول محترفى التسول. ومكمن الخطر أن بعض أحيائها أصبحت وكأنها تحت رحمة محترفى البلطجة الذين أدخلوا فى قواميس العنف والجريمة أنماطاً جديدة لم تشهدها مصر قبلا من الزمان وهذا ما يضفى عليها طابعاً أكثر حدة وتعقيداً.

هذا هو بعض الحال الذى آلت إليه القاهرة التى هى عاصمة مصر والواجهة الحضارية لها ومقر السياسة والإدارة والحكم فيها وهو حال يقض مضاجع المخلصين من أبناء هذا الوطن وعشاقه ويمثل لهم هاجساً مرعباً ومخيفاً، ذلك لأن سلامة القاهرة ومظهر القاهرة وأمن القاهرة وحرمة القاهرة التى هى قلب العالم العربى يجب أن تكون محلاً للاهتمام.

لقد أنفقت الدولة منذ السبعينيات وحتى اليوم

الملايين والملايين التي أصبحت عبئاً علينا من الدين الخارجي أحياناً ومن الدين الداخلي أحياناً أخرى على إنشاء الكباري العلوية والأنفاق السطحية والجراجات المتعددة الطوابق وزادت من المركبات العامة للمواصلات وكذلك شجعت القطاع الخاص على الدخول في مجال النقل الداخلي إلى جانب قيامها بالمشروع المعجزة مترو الأنفاق وإنشاءات العديد من المدن السكنية الجديدة وزادت من رقع مساحات الضواحي المشهورة، كل ذلك أملاً في حل المشكلة ولكنها لم تحل!!

بل قل إنها تفاقمت وزادت تعقيداً. فقد أصبحت القاهرة تضم ما يقرب من ربع سكان الجمهورية وهذا ما لم تشهده في تاريخ العواصم العالمية أن تشمل عاصمة الدولة وحدها ربع عدد سكانها!! فلماذا حدث هذا يا ترى؟

يذكر التاريخ أن مشكلات القاهرة بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. تلك الحرب التي تبعها رخاء غير مسبوق كان من أكبر العوامل التي شجعت المئات ثم الألوف من أصحاب الأملاك والإيرادات من أنحاء مصر وبخاصة من الصعيد على الهجرة إليها.

هاجر هؤلاء إلى القاهرة بعد أن قاطعوا بلادهم مقاطعة تامة أو تكاد معتمدين في أكثر الأحايين على إيرادهم من أراضيهم بعد أن أقاموا عليها وكلاء عنهم أو جعلوا استغلالها بالإيجار لغيرهم. ثم أصبحوا لا صلة لهم بها إلا تحصيل الإيجار والإيراد في مواعيد محددة من السنة لقضاء باقي العام في أحضان القاهرة. لا عمل لهم إلا إنفاق هذا الإيراد الذي حصلوا عليه نتيجة جهد غيرهم والذي ينقص في أكثر الأحايين عن ثلاثة أرباع إيرادهم الصحيح، وفي بعض الأحيان عن نصف هذا الإيراد لو أنهم كانوا يقومون بأنفسهم على استغلال ثرواتهم وأقاموا لذلك بين أعمالهم وعمالهم. ولقد أثارت هذه الهجرة إلى القاهرة - وقتها - دهشة كثيرين مما جعلهم يتساءلون عن السبب الذي يدفع هؤلاء المهاجرين إلى التضحية بحظ غير قليل من إيرادهم ليبقوا في جو ليس كجو بلادهم في ملاءمته للصحة وفي إراحته للأعصاب وفي شعور صاحبه بما لا يشعر به المقيم في القاهرة من جمال الطبيعة.

ولعل هذا كان من وراء ابتداع بعض فنانينا في الأربعينيات وبدايات الخمسينيات لشخصية عمدة الصعيد التي كان يؤديها الفنان محمد التابعي كبير الرحيمية قبلي وولده «السيد بدير» المهاجران إلى القاهرة لينفقا دخلهما على ملاهي ومراقص العاصمة.

ومهما يكن لبعض هؤلاء المهاجرين من أعذار دفعتهم إلى الهجرة إلى القاهرة واضطرتهم للإقامة بها، فإن كثيرين ممن هاجروا لم يكن لهم عذر إلا فيما في القاهرة من جاذبية ترجع إلى ما فيها من أسباب الدعة للأكثرين. وترجع إلى ما فيها من أسباب الاستفادة العلمية والفنية للأقلين. على أن الهجرة لم تقتصر في هذا الوقت على القادرين من أصحاب المال، ولكنها تعدتهم إلى عناصر أخرى كان أفرادها يطمحون أول الأمر أن يجدوا عملاً في القاهرة أقل جهداً ومشقة من عمل «الزراعة» وفي نفس الوقت أكثر غناء وأجراً. وهذا الدافع نشأ في أغلب الأمر عند بدء صناعات جديدة أنشأتها الدولة والأفراد في شمال القاهرة (شبرا) وكانت تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة ولم تجد أول قيامها كثيراً من الأيدي سريعة التدريب التي تستطيع أن تضطلع بأعباء العمل فيها. فاضطرت إلى أن تؤجر هذه العمالة المهاجرة أجراً حسناً شجع الكثيرين من عمال الزراعة على الهجرة إلى القاهرة للعمل في هذه المصانع بأجور تزيد كثيراً عما كانوا يحصلون عليه في بلادهم، ولكن الأجور لم تلبث أن انخفضت بعدما كثرت الأيدي الصالحة للقيام بشئون هذه الصناعات، ولكن الهجرة تزايدت إذ ما لبثت الدولة أن أنشأت صناعات أخرى في جنوب القاهرة «حلوان» وملحقاتها. وتكررت الظروف التي أحاطت بإنشاء الصناعات في شمال القاهرة «شبرا» من حاجة هذه الصناعات للأيدي العاملة التي شجعت على هجرة الكثيرين من أبناء مصر إلى القاهرة!!

ومن الغريب أن الكثير من هذه المصانع تقوم بصناعات ملوثة للبيئة لا يصح أن تكون في المدن.. فضلاً عن أن تكون في شمالها!!



وهكذا أحيطت القاهرة بمصانع في شمالها وفي جنوبها وأصبحت مصدراً مخيفاً للتلوث البيئي كما استقبلت آلاف المهاجرين من أنحاء البلاد للعمل فيها وبالتالي للإقامة بها. وللمقارنة فقط أود ذكر التالي:

حدث في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي أن عرض بنك مصر إنشاء مصنع للغزل والنسيج بمدينة المنصورة - والتي كانت وقتها بحق عروس النيل - وبعرض الموضوع على أعضاء المجلس البلدي للمنصورة آنذاك رفضوه بالإجماع، لأن صناعة «الغزل» ملوثة للبيئة. فأقام البنك ذلك المصنع في «المحلة الكبرى» وكان سبباً مباشراً في إنشاء أول مستشفى للأمراض الصدرية في الوجه البحري بالمحلة الكبرى.

وهكذا وجدت «المنصورة» وقتها من يحميها من تداعيات الصناعات الملوثة للبيئة، ولكن «القاهرة والمحلة» لم يجدا ذلك والفضل في هذا يرجع إلى «المجلس البلدي» اليقظ الذي كانت كل النقابات المهنية تحرص على ترشيح أفضل عناصرها لعضويته، أما اليوم فمجالسنا الشعبية وتشكيلاتها تدعو للرثاء. على أن الأمور لم تشأ للمنصورة أن تستمر عروس النيل.

فقد حدثت نكسة ٦٧ وأصبحت مدينة السويس في مرمى النيران وكان لابد من نقل مصنع الأسمدة الكيماوية منها وحرصاً على استمرار الإنتاج نقلوه إلى مدينة طلخا التي يصب هواؤها على مدينة المنصورة وصناعة الأسمدة صناعة ملوثة للبيئة فتحولت مدينة المنصورة نتيجة لهذا التلوث من «عروس النيل» التي تبدو دائماً مقبلة على الحياة إلى «عجوز النيل» التي تبدو وكأنها مشرفة على الموت، مع أنه كان من الأنسب للمسئولين وقتها أن ينقلوا هذا المصنع إلى منطقة «قلابشو» أو «زيان»!! فيا ليتنا نعود إلى نظام مجالس البلديات وطريقة تشكيلاتها من أكفأ عناصر النقابات المهنية.

نعود إلى موضوع «القاهرة» ونتيجة للمعارك السياسية التي خاضتها مصر في الخمسينيات لم تستطع أن تحقق في مجال التنمية القدر الذي يمكنها من حل المشكلات المتراكمة في المجال الاقتصادي فبدأت نذر البطالة تطل على المجتمع وزادت الهجرة إلى القاهرة وأصبح أفرادها يقبلون أية أعمال وأية أجور، مما أدى إلى أن كثيرين تكونت منهم عناصر الجريمة نظراً لأن الأعمال التي يقومون بها لا تعود عليهم إلا بالقليل مما أعوزهم ودفعهم إلى هذا السلوك.

ولعلنا نذكر أن أحد وزراء الداخلية وكان واحداً من رجال الثورة أدرك وقتها خطورة استمرار الهجرة إلى القاهرة، فحاول إعادة كل من ليس له عمل فيها إلى بلده، ولكنه لم يستطع الاستمرار

أحيطت العاصمة بمصانع
في شمالها وفي جنوبها وأصبحت
مصدراً مخيفاً للتلوث البيئي كما استقبلت آلاف
المهاجرين من أنحاء البلاد للعمل
فيها وبالتالي للإقامة بها

فى ذلك نظراً للهجوم الشديد الذى تعرض له وقتها من قبل أصحاب المصالح الذاتية وتفاقمت مشكلات القاهرة.

وما لبثت أن ظهرت «العشوائيات» فى داخلها وعلى مشارفها حتى أصبحت - وبلا أدنى مبالغة - بمثابة قنابل موقوتة قابلة للاشتعال فى أى وقت فى ظروف اقتصادية صعبة بما يهدد استقرارها. وهكذا أصبحت «القاهرة» اليوم مدينة العذاب.

هنا ويأتى سؤال: إذا كان ذلك كذلك.. فما الحل؟

إن الحل لا يمكن أن يتحقق بقرار واحد كما أنه لن يتحقق بعدد من القرارات فى اتجاه واحد. وإنما يتحقق الحل بعدد من القرارات الجريئة والسريعة أيضاً فى عدد من الاتجاهات، ولابد لهذه القرارات من مرجعية سياسية وهى تتمثل فى:

١ - إعلان القاهرة من الآن مدينة مغلقة على من فيها من أهلها والذين لهم أعمال دائمة وحقيقية فيها.

٢ - نقل كل المصالح والهيئات التابعة لكافة الوزارات والتى لها صلة بالجماهير إلى باقى المحافظات وتفعيل اللامركزية وشعار الحكومة الإلكترونية فى إدارة هذه المصالح، بحيث لا يبقى فى القاهرة إلا الوزارات وباقى القطاعات التى يصعب نقلها منها.

٣ - أن تنتقل العديد من كليات جامعتى عين شمس وحلوان وغيرها من المعاهد العليا خارج القاهرة وخصوصاً الكليات والمعاهد النظرية.

٤ - أن تكون محطة الجيزة للسكك الحديدية - بعد توسيعها - نهاية وصول القطارات القادمة من الصعيد على أن تبقى محطة القاهرة بتاريخها نهاية للقطارات القادمة من الوجه البحرى فقط.

٥ - العودة لتنفيذ قرارات وزير الداخلية الأسبق الذى سبق وأشرنا إليه من إعادة كل من ليس له عمل حقيقى ومنتج فى القاهرة إلى بلده الذى أتى منه.

٦ - أن تتحمل محافظات مصر كلها عبء عودة هؤلاء وأن يوكل إليها استيعابهم فى أعمال منتجة.

٧ - أن تتوزع خريطة الاستثمارات على كل المحافظات كل حسب إمكاناته البشرية وأن تعطى لمحافظات الصعيد أولوية فى ذلك لأن تفريغ هذه المحافظات إلى جانب المحافظات الحدودية أمر له تداعياته على الأمن القومى المصرى على المدى القريب والبعيد. وأعتقد أننى لست فى حاجة إلى توضيح هذه الجزئية، فكل المهتمين بالأمن القومى لمصر يدركون ذلك جيداً.

٨ - أن تعود القاهرة بأبعادها الجغرافية إلى ما كانت عليه قبل أن تعرف بالقاهرة الكبرى، بحيث لا تشمل إلا قاهرة الفاطميين التاريخية وقاهرة إسماعيل التى تصل إلى الزمالك ومصر الجديدة أو قاهرة البارون إمبان ومدينة نصر.. حتى تتمكن الدولة من تجديد البنية الأساسية للقاهرة.

٩ - أن يعاد النظر فى فلسفة الإسكان التعاونى القائمة حالياً، بحيث لا تقل شقة الإسكان التى يمكن أن ينقل إليها سكان العشوائيات وسكان القبور عن ٧٥ متراً بدلاً من ٦٠ متراً المطبق حالياً لأنه ثبت بالممارسة أن الشقق ٦٠ متراً لا يستمر ساكنها بها أكثر من عام واحد، إذ فى العام التالى إذا جاءه «طفل» فإنه إما أن يبحث عن سكن جديد أوسع أو يلجأ إلى ضم البلكونات إلى شقته، كما يعمد إلى استغلال السطوح أسوأ استغلال وتبدو المساكن - ومن أسف وكما نراها على الطبيعة حالياً - وكأنها «علب من صفيح»!!

١٠ - أن تتوقف الدولة عن إنشاء المدن الجديدة القريبة من القاهرة، لأن ذلك سيصب فى اتجاه جعل القاهرة مصدر جذب للناس وتفاجأ بأن بها ثلث سكان مصر أو نصفهم على الأقل، وهذا ما لا يتفق مع سعينا لاستقرارها وهدوئها.

١١ - أن نعترف بأن ما أنفقناه - منذ السبعينيات - على الكبارى العلوية والأنفاق السفلية والمدن الجديدة قرب القاهرة كان كافياً لإنشاء مجتمعات عمرانية متكاملة (مصانع ومشاريع وإسكان لعمالها) فى عدد من محافظات الصعيد (أكرر ثانية محافظات الصعيد والمحافظات الحدودية). تستوعب البطالة والبطالة المقنعة فيها وتحول بينها وبين الهجرة إلى القاهرة.

لقد عرفت القاهرة - تاريخياً - بمدينة الألف مئذنة، ولكنها الآن - ومن أسف - أصبحت مدينة «الألف مشكلة»!! ■



جبانات القاهرة فى بورصة العقارات!؟

■ ■ بادرت مجلة «وجهات نظر» بدعوة المهتمين والمتخصصين فى مجال العمران إلى إثراء الحوار حول مستقبل القاهرة عام ٢٠٥٠ وطرحت اثنى عشر سؤالاً تمثل كلها تحديات كبرى بالنسبة لمستقبل العاصمة، من بينها كيفية التعامل مع المقابر الموجودة فى قلب الكتلة العمرانية وهى القضية التى سوف أتناولها فى هذا المقال.

فى عام ١٩٨٩ أى منذ حوالى عقدين، صرح المهندس حسب الله الكفراوى وكان وزير الإسكان فى ذلك الوقت، فى حديث

Architecture for the Dead
Cairo's Medieval Necropolis
(عمارة الموتى)
Galila El Kadi & Alain Bonnamy
The American University in Cairo Press, 2007

أجراه لجريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٨٩ بضرورة نقل مقابر العاصمة قائلاً: إنها أصبحت تحتل مكاناً شاسعاً فى قلب الكتلة العمرانية ووصف هذا العمل بأنه «عمل حضارى تباركه السماء ويباركه المنطق». وفى الواقع فإن فكرة نقل مقابر العاصمة خارج النطاق العمرانى كانت - ومازالت - تراود المسئولين، غير أن مثل هذا التوجه لا يستند على أية معطيات موضوعية أو علمية أو أسباب ذات صلة بالمصلحة العامة يمكنها أن تبرره، كما تعكس التصريحات بشأنه جهلاً فادحاً بما تمثله مناطق الجبانات[1] فى مدينة القاهرة. جهلاً بالجغرافيا، كموقع وموضع، بالتاريخ، بالعمران والعمارة، بالقيم التراثية والرمزية التى تحملها هذه الـ Necropolis (مدينة الموتى) الشاسعة والتى تعتبر وبحق «وادى ملوك وملكات»



فكرة نقل مقابر العاصمة خارج النطاق العمراني كانت ـ ومازالت ـ تراود المسئولين، غير أن مثل هذا التوجه لا يستند على أية معطيات موضوعية أو علمية أو أسباب ذات صلة بالمصلحة العامة يمكنها أن تبرره

المصريين المعاصرين. فهل يخطر على بال أحد إزالة أو نقل جبانة طيبة؟

وجبانات القاهرة هي هذا المتصل الجنائزي الذي يمتد بطول ١٢ كم من الشمال للجنوب بموازاة القاهرة التاريخية شرقًا تحت سفح المقطم ويحتل مساحة ألف هكتار[٢] ويتكون من مجموعتين رئيسيتين:

ـ تقع الأولى جنوب وجنوب شرق المدينة وتعد أضخم تجمع من المقابر وتضم من الجنوب إلى الشمال جبانات البساتين والتونسي والإمام الليثي وسيدي أبو الوفا وسيدي الشاطبي والإمام الشافعي وعمر بن الفارض والمماليك والسيدة نفيسة. ويحدها من الشرق تلال المقطم ومن الجنوب منطقة البساتين الصناعية. ومن الشمال القلعة وجامع ابن طولون.

أما المجموعة الثانية فتقع في الشمال الشرقي وتبدأ عند سفح القلعة وتضم من الجنوب إلى الشمال الشرقي جبانات باب الوزير والمجاورين والقرافة الشرقية للمسلمين وقايتباي والغفير ويحد هذه المجموعة من الشرق طريق الأوتوستراد ومنشأة ناصر على تلال المقطم، ومن الغرب طريق صلاح سالم، ومن الشمال الشرقي مدينة البعوث. ويفصلها من الغرب عن القاهرة التاريخية منطقة بها منشآت عسكرية منخفضة الكثافة.


مدخل مدفن عائلة عبود باشا

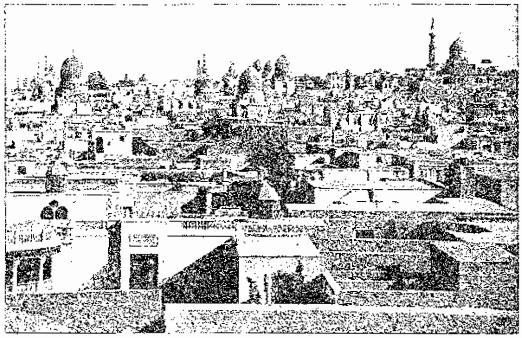
لا يقع هذان التجمعان إذن داخل نطاق الكتلة العمرانية، فلا تحوطهم المساكن من كل جانب، بل مازالا على تخوم العمران، على عكس جبانتي باب النصر وزين العابدين واللتين تقعان بالفعل داخل النطاق العمراني وأحواشهما في حالة متردية، بالإضافة إلى تحول جبانة زين العابدين بشكل شبه تام إلى منطقة للإسكان الفقير، فإذا كان المقصود هو إزالة هاتين الجبانتين، فهذا يمكن أن يكون مفهومًا إلى حد ما. حيث صدر قرار عام ١٩٣٦ بتحويل جبانة باب النصر (٣٣ هكتارًا) إلى حديقة عامة ومنع الدفن بها، إلا أنه يتحتم قبل التفكير في إزالة هذه الجبانة القيام بدراسة ميدانية لتحديد حالة الأحواش والحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه، نظرًا لتميز باب النصر بمقابر من نمط خاص يطلق عليها مقاصير. مشيدة من الخشب ولها فتحات بتكوينات غاية في التنوع تغطى بخشب الخرط وهي تعتبر بالتالي من النماذج المعمارية الفريدة في العمارة الجنائزية ولا مثيل لها في أقطار العالم العربي والإسلامي على حد السواء.

إن تاريخ إنشاء جبانات القاهرة يرجع إلى القرن السابع الميلادي أي أنها أنشئت مع أول عاصمة عربية لمصر. الفسطاط. وعلى مدى أربعة عشر قرنًا توسعت تلك الجبانة التي أطلق عليها القرافة[٣] ثم استحدثت جبانات أخرى بعد ذلك. حيث أضاف كل عصر من العصور اللاحقة جبانة جديدة حتى أصبح لمدينة القاهرة هذا المتصل الجنائزي الضخم. وقد كانت هذه الجبانات في كل العصور السابقة محل اعتناء الحكام، فشيدوا بها المساجد والخوانق والمدارس والأربطة وألحقوا بها المدافن وأيضًا الجواسق والقصور والمتنزهات. وما أن انتهى القرن العاشر الميلادي إلا وكانت بها مجموعة من المنشآت الدينية التي لم تجتمع في صعيد واحد مثلما اجتمعت هنا. وقد قام بزيارتها العديد من الرحالة الأجانب والعرب منذ العصور الوسطى وأشادوا بحسن بنائها وعظمة آثارها وشبهها الرحالة ابن جبير بمتحف للآثار وبإحدى عجائب الدنيا. وذكر ابن جبير أنه بات بالقرافة ووصفها بأنها «إحدى عجائب الدنيا، بما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم وأهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوي الكرامات والأنباء الغريبة».

كما زار مصر الرحالة ابن سعيد المغربي في أواخر العصر الأيوبي وترك لنا وصفًا جميلاً للقرافة، فقد ذكر أنه بات ليالي كثيرة بالقرافة التي تقع شرق الفسطاط وأن بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة وقبورًا عليها مبان معتنى بها وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التي فيها قبر الإمام الشافعي رحمة الله عليه وبها مسجد جامع وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ومدرسة كبيرة للشافعية.

وقد وصفها كل من الحميري والقلقشندي بأنها «تربة عظمى أو عظيمة» وأضاف القلقشندي على ذلك فذكر أن الناس بنوا بها «الأبنية الرائعة والمناظر البهيجة والقصور البديعة يسرح الناظر في أرجائها ويبتهج الخاطر برؤيتها وبها الجوامع والمساجد والزوايا والربط والخوانق وهي في الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن».

وتضم جبانات القاهرة اليوم ٧٨ أثرًا مسجلة على قائمة الآثار من ضمن ٥٣٧ أثرًا إسلاميًا، ٤١٥ ترجع إلى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية. بالإضافة إلى العديد من المواقع التي دفن فيها الصحابة وكبار المتصوفة في الإسلام أمثال ابن عطاء الله وذو النون ورفاق الحلاج (القرافة الجنوبية) والعلامة ابن خلدون والمؤرخ المقريزي (قرافة باب النصر). على سبيل المثال لا الحصر. وتشمل هذه الآثار العديد من الأنماط المعمارية فنجد المجموعات الجنائزية Complexes Funéraires المتعددة الوظائف لسلاطين المماليك كمجموعات قايتباي وبرقوق وإينال وقرقماس بالقرافة الشرقية وأهمها على الإطلاق مجموعة قايتباي التي كانت تعتبر مدينة صغيرة مسورة تضم جامعًا وسبيلاً وكتابًا وضريحًا تعلوه قبة بديعة ومدرسة ومقعد ورواق وربع وحوض للدواب مازال معظمها قائمًا إلى يومنا هذا. وتعتبر مجموعة قايتباي من أروع ما أنتجته العمارة الإسلامية ليس في مصر فحسب، ولكن في العالم الإسلامي برمته. كما نجد أيضًا أضرحة لأئمة لهم



منظر عام لجبانات القاهرة

مكانة كبيرة عند المسلمين كالإمام الشافعي والليثي وسيدي عقبة بن عامر وسيدي الشاطبي (القرافة الجنوبية) وكذلك لآل البيت السيدات رقية (١١١٣) وسكينة ونفيسة وعائشة (١١٢٠) التي تتتابع في شارع درب الوداع سابقًا (الخليفة حاليا) وهو امتداد جهة الجنوب لشارع المعز. وقد أطلق عليه المؤرخون الشارع الأعظم وكان يصل في الماضي حتى جامع عمرو في الجنوب الغربي. ويضم هذا الشارع بجانب اضرحة آل البيت، ضريح تاسع السلاطين المماليك الأشرف خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣) وأشهر ملكات مصر شجرة الدر (١٢٥٠).

تضم القرافة أيضاً خوانق للمتصوفة مثل خانقاه ومدرسة زين الدين يوسف شيخ الطريقة الكاملية ومدافن مستقلة على هيئة قباب لأمراء المماليك تتتابع في تناغم جميل في القرافة الشرقية وقام برسمها في الماضي كبار الفنانين الأجانب أمثال prisse d'Avenne ومدافن أسر البرجوازية والأرستقراطية ويطلق عليها أحواش وتشبه القصور نظرا لاحتوائها على عدة مبان تطل على حوش سماوي وتحتل مساحات تصل إلى عدة مئات من الأمتار المربعة كما أنها مشيدة غالبا بالحجر والطوب. وقام بوضع بعض من تصميماتها كبار المعماريين المصريين أمثال مصطفى باشا فهمي وحسن فتحي.

ويقابل هذا التنوع في الأنماط المعمارية تنوع وثراء في أنماط النسيج والأشكال المعمارية يكتشفها المتجول في تلك المنطقة منذ الوهلة الأولى. ويمكننا هنا أن نتحدث عن تخطيط حضري دون أن يمثل ذلك نوعا من الاستعارة أو الكناية. فمساحات الأحواش تتراوح ما بين بضعة أمتار مربعة وعشرات منها بل ومئات. أما النسيج الحضري فهو يتنوع ما بين المتعامد المخطط والمنتظم والعضوي العشوائي الحر. هذان النمطان يتجاوران في أماكن محددة وربما تداخلا. وينتج عن هذا التداخل العديد من أنماط النسيج الأخرى.

كذلك أفرز تنوع أحجام قطع الأراضي ثراء معماريا كبيرا وهذا أمر طبيعي. فقطع الأراضي ومساحاتها تحدد أشكال البناء والوضع يختلف كلية بين قطعة أرض ذات عشرة أمتار مربعة ومائة متر مربع. وبالتالي فالمدفن يمكن أن يكون مجرد حجر مزدان بشاهدين أو ضريحا هائلاً ذا قبة في وسط حديقة خضراء ويشبه الجامع أو فيللا ذات أبنية متعددة أو كشك خشبي صغير له فتحات مثل القماش المفرغ.

وعند محاولتنا لتحليل تلك العمارة نجدها تبدأ منذ أكثر من ألف عام.. إلا أن هناك العديد من المؤثرات المختلفة تظهر بشكل جلي في وسائل البناء والتفاصيل المعمارية. ولكن تلك العمارة تعبر في المقام الأول عن الرغبة في الإفصاح عن الهوية الاجتماعية من خلال المقبرة. وتشير إلى الأهمية الثقافية لدار الخلود في المجتمع المصري. ومازالت مدينة الموتى في القاهرة تثير دهشة وإعجاب السائحين الأجانب وتعتبر من المزارات المهمة في الدلائل السياحية مثلها مثل القلعة وقاهرة المعز. إلا أنها تواجه عدة تحديات ومخاطر. أولها يتمثل في زحف الإسكان العشوائي داخل حيزها الجغرافي في صورة تجمعات سكنية حول المجموعات الجنائزية الضخمة لقايتباي وبرقوق في القرافة الشرقية، وحول الإمام الشافعي والتونسي في القرافة الجنوبية، وهذه التجمعات مناطق سكنية متكاملة بأنشطتها الحرفية وخدماتها. هذا بالإضافة إلى منطقة الخارطة القديمة شمال القرافة الجنوبية وعرب اليسار شمال القرافة الشرقية وبعض الجيوب المتناثرة. وبجانب هذا النمط هناك سكنى الأحواش. وبالتالي فقد أصبح هناك تداخل شديد في بعض مناطق الجبانات بين أماكن ذات وظائف مختلفة.

ويقدر عدد سكان الجبانات بحوالي ٢٠٠.٠٠٠ ساكن بينهم ٥٠.٠٠٠ في الأحواش. المشكلة الأخرى تتمثل في ارتفاع منسوب المياه الجوفية واختلاطه بالصرف الصحي، مما أدى إلى تدهور المبنى الأساسية والفوقية للعديد من المقابر ذات الأهمية المعمارية الفائقة مثل مجموعة السلحدار (١٨٥٨) وحوش توفيق والبرنسيسات (١٨٧٩ - ١٨٩٢).

وبدلاً من التفكير والإعداد لنقل السكان وعلاج مشكلة المياه الجوفية التي تهدد جبانة المصريين المحدثين تطرح الإزالة كأسلوب وحيد للتعامل مع مشكلة المكان. فهل كان يجب إزالة أهرامات الجيزة وأبو الهول لزحف قرية نزلة السمان تجاههم وارتفاع منسوب المياه الجوفية؟ هل تم تقدير كم ستتكلف إزالة أكثر من ٢٥٠.٠٠٠ حوش ومدفن من الحجر والطوب، بعضها لا يتعدى عمره ٣٥ عاما (جنوب جبانة عمر بن الفارض وقرافة البساتين وجزء من التونسي؟ إن مسلسل هذه الخطة غير المدروسة قد بدأ منذ عام ١٩٩٧ عندما طرح مشروع القاهرة التاريخية الذي أسقط من حسابه تماما منطقة الجبانات وجبل المقطم، بينما كان المخطط الذي طرحته منظمة الأغاخان واليونسكو عام ١٩٨٠ يتضمن الحفاظ على جبانة القاهرة ويحدد مناطق للحفاظ داخلها، وهي تلك التي تضم الآثار المسجلة. كما قمنا بوضع مخطط هيكلي نهاية الثمانينيات حددنا فيه المناطق التي يجب إزالتها والمناطق التي يجب الحفاظ عليها واقترحنا إنشاء حديقة جنائزية في قرافة باب النصر والقيام بتشجير منطقة الجبانات لتصبح حديقة جنائزية كبيرة ومتحفا مفتوحا يعرف الأجيال الحالية والقادمة بتاريخ أعلامهم وآثار أجدادهم الفريدة. وقد وضعنا الدراسة التي قمنا بها تحت تصرف وزير الإسكان حسب الله الكفراوي آنذاك وأدرجتها المجموعة التي كانت تشرف على وضع المخطط العام للقاهرة الكبرى داخله. ثم أصدرنا كتابا باللغة الفرنسية، تمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية يظهر الكنوز المعمارية التي تحتويها جبانات القاهرة. فما هي الحجج التي يسوقها من يريدون إزالة جبانات المسلمين الأوائل والمعاصرين؟ وما هو الهدف من الإزالة؟ وما هو الاستعمال المستقبلي للأراضي التي سوف يتم إخلاؤها من الأحواش والآثار الإسلامية؟ هل ستطرح للبيع لشركات الإنماء العقاري العملاقة من أجل تشييد المزيد من المساكن الموجهة للصفوة؟ ألم يكتفوا بكل ما تم تشييده من تجمعات في الصحاري وعلى طول الطرق السريعة في الشرق والغرب؟ إن محاولة بناء برج تجاري إداري تحت سفح القلعة التي وقف ضدها الحريصون على تراث الأمة المعماري والعمراني وأيدتهم في موقفهم منظمة اليونسكو حتى تم التراجع عن إكمال المبنى الذي كان البناء قد ارتفع به عدة أدوار على سطح الأرض، ما هي إلا جزء من مخطط يهدف إلى إحلال مركز مالي وتجاري حديث على غرار مراكز دبي ودول الخليج لجذب جزء من الاستثمارات التي تستحوذ عليها تلك المدن الدول، وهو حلم يداعب مخيلة واضعي تصور القاهرة ٢٠٥٠، إلا أنهم نسوا أن مصر ليست دبي وأن لها تاريخا ضاربا في القدم ترك بصماته المادية على المكان وتلك البصمات هي التي تضفي عليه العديد من القيم وتعطي له معنى وتؤكد تفرده وتجتذب الآخرين وتثير إعجابهم وتقديرهم. هل تزيل الآثار الإسلامية وأحواش الأعيان والحكام أمثال أسرة محمد علي وأحمد عرابي وعمر مكرم وجزء لا يستهان به من الوجوه السياسية المرموقة التي تعتز بها الأمة من أجل محاكاة دول مستجدة تفتقد تراكمات الزمان في المكان؟

إن أي تصور لقاهرة ٢٠٥٠ يجب أن يأخذ في اعتباره أهمية مناطق الجبانات ويتعامل معها كمناطق تراثية وكجزء من ذاكرة المدينة والقطر المصري برمته ويحافظ عليها وينميها ويجعلها متنزها هائلاً تحت سفح جبل المقطم في مقابل حديقة الأزهر، ولكن على منسوب أدنى. تعالوا نتخيل أنه خلال الأربعين عاما التي تفصلنا عن عام ٢٠٥٠، قد تم نقل سكان الجزر السكانية العشوائية التي تحوط المجموعات

جبانات القاهرة هي هذا المتصل الجنائزي الذي يمتد بطول ١٢ كم من الشمال للجنوب بموازاة القاهرة التاريخية شرقاً تحت سفح المقطم ويحتل مساحة ألف هكتار

الجنائزيه على دفعات. وكذلك سكان الأحواش إلى مساكن صحية في المدن الجديدة وأزيلت مساكنهم القديمة وتحولت الفراغات التي تم إخلاؤها إلى ساحات مفتوحة أو حدائق. فاظهرت روعة الآثار التي لم يعد يحجبها شيء ثم تبنت وزارة البيئة والجمعيات المتخصصة مشروعاً لتشجير المحاور الرئيسية للجبانات بأشجار الأكاليبتوس التي لها خاصية عالية في امتصاص المياه. ثم سنت قوانين تجبر أصحاب الأحواش على ترميمها. تعالوا نتخيل المنظر الذي سوف تكون عليه هذه الجبانة الفريدة عند النظر إليها من حديقة الأزهر أو من قمة جبل المقطم. ثم تعالوا نتخيل السيناريو البديل، أي إزالة الجبانات بالكامل، وبناء وتحويل هذا السهل الذي قيل قديماً إن له «تأثيراً فردوسياً» لأن جسم الميت يحفظ فيه لفترة طويلة. الذي يضم رفات الأجداد على مدى عشرة قرون إلى أبراج سكنية أو تجارية من الزجاج الفيميه والحديد لا تحمل أي طابع مميز لا قيمة لها ولا تساهم في حل مشكلة الإسكان في قاهرة متخمة بمساكنها الخالية[4]. فهل هذا ما يريدون أن يورثوه للأجيال المقبلة؟

إن الحفاظ على مناطق الجبانات في القاهرة هو عمل حضاري سبقتنا إليه العديد من الدول الأوروبية التي حولت مناطق المقابر التاريخية إلى حدائق ومزارات مثال مقابل مونمارتر Montmartre وبارلاشيز Pére la Chaise في باريس. وهما داخل الكتلة العمرانية وتعتبران من مناطق النزهة والترفيه وقد تم تنسيقهما كحدائق جنائزية بديعة يتردد عليها في عطلة نهاية الأسبوع مئات من الباريسيين والسياح الأجانب، مما جعلها مناطق للاستمتاع والتأمل وإثراء المعارف والتبادل الثقافي بين الشعوب وككل الأماكن التراثية، كمصدر للدخل السياحي.

إن الكتاب الذي صدر مؤخراً عن الجامعة الأمريكية عن «عمارة الموتى، نيكروبوليس العصور الوسطى للقاهرة» يظهر عظمة وروعة وتفرد وتنوع وثراء العمارة الجنائزية في جبانة القاهرة. ويمثل دعوة إلى إعادة النظر في خطة الإزالة التي يطرحها مخطط القاهرة ٢٠٥٠.

المقابر

باحب المقابر، واموت في التُرب.
هناك زي حي الغُناي في الهدوء
الجميل.
هناك زي شط البحور، في النسيم
العليل.
هناك العجب.
هناك تمشي تسمع لرجلك دبيب
عالي برضي الغرور.
هنالك كله راقد، مفيش غيرك انت
اللي واقف فخور.
وأما الزهور،
هناك بالمقاطف على الأرض،
يا مسورقة يا بتحتضر،
تجيب أدوات العطور،
وتصنعها عطر اسمه مثلاً: عبير
العبَر!
تبيعه، وتكسب دهب.
وتدهس على العضم، وتقول كلام
فلسفة،
وتملا كتب.
ده غير الثواب اللي تقدر كمان
تكسبه،
من الفاتحة ع الميتين،
فمنها عبادة، ومنها استفادة، ومنها
أدب.
لهذا السبب،
باحب المقابر.. لكين،
بعقلي الرزين،
باحب البيوت، واللي فيهم،
زيادة!

صلاح جاهين

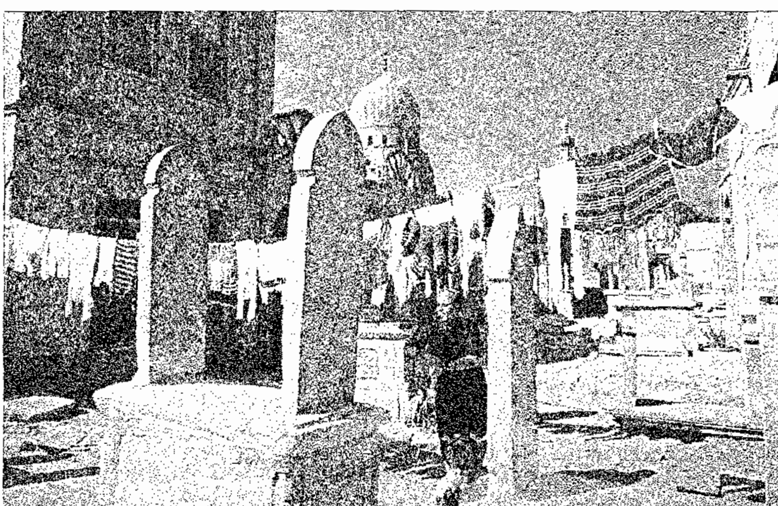
هوامش:

(١) الجبانة تعني الصحراء.
(٢) الهكتار ١٠,٠٠٠ متر٢
(٣) يكاد يتفق جميع المؤرخين وأصحاب المعاجم اللغوية والباحثون على أن القرافة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى بنو قرافه وهم بطن من بطون قبيلة المعافر اليمنية التي شهدت فتح مصر وأنهم نزلوا بهذه الخطة بالفسطاط من مصر فسميت بهم مقبرة مصر القرافة.
(٤) تضم القاهرة الكبرى طبقاً لآخر تعداد للسكان والإسكان لعام ١٩٩٦، نصف مليون مسكن خال من ضمن ثلاثة ملايين تحضر وريف القطر المصري

المصادر والمراجع:

١ - ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبي عبدالله) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، معجم البلدان - المجلد ٧، الطبعة الأولى ١٩٠٩م، ص ٤٣ - ٤٤.
٢ - ابن جبير: الرحلة، ص ٤٩.
٣ - ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ص ١٢.
٤ - العمري (شهاب الدين أحمد يحيى بن فضل الله) ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) ١٩٨٥م، ص ٢٢.
٥ - المقريزي: (السلوك في معرفة دول الملوك) القاهرة - بولاق ١٩٣٦م.
٦ - (باب النصر الجبانة الخشبية) - جليلة القاضي - آلان بونامي، المعهد الفرنسي للأبحاث من أجل التنمية، مايو ١٩٩٠م.
٧ - Galila El Kadi et Alain Bonnamy - Institut de Recherche pour Le Développement, "La Cité des Morts, Le Caire", Mai 2001
٨ - Architecture for the Dead, Cairo's Medieval Necropolis, Galila El Kadi - Alain Bonnamy, American University in Cairo Press, Cairo September 2007

المقابر سكن من لا سكن له



العين تطرب قبل الأذن أحيانا

عز الدين نجيب

■ لايزال حلمى التونى يمتلك أحلامه، ويحمل حنينه إلى لحظات السعادة والبهجة - التى كانت - حين كان الزمان يفيض بالإنسانية والدهشة.. إنه يستحضر - بين معرض وآخر - صورا وملامح من تلك اللحظات، ثم ينفخ فيها من روحه حتى تكبر، فيستولد منها فى كل معرض عالمًا بأكمله.

هكذا فعل فى كثير من معارضه السابقة، باستدعائه لذكريات الطفولة والصبا، ولحظات الفرح والأعراس والقصص والحكايات الشعبية، وصور الفوارس والعذارى والطيور والزهور، وأيقونات الطقوس ورموز الوشم، ورسوم السير الشعبية ونقوش الفنان الفطرى فوق الجدران وتصاوير المشاهير فى الزمن الجميل.. إنه لم يتوقف عن استدعاء ذلك كله واستلهامه فوق خلفية تمتد بامتداد الحضارة على نهر النيل، بإيماءات دالة على الشخصية المصرية بتجلياتها المختلفة، لكنه فى كل ذلك لا يلتصق بأرض الواقع حتى يبدو فنانًا واقعيًا أو فطريًا، ولا يطير بعيدًا عنه محلقًا فى أجواء الرومانسية فيفقد مصداقية الانتماء إلى هذه الأرض، إنما استطاع أن يصنع للوحاته أجنحة خفية تجعلها «تبدو» محلقة فى أجواء الخيال فيما تنغرس أقدامها فى الأرض، وتجعلها فى ذات الوقت حافلة بدهشة الأطفال ونقاء الفطريين، رغم أنها تقوم على مفردات مألوفة ومعتادة استمدت من شتات الواقع والذاكرة.. وبين هذا وذاك يقود فطرة الطفولة داخل «حلمى» وعى مثقف يعصمه من الوقوع فى وهم زائف بجمال الواقع وهو ملىء بالقبح، أو - بالأحرى - إنه يصنع واقعا افتراضيا يحلم بأن يكون!

فى معرضه الجديد بقاعة بيكاسو بالزمالك - أواخر يناير الماضى - اتخذ «التونى» من الموسيقى الشرقية عنوانًا جامعًا للوحاته الزيتية، ما يوحى - حتى قبل مشاهدتها - بشيئين، الأول: هو الطرب الذى يرتبط عادة بالزمن الماضى، والثانى: هو صور المنمنمات العربية والفارسية التى حفلت بالعازفين وبجلسات الأنس خلال عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين، والتى كان الفنانون من أمثال سعد المصرى فى القاهرة ويحيى الواسطى فى بغداد وبهزاد فى إيران. يرسمونها على أطباق الخزف أو على صفحات المخطوطات للقصص والمقامات، حيث تعج هذه اللوحات بمشاهد الأمراء والندماء وهم يتبادلون كؤوس الراح، وأمامهم تعزف العازفات وترقص الراقصات.. وقد صدق توقعى بالنسبة للجانب الأول وهو الطرب، إذ إنك بمجرد دخولك القاعة تجد نفسك محاطًا بجو من الموسيقى البصرية ذات التقاسيم الشرقية والإيقاع المنتظم..

فتيات متربعات(١) على الأرض يعزفن على العود بنفس جلسة جداتهن فى تصاوير العصر الأموى والعباسى، أو جالسات فوق كراسى أسدلت عليها فساتينهن(٢) المنقوشة بأزهى الألوان حتى اختفت قوائمها، أو يقفن حاضنات لآلة الكمان - فى حنان ممزوج بالشجن - بين الخد والكتف، أو آلة العود حتى تتوحد مع نبض قلوبهن، ويأتى انتظام التقاسيم الإيقاعية من تصفيف عناصر اللوحات على وتيرة واحدة بشكل متماثل وئيد الحركة شديد الوقع بالخط الصريح واللون الساطع والوحدات الزخرفية المتكررة كدقات الطبول ودندنات العود ورتابة صوت الكمان.

أما الجانب الثانى فيختلف عن لوحات المنمنمات القديمة فى اقتصار كل لوحة لـ «حلمى» على عنصر بشرى واحد هو العازفة، بعيدًا عن فرقة التخت وعن الراقصات والأمراء والندماء. ونرى عازفاته الصغيرات وقد ارتدين فساتين عصرنا الراهن بأذرع وصدور مكشوفة أو نصف مكشوفة أو مكسوة(٥)، وهن جميعًا فى وضع مواجه لنا، أشبه بالدمى أو الصور التذكارية القديمة، باستثناء فتاة واحدة أو اثنتين رسمتا فى وضع جانبى أو من خلال لفتة أو إيماءة.



... العازفة

ورغم هذه الحالة التطريبية المبهجة، فثمة ما يدهشك فى وجوه العازفات، البيضاء كالشمع، الخالية من التعبير كالأقنعة، المفتوحة العيون على اتساعها مزججة بالكحل الكثيف، مشوبة بالحزن العميق. فتذكرك بأقنعة الفيوم الأثرية فوق مومياوات الأميرات وعامة الشعب على السواء وهى تحملق نحو الأبدية، مثلما مثل تماثيل ملوك وملكات عصر الأسرات قبل آلاف السنين، فى جلساتهم الثابتة الوقورة وأيديهم وأذرعهم تتقاطع فوق صدورهم كأنهم يكتمون الأسرار المقدسة(٦).. عازفات «التونى» - إذن - أقرب إلى عازفات المعبد المصرى القديم، منهن إلى عازفات قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين.. هل تفضح العيون إذن ما فى صدر مبدعها، فيما يريد أن يأخذنا إلى حالة من البهجة والطرب؟.. أم أن الحزن قد تلبس الفرح فى زماننا حتى بات الفصل بينهما مستحيلاً؟.. أم أنها طبيعة المصرى الذى ما إن تواتيه لحظة فرح حتى يدعو الله راجيًا أن يكون خيرًا؟!

غير أن المشاعر والنوايا تظل ملكًا لصاحبها وحده، ويقدر بقائها فى منطقة الأسرار



يزداد العمل الفني ثراء، بتعدد الانطباعات والتأويلات والأسئلة لدى المتلقين له. لكن يبقى من حقهم وحق الناقد أن يكتشفوا أسرار الفن فيها إن استعصت عليهم أسرار النفس.

إلى جانب الأوضاع الثابتة للأشخاص، والإيقاع الناعم لحركتهم، تمثل الألوان أدوار البطولة في جميع اللوحات، صانعة حوارات بصرية أخاذة، يتصدرها حوار الأحمر والأخضر اللذين لا تكاد تخلو منهما لوحة واحدة(٧)، ثم حوار الأزرق والأسود، وما بين هذه الألوان من درجات بينية.. إن الأحمر يمثل للأخضر نقيضه وعشيقه في آن واحد. فمن الساخن والبارد فيهما تأتي حميمية العناق والانسجام، وبتجاورهما يزداد كل منهما توهجا وإشعاعا، كذلك الحال بين الأزرق والأسود، مع ما يميز بين اللونين السابقين من تأثير على النفس، فإن التحامهما يولد شحنة درامية مكتومة، ويعمق حالة الحزن والشجن بقدر ما يحملنا إلى ما فوق الواقع.. إلى حالة تشبه العبادة والقداسة ربما.. ولنأخذ - كمثال - تلك اللوحة الفذة (الثنائية من لوحتين لعازفتين(٦) تبدوان كتوءمتين لتطابق الملامح بينهما، بنفس العيون العميقة المعتمة والحواجب المقرونة، ونفس لون الفستان الأسود الذي انطبعت عليه نجوم كبيرة الحجم كثيفة الزرقة، ونفس تسريحة الشعر الغريبة ذات الكتلتين الطائرتين على الجانبين، وكل كتلة منهما على شكل ثمرة الباذنجان، لكنهما تجلسان في وضعين متعاكسين مع انعطاف كل وجه إلى داخل اللوحة، وقد احتضنت إحداهما آلة العود واحتضنت الثانية آلة الكمان، وتماوجت خطوط التكوين في إيقاع هامس يعادل صوت الموسيقى المتخيل من حركات العزف وإيقاع الخطوط والألوان، وتؤكد هذا الإيقاع تلك البقع البيضاء الناصعة لوجهي الفتاتين (أو لقناعيهما الشمعيين) وأياديهما الأربع فوق الآلتين بأصابعهما الرفيعة المدببة التي تنتهي أناملها بأظافر مطلية باللون الأحمر، ما يمثل في مجمله حركة متماوجة فوق السطح القاتم.. إننا لو أغمضنا أعيننا وقللنا كمية الضوء الساقط على اللوحة إلى أقصى حد ممكن، سوف نرى بقع الوجوه والأيدي البيضاء مثل المسرح الأسود أو مشاهد «البانتومايم»، حيث ترقص الأجزاء الظاهرة في الظلام من أجسام الممثلين رقصة تعبيرية، لكننا بعد إعادة فتح عيوننا نجد أنفسنا وقد أخذنا بعيداً، بفعل هذا الأزرق المكتوم المغموس في الأسود الفاحم - نحو حالة من الترتيل الطقسي أو الدعاء الذي تتردد أصداؤه في خلفية الفتاتين على شكل تموجات للون الطيني بدرجاته الخافتة.



أما اللوحات التي تنفرد فيها العازفة على مسطح اللوحة.. جالسة أو واقفة.. فإن الفنان يؤكد فيها حالة السكون «الماضوية» بإدخالها داخل برواز عريض من الألوان والزخارف من داخل البرواز الخارجي، وتلك حيلة معروفة في التصوير المعاصر، لتباعد بين الصورة والواقع وتنقلها إلى واقع مواز، بل قد تنقلها إلى ما يشبه صور الأشخاص في ورق اللعب «الكوتشينة»، وكأنه يوهمنا بأننا إزاء لعبة بصرية ولسنا إزاء حقيقة واقعة، ويؤكد ذلك تسطيح الشكل ليصبح ذا بعدين اثنين بدون البعد الثالث (العمق)، الذي يستعيض الفنان عنه بزخارف كثيفة من الأزهار والأوراق داخل المستطيل في خلفية الشخص، وهي تذكرنا بزخارف السجاد وبلوحات المنمنمات العربية في ذات الوقت(١).

لكنه، إذ يعتمد في عملية التسطيح للأشكال على الخطوط والألوان والمساحات، فإنه يحاول التخفيف من الصرامة والجمود في حركة تلك الأشكال وكسر حدة خطوطها، وذلك بجعلها ترشح بظلال خفيفة من اللون الأزرق السماوي أو الوردي، تبدو كأصداء للخط أو للمساحة الصماء، وتضفي نوعاً من التجسيم الخفيف للمشخصات، يذكرنا بالتصوير المصري القديم أو بالنحت الجداري البارز والغائر في المعابد آنذاك، غير أن الفنان يستخدم الظلال في أحيان أخرى لغرض مختلف وهو خلق زوائد تكميلية للأشكال المادية المجسمة في اللوحة، مثل قيامه بمد ظلال لأرجل الكراسي تحت أقدام الفتيات، أو بجعل هذه الظلال امتداداً لأقدامهن حتى نهاية الضلع الأسفل من اللوحة(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، فيثير بذلك نوعاً من الذبذبة البصرية المخادعة للنظر، بغرض المفارقة للواقع نحو واقع افتراضي، وهي لعبة اشتهر بها «التوني» خلال معارضه السابقة.

ولم يكن ذلك وحده هو ما استدعاه من تلك المعارض، فثمة عناصر أخرى ترتحل معه كظله من معرض إلى آخر، وكأنها لزمات أسلوبية يستمتع بها لذاتها، بغض النظر عن الموضوع الذي تصوره اللوحات، مثل أواني الزهور والفاكهة والورود البلدية والفساتين المزركشة والخلفيات المشجرة والطيور بأنواعها والأسماك أيضا، وهناك - إلى جانب كل ذلك - الأوضاع الثابتة للأشخاص بأسلوب الصور التذكارية القديمة، وهو لفرط عشقه لتلك العناصر يضعها بشكل تلقائي في خلفيات الأشخاص بأحجام صغيرة أو متناهية الصغر كالتمائم، مثل لوحة «عازفة الكونترباص»(٨) وهي تقف مرتدية فستاناً أسود وشعرها يطير كالوشاح إلى جانب واحد بفعل الحركة الانفعالية للعزف، وعلى خلفية اللوحة ذات اللون الوردي الدافئ سمكة ذات ظل متشعب، تقف فوقها راقصة باليه على قدم واحدة وهي ذات حجم صغير جداً، وشعرها يطير خلفها، وفي الناحية المقابلة من الأرض - قرب قدمي العازفة - نرى بيضة صغيرة ذات ظل ممتد، فيما نرى أعلى يمين اللوحة طائراً صغيراً يندفع نحو ذراع العازفة.

إن مثل هذه المفارقات الإيهامية بواقع افتراضي تتكرر في عدد كبير من لوحات المعرض، وتتراوح المفارقات بين الإيهام التمثيلي بالحركة، وبين التصاعد بالإيهام إلى حد السريالية.. من النوع الأول نختار لوحة «حلم العزف» (٩)، التي تصور فتاة ترتدي فستاناً من القطيفة السوداء بنقوش لا تكاد ترى، وهو يكشف من الجزء الأعلى من جسمها أكثر مما يغطي، صانعاً شكلين هرميين على مساحة الصدر، وتطير كتلتا شعرها على الجانبين بتأثيرات من خطوط شبكية فوقهما، أما المدهش فهو اتخاذها وضع العزف على الكمان دون أن يكون هناك كمان!.. وهنا تتأكد لعبة الإيهام بالعزف، أو خلق حالة افتراضية للعزف والعيش فيها، ولمزيد من تأكيد اللعبة يتلاعب الفنان بأبصارنا على سطح اللوحة القاتمة، بأن أضاف في أسفلها شكل آنية للفاكهة بلون أبيض مثل لون جسم الفتاة المرمري، وقد اختفى خلفه نصف شكل الآنية، وهنا يتحرك البصر صعوداً وهبوطاً بين وجه الفتاة وحركة ذراعيها التي تكون مثلثات عدة بزوايا حادة، وبين نصف الآنية، في علاقة تبادلية يؤطرها برواز أسود من داخل البرواز الخارجي للوحة.

ومن هذا النوع من

استطاع التونى أن يصنع للوحاته أجنحة خفية تجعلها محلقة فى الخيال فيما ينغرس أقدامها فى الأرض













من معرض موسيقى شرقية ٢٠٠٧ زيت على قماش ... سم

المفارقات أيضا تختار لوحة «العازفة فوق الجاموسة».. والمفارقة تبدأ بالتضاد بين الرداء الأبيض الناصع للفتاة ذات الحجم الصغير جداً بالنسبة للجاموسة وإن كانت ناضجة الأنوثة، وبين لون الجاموسة القاتم وهو يجمع بين الأسود والأزرق، لكن المفارقة الأكبر هي جلوس الفتاة باطمئنان وهي تعزف على الكمان بمنتهى الاستغراق فوق ظهر الجاموسة، التي نراها تنعطف برأسها مستديرة جهة الفتاة إلى أقصى حد تسمح به مرونة جسمها، وكأنها تستجيب وتتفاعل مع الأنغام، وبالقرب من ضرعها الممتلئ باللبن نرى بين أظلافها بضع بيضات ناصعة البياض فوق أديم الأرض الداكن، وفي أعلى يمين اللوحة ثلاث نخلات تتدلى منها سباطات البلح الأحمر، وفي مقابلها ـ على الجانب الأيسر ـ نرى طائر أبوقردان الأبيض يحلق خارجاً من «الكادر».

أهي حالة من التغني بالخصوبة والعطاء والخير من خلال هذه الرموز التي يصعب أن تجتمع على أرض الواقع؟.. أم هي حالة من الغزل الرقيق للسريالية؟.. إلا أنني أرى أن لوحته تلك أقرب إلى ما يسمى «بالفن البريء» الذي كان رائده الفنان الفرنسي هنري روسو، إذ نجد في لوحاته فتيات يعزفن للوحوش المفترسة، مع فارق مهم لدى «التوني».. هو مصاحبة عازفته لحيوان طيب معطاء.

لكن ميله على استحياء نحو السريالية يتجلى ـ على غير استحياء ـ في لوحة يمكن تصنيفها ضمن عالم السريالية بامتياز، وهي بعنوان «التخت الشرقي»(١١).. وفيها نجد رجلين وسيدة بملابس السهرة الرسمية السوداء فوق خلفية أقرب إلى السواد أيضاً، وبدلاً من الرؤوس جعل الفنان مكان رأس السيدة آلة كمان، ومكان رأس أحد الرجلين في الخلف آلة عود، أما الآخر ـ في المقدمة ـ فاحتلت مكان رأسه آلة القانون، وبقيت تفاصيل جسم السيدة الأبيض وقميصي الرجلين وأيديهما ومناديل الجيب على شكل الأهرامات الثلاثة بيضاء ناصعة، تقابلها مثلثات روابط العنق الحمراء على شكل «بيون»، وهي تتوسط المثلثين الأبيضين للجزءين الظاهرين من القميصين. وفوق كتف الرجل الأيمن، وهو أقرب إلى «مانيكان» خشبي، يقف تمثال صغير لعازفة مجنحة على العود، يقابله شكل دبوس صدر السيدة.

إنها لوحة غرائبية بالنسبة لعالم حلمي التوني، لكنها تجربة تنم عن هاجس مشروع للبحث، نحو تجاوز العقلانية حتى لو اتخذت إهاب العزف الموسيقي، ولعلها تأتي في سياق حالة اللاعقلانية التي نعيشها، وقد صارت الأعمال السريالية بالنسبة لها أشكالاً معقولة!!



١١ ـ التخت الشرقي

١٢ ـ الجاموسة وعازفة الكمان



١٣ ـ عازفة الكونشرتو




بلمسة ... كل ما تحتاج
سيارات
مطاعم
فنادق و منتجعات
YellowPages.com.eg
EGYPT'S OFFICIAL LOCAL SEARCH SITE
Lufthansa online
MAGRABI
Toyo Egypt Company
Mize
TOYOTA
لخدمة رسائل المجانية ... ادخل على موقعنا الآن!
YellowPages.com.eg
موقع البحث الرسمي للأعمال في مصر



عالم بات روبرتسون!

محمـــد الســـماك

إذا كان أكثر من نصف الإسرائيليين قد وافقوا على الانسحاب من قطاع غزة، فإن كل المسيحانيين الصهاينة فى الولايات المتحدة كانوا ضد هذا الانسحاب

* * على الرغم من أن ظاهرة الإرهاب ترافق حياة الإنسان منذ نشأته الأولى (قابيل وهابيل) فإنها لم تتبلور كعامل من العوامل المؤثرة فى صناعة القرار السياسى إلا فى عام ١٧٩٣ عندما وظفها بعض فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال روبسبير وسان جيست وكوثون وغيرهم على نطاق واسع. فقد عُرفت الفترة من مارس ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ بعهد الإرهاب او عهد الرهبة. وتمّ خلالها قطع رؤوس ٤٠ ألف شخص بالمقصلة واعتقل ٣٠٠ ألف شخص آخر. يومها كان عدد سكان فرنسا لا يزيد على ٢٧ مليون نسمة.

منذ ذلك الوقت لم تغب هذه الظاهرة عن أى فترة من فترات السيرة التاريخية المعاصرة للإنسان. ورغم أن ممارستها تكاد تصبح تقليداً من تقاليد العمل السياسى، إلا أن ربط الإرهاب بالدين يسبق ولادة هذه الظاهرة ويعود إلى المفاهيم المتعلقة بالحروب المقدسة وشرعيتها: متى وكيف.

المداخلة التى سوف أقدمها لا تتناول هذه المفاهيم. أى متى تكون الحرب مبررة وجهادية؛ ومتى تكون غير مبررة وإرهابية. ولكنها تتعلق تحديداً بالأسس الدينية التى تعتمدها حركة المسيحانية الصهيونية فى الولايات المتحدة للقيام ولتبرير القيام بأعمال إرهابية على نطاق جماعى واسع.

عندما أُصيب الجنرال اريال شارون بنزيف فى المخ ودخل الغيبوبة فى مستشفى هداسا فى القدس، أصدر القس بات روبرتسون «الحكم الإلهى» عليه.

والحكم يقول: «إن الله يعاقب شارون بسبب الجريمة التى اقترفها بالانسحاب من قطاع غزة..

لم يدعُ بات روبرتسون ربه ليخفف عن شارون معاناة المرض، أو أن ينقذ حياته. ولكنه اعتبر إصابة شارون عقاباً إلهياً. واعتبر بالتالى معاناته تشفياً ودرساً لكل من تسول له نفسه الانسحاب من «الأرض التى اختارها الله لنفسه وللشعب الذى أحبه».

روبرتسون ليس مجرد قس أمريكى عادى. إنه من أقطاب الحركة المسيحانية الصهيونية فى الولايات المتحدة. وتؤمن هذه الحركة بأن من حقها بل ومن واجبها العمل على تحقيق «الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح. وإن من مقتضيات هذه العودة قيام «صهيون» على كامل الأرض التى وعد الله بها بنى إسرائيل، وبناء الهيكل حيث يقوم الآن المسجد الأقصى ليكون مرة ثانية المنطلق للمسيحية الإنجيلية التى سوف تسود العالم كله. وفى اعتقاد هذه الحركة أيضاً أن كل الناس سوف يذوبون فى النيران التى تصهر الحديد فى معركة مصيرية ونهائية يطلقون عليها معركة «هرمجيدون» (نسبة إلى سهل ماجيدو الواقع بين القدس وعسقلان). أما الذين يؤمنون بالمسيح العائد فإنهم يولدون ثانية بالإيمان.

وتضم هذه الحركة حسب ادعاءاتها حوالى ٧٠ مليون أمريكى. إلا أن التقديرات التى تعترف بها الكنائس الإنجيلية الأخرى التى لا تشاركها هذا الاعتقاد تخفض العدد إلى حوالى ٤٠ مليوناً.

وتدير هذه الحركة سلسلة من محطات التلفزة والإذاعة والصحف والمجلات؛ كما تدير عدداً من الجامعات والمستشفيات المنتشرة فى طول الولايات المتحدة وعرضها.

أما روبرتسون نفسه (وهو مؤلف كتاب الألفية الجديدة The New Millenium الذى يتنبأ فيه بأن هذه الألفية سوف تشهد معركة هرمجيدون النووية المدمرة ومن ثم العودة الثانية للمسيح) سبق له أن ترشح لمنصب رئيس الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٠ ثم انسحب لمصلحة الرئيس رونالد ريجان الذى كان يشاطره الإيمان بتعاليم الحركة المسيحانية الصهيونية.

وعمل روبرتسون مستشاراً للرئيس ريجان فى الشئون الدينية حتى إن ريجان كان يقول: «أتمنى أن يكرمنى الله بالضغط على الزر النووى حتى تقع هرمجيدون وحتى يكون لى شرف المساهمة بعودة المسيح».

ومن هذه التعاليم التى تقول بها هذه الحركة أيضاً وجوب «تحرير وتطهير» أرض الله من العرب مسلمين كانوا أو مسيحيين؛ وتهويدها. ليس حباً باليهود، ولا إيماناً باليهودية، ولكن تنفيذاً للشروط اللازمة للعودة المنتظرة. ذلك أن هذه العودة تعنى حتماً فناء كل اليهود باستثناء ١١٤ ألفاً منهم فقط ينجون من الهلاك بتحولهم إلى المسيحية واتباعهم المسيح العائد. أما الآخرون من اليهود الذين يتمسكون باليهودية، فيذوبون مع المسلمين ومع سواهم من الذين ينكرون المسيح الثانى فى نيران هرمجيدون!!

وانطلاقاً من هذه العقيدة تعتبر الحركة المسيحانية الصهيونية العرب المسلمين والعرب المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليين من غير المولودين ثانية والسريان والآشوريين، أعداء يجب القضاء عليهم وتطهير أرض المسيح العائد منهم. وانطلاقاً من هذه العقيدة أيضاً، تعتبر الحركة الإسرائيليين الذين يتقاعسون عن تنفيذ مهمة تطهير الأرض من غير اليهود مجرمين يجب التخلص منهم أيضاً.

وإذا كان أكثر من نصف الإسرائيليين وافقوا على الانسحاب من قطاع غزة، فإن كل المسيحانيين الصهاينة فى الولايات المتحدة كانوا ضد هذا الانسحاب. فالإسرائيليون الذين أيدوا شارون فى حينه اعتبروا الانسحاب

روبرتسون ليس مجرد قس أمريكي عادي. إنه من أقطاب الحركة المسيحانية الصهيونية في الولايات المتحدة. وتؤمن هذه الحركة بأن من حقها بل ومن واجبها العمل على تحقيق الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح

خطوة نحو التسوية السلمية. أما المسيحانيون الصهاينة في الولايات المتحدة فقد عارضوا الانسحاب على أساس اعتباره تراجعا عن مهمة إلهية، وبالتالي تعطيلاً لشروط العودة وتأخيراً لها.

من أجل ذلك قال روبرتسون إن ما أصاب الجنرال شارون كان عقابا إلهيا.

والقس روبرتسون نفسه وصف اغتيال رابين الذي وافق على اتفاق أوسلو مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات بأنه -أي الاغتيال - «عمل من أعمال الله، وأنه حكم إلهي نفذ فيه لخيانته شعبه. إن هذه الأرض هي أرض الله، وأن لله كلمات قوية تجاه من يقسم أرضه. لقد استحق رابين غضب الله عندما بدأ يقسم أرض الله».

وفي الأول من كانون الثاني - يناير ٢٠٠٢ حذر روبرتسون في برنامجه التليفزيوني «نادي السبعمائة CLUB ٧٠٠» من تدخل الولايات المتحدة في النبوءات الدينية وانتزاع القدس من اليهود وإعطائها إلى ياسر عرفات.. «فإذا استرجعت الولايات المتحدة القدس الشرقية وجعلتها عاصمة لدولة فلسطينية، فإن معنى ذلك أننا نسعى وراء غضب الله».

طبعاً، ليس بات روبرتسون هو القس الوحيد الذي جاهر بإصدار هذا الحكم. إن جميع قساوسة الحركة المسيحانية الأمريكية يشاركونه هذا الإيمان وهذا الحكم. فالقس جيري فولويل مثلاً، الذي توفي في شهر آيار الماضي ٢٠٠٧، (هو غير اليهودي الوحيد الذي منحه رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق مناحيم بيجن وسام جابوتنسكي تقديراً لخدماته لإسرائيل)، سأل رئيس الحكومة نتنياهو أثناء مفاوضات واي ريفر في واشنطن: «هل صحيح أنكم وافقتم على الانسحاب من أراض فلسطينية مقابل التسوية؟».. فرد نتنياهو: «انسحاب شكلي وتجميلي فقط، وليس انسحاباً أساسيا». فقال له فولويل: «لا يجوز الانسحاب حتى من إنش واحد».

وهذا يعني أن ما قد تراه إسرائيل «ضرورياً» بموجب مقتضيات اللعبة السياسية، تراه الحركة المسيحانية الصهيونية «محرماً» بموجب مقتضيات «الوعد الإلهي».

في ضوء ذلك كان تفسير وتبرير اغتيال رئيس الحكومة إسحق رابين.

كذلك فإن القس كلارنس واغنر Clarence Wagner وهو من أقطاب هذه الحركة يقول: «علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التي هي من صنع الإنسان في الأمم المتحدة أو حتى في الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبي، أو في أوسلو أو في واي ريفر... إلخ.. إن الله بعيد عن أي مخطط يعرض مدينة القدس للصراع بما في ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون وهو أبعد ما يكون عن إعطائها للعالم الإسلامي. إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى «جيروزالم»».

إن هذه المواقف تفسر وتبرر أيضا سلسلة العمليات التي تستهدف المسجد الأقصى في القدس منذ محاولة إحراقه في عام ١٩٦٩ (أتى الحريق على ١٥٠٠ متر مربع من الحرم). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المجرم الذي أقدم على إحراق المسجد في ذلك الوقت لم يكن يهوديا، ولكنه كان واحداً من أعضاء الحركة المسيحانية الصهيونية في أستراليا يدعى ستانلي غولدفوت.

لقد زينت هذه الحركة للرئيس الأمريكي جورج بوش سوء عمله عندما قرر غزو العراق. إذ اعتبرت ضرب العراق كما قال قساوستها أنفسهم «انتقاماً إلهيا لليهود من السبي» الذي تعرضوا له على يد نبوخذ نصر في عام ٥٨٦ قبل الميلاد.

كتب الرئيس السابق للقساوسة التوراتيين في الولايات المتحدة (س.س. كريب) في عام ١٩٧٧ يقول: «في هذه المعركة النهائية فإن المسيح الملك سوف يسحق كلياً ملايين العسكريين المتألقين الذين يقودهم الديكتاتور (المعادي للمسيح)».

والمؤلف التوراتي هال ليندسي يفسر تاريخ الشرق الأوسط والعالم كله في كتابه «The Great Late Planet Earth» (الذي بيعت منه أكثر من ٥٠ مليون نسخة منذ صدوره في منتصف السبعينيات من القرن الماضي): «إن دولة إسرائيل هي الخط التاريخي لمعظم أحداث الحاضر والمستقبل».

ويقول ليندسي أيضاً في كتابه: «قبل أن يصبح اليهود أمة لم يكتشف عن شيء. أما الآن وقد حدث ذلك فقد بدأ العد العكسي لحدوث المؤشرات التي تتعلق بجميع أنواع النبوءات. واستناداً إلى النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز على الشرق الأوسط وخاصة على إسرائيل في الأيام الأخيرة للزمن. إن كل الأمم سوف تضطرب وسوف تصبح متورطة بما يجري هناك. إن باستطاعتنا الآن أن نرى أن ذلك يتطور في هذا الوقت وأنه يأخذ مكانه الصحيح في مجرى النبوءات تماما كما تأخذ الأحداث اليومية مواقعها في الصحف اليومية».

وفي كتاب آخر له عنوانه «العالم الجديد القادم» يقول ليندسي: «فكروا في ما لا يقل عن ٢٠٠ مليون جندي من الشرق مع ملايين أخرى من قوات الغرب يقودها أعداء المسيح من الإمبراطورية الرومانية المستحدثة (أوروبا الغربية)».

«إن عيسى المسيح سوف يضرب أولا أولئك الذين دنسوا مدينته القدس. ثم يضرب الجيوش المحتشدة في سهل مجيدو أو هرمجيدون. فلا غرابة أن يرتفع الدم إلى مستوى الجمة الخيل مسافة ٢٠٠ ميل من القدس.. وهذا الوادي سوف يملأ بالأدوات الحربية والحيوانات وجثث الرجال والدماء».

ويكتب ليندسي كذلك: «إن الأمر يبدو وكأنه لا يصدق! إن العقل البشري لا يستطيع أن يستوعب مثل هذه اللاإنسانية من الإنسان للإنسان، ومع ذلك فإن الله يمكن طبيعة الإنسان من تحقيق ذاتها في ذلك اليوم».

ويضيف ليندسي في كتابه: «عندما تصل الحرب الكبرى إلى هذا المستوى، بحيث يكون كل شخص تقريباً قد قتل، تحين ساعة اللحظة العظيمة، فينقذ المسيح الإنسانية من الاندثار الكامل. وفي هذه الساعة سيتحول اليهود الذين ينجون من الذبح إلى المسيحية..».

ويحسم ليندسي هذا السيناريو لنهاية التاريخ بقوله: «سيبقى فقط ١٤٤ ألف يهودي على قيد الحياة بعد معركة هرمجيدون.. وسينحني كل واحد منهم، الرجل والمرأة والطفل أمام المسيح».

وينقل قس توراتي آخر هو جيري فولويل عن اصحاح زكريا ١١/١٢ و١٦/١٦ وعن إصحاح إسحاق ٣٥/٣٦ و٣٥: «إن ساحة معركة هرمجيدون سوف تمتد من سهل مجيدو في الشمال إلى ايدوم في الجنوب، مسافة حوالي ٢٠٠ ميل. وتصل إلى البحر الأبيض المتوسط في الغرب وإلى تلال موهاب في الشرق، مسافة ١٠٠ ميل تقريبا. إن سهول جزريل والنقطة المركزية للمنطقة كلها ستكون مدينة القدس، استناداً إلى زكريا ١٤ الآية ١ و٢».

«وستتجمع في هذه المنطقة الملايين المتعددة من الرجال بحيث يصل عددهم إلى ٤٠٠ مليون بدون أي شك (؟) من أجل حدوث المأساة النهائية للإنسانية. وجاء في الإصحاح ١٤/٣: «إن الملوك في جيوشهم سيأتون من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب. وبشكل درامي مثير سيكون هذا الوادي وادي القرار حول مصير الإنسانية. لماذا ستدور المعارك هنا؟ ولماذا يقود أعداء المسيح جيوشهم في العالم ضد المسيح الإله؟».

ويجيب على هذه التساؤلات بقوله: «أولاً لأنهم يكرهون سيادة الله. فالمعركة كانت دائما الشيطان ضد المسيح. تلك هي المسألة. ثانياً لأن هذه الأمم سوف تأتي بسبب تضليل الشيطان. ثالثاً بسبب كراهية الأمم «للإله» عيسى المسيح. شيء ما سيحدث خلال هذه المعركة، سيجف نهر الفرات (إصحاح ١٦/١٢ وسيتم تدمير القدس) في هذه الأثناء. يتابع فولويل استناداً إلى إصحاح يوحنا: «إن كل صقور السماء سوف تنهش من لحوم الملوك ومن لحوم كل الرجال الأحرار منهم والعبيد، الكبار والصغار».

ويستنتج فولويل «إن يوحنا رأى وحشا في منامه ورأى ملوك العالم بجيوشهم مجتمعين لتشن حرب ضد الإله المسيح الذي يبدو في رؤيا يوحنا رجلاً يمتطي حصاناً أبيض. وفيما تقترب هرمجيدون من نهايتها، وملايين الأموات على الأرض فإن الإله المسيح سيضرب الوحش والنبي الكذاب (المعادي للمسيح) ويلقي بهما في بحيرة من نار تغلي فيها الحجارة. وسيذبح المسيح كل أعدائه الآخرين الذين ينجون من هرمجيدون».

الإيمان بهذه النظرية الهرمجيدونية ليس وقفا



على حفنة من رجال الدين الإنجيليين الأصوليين الذين يبثون إلى الكنائس الإنجيلية العديدة في العالم العربي وفي العالم ويتمتعون بنفوذ واسع النطاق في الولايات المتحدة خاصة، والذين ينشرون كنائسهم في أنحاء عديدة أخرى في العالم وخاصة في أمريكا اللاتينية وآسيا. إن من معتنقي هذه النظرية شخصيات سياسية وعسكرية ودبلوماسية وأكاديمية كبيرة أيضا، وكان من أبرزها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان. فهو يقول «إن جميع النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل هرمجيدون قد مرت. ففي الفصل ٣٨ من حزقيال أن الله سيأخذ أولاد إسرائيل من بين الوثنيين حيث سيكونون مشتتين ويعودون جميعهم مرة ثانية إلى الأرض الموعودة. لقد تحقق ذلك أخيراً بعد ألفي سنة. ولأول مرة يبدو كل شيء في مكانه بانتظار معركة هرمجيدون والعودة الثانية للمسيح».

ففي عام ١٩٨٥ أجرى المعهد المسيحي في واشنطن (وهو معهد متخصص في الدراسات الدينية عن الإسلام والمسيحية واليهودية) دراسة بقيادة القس أندرو لانغ حول الرئيس ريجان ونظرية هرمجيدون. وقالت الدراسة: «إن إمكانية إيمان رئيس الولايات المتحدة بأن الله قضى بنشوب حرب نووية من شأنه أن يرسم علامات استفهام مثيرة: هل يؤمن بجدوى مباحثات التسلح رئيس يعتنق هذا التعليم الديني؟ وخلال أي أزمة نووية هل سيكون متروياً وعاقلاً؟ أو أنه سيكون متلهفاً للضغط على الزر، وهو يشعر في قرارة نفسه أنه يساعد الله في مخططاته التوراتية المقررة مسبقاً لنهاية الزمن؟».

لقد ساعد لانغ في إعداد هذه الدراسة عن ريجان وهرمجيدون لاري جونز وهو كاتب في صحيفة نيويورك تايمز ومتخرج من جامعة كولومبيا. ويقول لانغ إن المؤمن بنظرية هرمجيدون هو أصولي يقرأ الكتاب المقدس كما يقرأ قاموساً ليتنبأ بالمستقبل.

تولى ريجان قبل أن يصل إلى البيت الأبيض مرتين منصب حاكم ولاية كاليفورنيا، وهي الولاية الأمريكية التي تكثر فيها الحركات الدينية المتطرفة من نوع حركة «بوابة السماء» التي ارتكب أتباعها جريمة الانتحار الجماعي. ومن هذه الحركات أيضاً الكنيسة العلمية Scientology التي أصبحت من أكبر الكنائس في أمريكا. وكنيسة المسيح الدولية التي تأسست في عام ١٩٧٩ في لوس أنجيلوس بقيادة الأسقف كيب ماك كين. وفي إحصاء أمريكي أن ثمة ٢٠٠٠ حركة دينية من هذا النوع في الولايات المتحدة تحتمي بالمادة الأولى من الدستور الذي يضمن الحريات الدينية ويحجب حتى عن العائلة حق التدخل لمنع أبنائها من الانضمام إلى أي حركة دينية يختارونها.

ولقد وصلت هذه الحركات إلى آسيا وخاصة إلى كوريا الجنوبية كما وصلت إلى أوروبا، ويبلغ عددها في بريطانيا وحدها ١٦٠٠ مجموعة. وكان من مظاهرها مأساة معبد الشمس في عام ١٩٩٤ حيث انتحر ٥٤ شخصاً في وقت واحد في كل من سويسرا وكندا، ومأساة غرونوبل في فرنسا حيث انتحر ١٦ فرنسياً من أتباع هذه الحركة. ولذلك وقفت ألمانيا ضد «الكنيسة العلمية» رغم أنها تمكنت من استقطاب أكثر من ٣٠ ألف شخص حتى الآن. ووقفت بريطانيا ضد «الكنيسة الموحدة» التي استقطبت ٢٥٠٠ مؤمن بها وشكلت فرنسا فريقاً من ٦٥٠٠ شخص يعملون في ١٣٠٠ مركز لتوعية الشباب على مخاطر هذه الحركات الدينية. بل إن هذه الحركة وصلت إلى روسيا أخيراً حيث نقلت وكالات الأنباء اعتصام مجموعة في كهف بانتظار نهاية الزمن، مهددة بنسف الكهف إذا ما حاولت قوى الأمن إخراجهم.

إن المسافة بين حرية الاعتقاد وحماية أمن المجتمع بدأت تضيق، والمسافة بين الحرية الدينية والحقوق الإنسانية بدأت تتقلص بعد سنوات من الانفلات والتفلت. وتكشف هذه الحركات الدينية أن الولايات المتحدة في الدرجة الأولى تمثل الينبوع الأساسي للحركات الأصولية الدينية بما تتسم به من تطرف وعنف وإلغاء للآخر.

إن قادة اليمين الديني المتطرف في الولايات المتحدة، أمثال فولويل وهول لندسي وبات روبرتسون وغيرهم، يعتقدون أن الكتاب المقدس يتنبأ بالعودة الحتمية الثانية للمسيح بعد مرحلة من الحرب النووية العالمية أو الكوارث الطبيعية والانهيار الاقتصادي والفوضى الاجتماعية.

«إنهم يعتقدون أن هذه الأحداث يجب أن تقع قبل العودة الثانية، كما يعتقدون أنها مسجلة بوضوح في الكتاب المقدس. وقبل السنوات الأخيرة من عمر الزمن، فإن المسيحيين المخلصين سوف يُرفعون بأجسادهم ويجتمعون بالمسيح في السماء. ومن هناك، من فوق يراقبون بسلام الحرب النووية والمشاكل الاقتصادية. وفي نهاية المحنة سيعود هؤلاء المسيحيون المولودون ثانية مع المسيح المنتصر عسكرياً ليحكم الكرة الأرضية كلها لمدة ألف سنة يسمونها الألفية، وينتهي بذلك الزمن وتبدأ مرحلة ما بعد الزمن، مرحلة يوم الدينونة».

في الأساس كانت الكاثوليكية تتمسك بنظرية القديس أوغسطين بأن ما ورد في الكتاب المقدس بشأن مملكة الله قائم في السماء وليس على الأرض. وبالتالي فإن القدس وصهيون ليسا مكانين محددين على الأرض لسكن اليهود ولكنهما مكانان سماويان مفتوحان أمام كل المؤمنين بالله. بعد حركة الإصلاح الديني وُضعت تفسيرات أخرى تقول بالواقع الأرضي لمملكة الله. وبوعد الله المقدس لليهود وبوكالتهم عن الله في إقامة مملكته، وبالعودة الثانية للمسيح وشروطها وبالألفية وحتميتها.

عام ١٦٠٠ بدأت الحركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى العودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله كما أن اوليفر كرمويل في انطلاقته الأولى دعا إلى تهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح

وهكذا ومنذ منتصف عام ١٦٠٠ بدأت الحركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى مغادرة أوروبا والعودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله كما أن اوليفر كرمويل راعي الكومنولث البريطاني في انطلاقته الأولى دعا إلى تهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

وفي عام ١٦٥٥ نشر كتاب للقس البروتستانتي الألماني بول فليجن هوفر قال فيه إن اليهود سوف يتحولون إلى المسيحية بمجرد الظهور الثاني للمسيح لأنهم سوف يعتبرونه واحداً منهم. وأن من مستلزمات هذا الظهور الثاني عودة اليهود إلى البلد الذي منحهم الله إياه عبر إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وهكذا تكونت الأدبيات الدينية التي تجعل من اليهود مؤتمنين على الخطة الإلهية التي يتحدد بمقتضاها مصير البشر جميعهم، والتي تجعل من إقامة دولتهم صهيون المدخل الوحيد الذي لا بد منه للعودة الثانية للمسيح، وهي العودة التي تحسم مصير صراع الإيمان والكفر، والتي تنتهي بانتصار المسيح عسكرياً ودموياً وسيادته على العالم.

من خلال هذه الأدبيات أصبح الإيمان بمساعدة اليهود في إقامة دولة في فلسطين نوعاً من العبادة التي تعبر عن المشاركة الإنسانية في تحقيق الإرادة الإلهية. حتى إن اللورد انطوني اشلي كوبر الإصلاحي الإنجليزي الشهير قال في عام ١٨٣٩ «إن اليهود رغم أنهم غلاظ القلب وغارقون في المعصية وينكرون اللاهوت فإنهم ضروريون بالنسبة للأمل المسيحي في الخلاص». والرغبة في الخلاص المسيحي كانت الحافز الديني وراء قيام الحركة الصهيونية المسيحية بمعنى مساعدة اليهود على إقامة دولة لهم في فلسطين بالذات. وحتى لا يتعرض الضمير المسيحي البروتستانتي إلى أي عذاب، رفع اللورد كوبر الشعار الذي تبناه من بعده كل الصهاينة

المسيحيين وهو أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

تولى الترجمة العملية الأولى لهذا الشعار اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت (وكان عم اللورد كوبر) وذلك من خلال إنشاء قنصلية بريطانية في القدس في عام ١٨٣٩ وتعيين وليم يونغ أحد المؤمنين بالصهيونية - المسيحية نائبا عاما للقنصل. وقد حددت مهمة يونغ برعاية مصالح اليهود وحمايتهم وتسهيل إقامتهم وتشجيع عودتهم.

في ذلك الوقت كان عدد اليهود في فلسطين كلها والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية يبلغ حسب وثائق القنصلية البريطانية نفسها ٩٦٩٠ شخصا فقط. كان للقنصلية البريطانية حق حماية اليهود الأجانب في فلسطين بموجب اتفاق إذعان فرض على السلطنة العثمانية. إلا أن الحماية البريطانية شملت اليهود العثمانيين أيضا. أدى هذا الأمر لأول مرة في التاريخ الحديث إلى اعتبار كل اليهود أمة واحدة مهما اختلفت انتماءاتهم وجنسياتهم.

وفي عام ١٨٤١ كتب هنري تشرشل (ضابط الأركان البريطانية في الشرق الأوسط) إلى موسى مونتفيور، رئيس مجلس الممثلين اليهود في لندن: «لا أستطيع أن أخفي عليك رغبتي الجامحة في أن أرى شعبك يحقق مرة أخرى وجوده كشعب. إنني أعتقد أنه يمكن تحقيق الهدف بدقة. ولكن لا بد من توافر أمرين لا غنى عنهما: أولا: إن على اليهود أنفسهم أن يتحملوا الأمر على الصعيد العالمي وبالإجماع؛ ثانيا إن على القوى الأوروبية أن تساعدهم». ويعكس هذا الموقف مدى تقدم الفكر الصهيوني للمسيحية الإنجيلية على اليهودية. حتى إن العديد من قادة اليهود في ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى عمليات تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين على أنها مقصودة في حد ذاتها لإخراجهم من أوروبا تحت غطاء ديني.

في عام ١٨٤٥ اقترح ادوارد بتمورد من مكتب المستعمرات في لندن، إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتناء بأنفسهم. وقال: «إن دولة يهودية ستضعنا في مركز القيادة في الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدي لهم عند الحاجة».

وهكذا بدا استخدام مخطط توطين اليهود في فلسطين ينتقل إلى الميدان السياسي من غير أن يخرج من تحت المظلة الدينية. وهذا التلازم لا يزال مستمرا حتى اليوم.

في السادس من فبراير - شباط ١٩٨٥، ألقى بنجامين نتنياهو، وكان وقتها سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، خطابا في الجمعية العامة للمنظمة الدولية قال فيه: «إن كتابات المسيحيين الصهيونيين من الإنجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين مثل لويد جورج وأرثر بلفور وودرو ويلسون، في مطلع هذا القرن. إن حلم اللقاء العظيم أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورا رئيسا في إرساء القواعد السياسية الدولية لإحياء الدولة اليهودية».

إلا أن صناعة النبوءة الدينية، أو صناعة تفسيرها لا تقتصر على إقامة صهيون. فلسيناريو تتمة. فالمسيح لا يعود لمجرد قيام صهيون على جزء من الأرض الموعودة. لا بد من أن تقوم على كل هذه الأرض. من أجل ذلك لا بد من تطهير الأرض من غير اليهود. ومن هنا فإن اللجوء إلى الإرهاب يصبح مشروعا وضروريا لأنه يتعلق بتحقيق إرادة إلهية. أي أن عمليات التهجير والتقتيل، حتى إذا وصلت إلى مستوى المجازر والإبادة الجماعية، فإنها مشروعة. بل وحتمية لأنها تتم تحت المظلة الإلهية وتحقيقا للإرادة الإلهية وتمهيدا للوصول إلى الهدف الإلهي. وهو العودة الثانية للمسيح.

بين المسيح رمز التضحية والفداء والخلاص الذي تؤمن به المسيحية والذي يدعو إلى محبة حتى العدو، والمسيح الهرمجيدوني المقاتل الذي لا يعود إلا فوق أشلاء الملايين المنصهرة في أتون من النار.. مسافة غير قابلة للقياس. ولا حتى للمقارنة. إنها المسافة بين ثقافة الراهب المتبتل الزاهد المعتكف.. وثقافة القاتل الإرهابي المتربص شرا بالبراءة وبالمحبة. وهي مقارنة بين الإيثار والاثرة. ثم إنها تجسيد للقدرة على تشويه صورة الله وإرادته وعلى تدمير إنسانية الإنسان. ■

كتاب الزاوية

أشعار صينية

مختارات من شعر آي تشينغ

بعكس صادراتها من السلع بمختلف أنواعها وباستثناء أمور السياسة، تبدو الصين مجتمعا مجهولاً بالنسبة للعالم العربي رغم أن الحديث النبوي الشريف يدعو إلى طلب العلم ولو في الصين.. وتنطبق مقولة الجهل بالعالم الصيني أول ما تنطبق على الأدب والفن والحياة الاجتماعية في هذه الدولة التي تخطو بثبات نحو التقدم والازدهار.

ولذلك يبدو نشر المجلس الأعلى للثقافة في مصر مختارات من شعر الشاعر الصيني الراحل آي تشينغ خطوة صائبة تجاه التعرف على الفضاء الشعري والأدبي في الصين. وقد صدر ديوان مختارات من شعر آي تشينغ عام ١٩٧٩ وقد بيعت منه عشرات الآلاف من النسخ.

ولد آي تشينغ عام ١٩١٠ لأسرة إقطاعية. والتحق عام ١٩٢٨ بأكاديمية الفنون الجميلة، ثم سافر في العام التالي إلى باريس لمواصلة دراسة الرسم والفن ونشر باكورة أعماله في العاصمة الفرنسية. وعاد إلى بلاده لينضم إلى اتحاد الكتاب اليساريين عام ١٩٣٢. وتعد قصائده مرآة صادقة لشاعر ارتبط به الحزن والألم، نظراً للمرارات التي تعرضت لها الصين سواء بسبب غزو اليابان لها أو للمشاكل الهائلة التي مرت بها. وظل تشينغ شاعراً ملتزماً يصدر الديوان تلو الآخر معبراً عن مسيرة الصين في القرن العشرين. إلى أن وافته المنية عام ١٩٩٦. وقد جرت ترجمة المختارات من اللغة الإنجليزية ومراجعتها على الأصل في اللغة الصينية. وشارك في ذلك أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي وعبدالعزيز أحمد. وصدرت الترجمة عام ٢٠٠٣..

لم تعد المسادة هي الجبل
التاريخي قرب البحر الميت فقط،
بل هو جبل متنقل نحمله فوق ظهورنا
أينما ذهبنا

الكاتب الإسرائيلي أ. ب. يهوشوع

إسرائيل
أكاديميا الإحياء التوراتي!

مازن النجار



* قبل عشر سنوات، أصدرت دار روتليدج دراسة للبروفسور كيث وايتلام، أستاذ ورئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة سترلينغ البريطانية، بعنوان «اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني»(*). قدم وايتلام مسحاً شاملاً ونقداً غير مسبوق لمدارس البحث العلمي الغربية في دراسات العهد القديم، خاصة الألمانية والأمريكية. أتاح هذا السفر القيم للباحثين تتبع مختلف الاتجاهات والفرضيات السائدة في ذلك الحقل، ودورها في المشروع الإمبريالي، وتحيزاتها الكامنة والصريحة ورؤيتها المتمحورة حول الذات لتاريخ وثقافة واجتماع الآخر.

كانت قضية تفسير نشوء شعب ومملكة بني إسرائيل، والتطورات التاريخية المرتبطة بها، قد شغلت اهتمام العلماء الغربيين في مجال دراسات العهد القديم، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ابتداء من يوليوس فلهاوزن، رائد مدرسة نقد نصوص العهد القديم، وحتى فون راد. استخدم هؤلاء العلماء نماذج حديثة أو معاصرة لهم في تفسير ظواهر العهد القديم وتاريخ إسرائيل التوراتية.

اهتمت اتجاهات البحث العلمي عند الأوروبيين، قبل قيام الدولة العبرية (١٩٤٨) وبعده، بالبحث عن جذور الدولة القومية في تاريخ العهد القديم، وسيطر السعي وراء تلك الجذور القديمة على البحث التاريخي والأثري في فلسطين والشرق الأدنى. يلفت كيث وايتلام إلى الجهود الكبيرة التي بذلتها الدول القومية الحديثة في سعيها لفهم (أو تكوين) ماضيها. فالروايات الرسمية لأمة من الأمم تؤكد مظاهر معينة في الهوية القومية، كما تنكر أصوات روايات بديلة.

لكن ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت في ذات سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية، وانتقل ذلك إلى الشرق الأدنى. وبعد انطلاق حركة القوميات (الأوروبية) في القرن الثامن عشر وانتصارها على غيرها من الحركات، أصبحت هي القوة السياسية المهيمنة على القرنين التاليين. فالدولة القومية بأنظمتها ومؤسساتها وشخصياتها قد ألقت بظلالها على دراسات العهد القديم (الحديثة) منذ بدايتها.

دراسات العهد القديم
في السياق القومي الأوروبي

ترجع جذور فكرة التأريخ ذاتها، التي دعمت حركة التأريخ التوراتي، إلى الزعيم الألماني فون بسمارك في كفاحه لتوحيد ألمانيا. وكان للبحث عن جذور الدولة القومية وتعزيز قوتها، بما في ذلك أعمال رجالها العظماء، أهمية مركزية في القرن التاسع عشر وحتى الوقت الراهن من خلال أعمال علماء العهد القديم الكلاسيكية، مثل آلت وأولبرايت ونوت وبرايت.

ويرى أحدهم، م. نوت، تواصلا بين الماضي والحاضر يربط إسرائيل المعاصرة ببحثه عن التاريخ القديم لإسرائيل التوراتية. ورغم ادعائه أن من غير المناسب توسيع دائرة البحث بشكل يصل الماضي بالراهن، لكنه لا يقر بأن قيام الدولة القومية الحديثة هو ما شكل كثيرا من فرضيات البحث التاريخي في هذا المجال. بيد أن الافتراض السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة ودولة إسرائيل الراهنة، كما يتمثل بتصوراته حول عودة هذا الشعب إلى «وطنه» في «أرض إسرائيل القديمة».. هو ما يحدد سلفا نتيجة البحث. بل إن الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور «إسرائيل القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، يسيطر على الخطاب التاريخي لدراسات العهد القديم، ويحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

وربما ليس من الصدفة أن ينصب اهتمام دراسات العهد القديم في مرحلة صعود القوميات والدولة القوميه في أوروبا على الأحداث التوراتية في الفترة الانتقالية بين أواخر العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي المبكر، والتي يغلب على الظن أنها فترة ظهور مملكة داود وسليمان، بدون إيلاء اهتمام مماثل لتاريخ الآباء (البطاركة) إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ لأن هذه المرحلة القبلية البسيطة أو البدائية لا تصلح لإعادة نسجها أو بنائها في سياق نموذج الدولة القومية الذي هو المثال المهيمن على تصورات وخطاب دراسات العهد القديم الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

من ناحية أخرى، توضح أبحاث أخرى أن دراسات العهد القديم الأميركية والألمانية قد تأثرت بالسياق السياسي الذي نشأت فيه، ففرضت نماذجها الخاصة بقوة على فهمها للماضي. وقد ارتكز المنظور القومي في كتابة تاريخ إسرائيل القديمة على محاولة مماثلة سابقة في كتابة التاريخ القديم لليونان وروما، واتخذها نموذجا. وقد ولدت دراسة تلك العصور القديمة زخما ذاتي المصداقية. وعلى مدى القرن الذي تأسست فيه دراسات العهد القديم (١٨٧٠-١٩٧١)، اتخذت دراسات العهد القديم مسارا معينا. كان فلهاوزن أبرز

مثال عليه. فالسياق التاريخي لأعمال فلهاوزن له دلالات هامة وليست رمزية. فسيرته ونشاطه العلمي ابتداء بحصوله على الدكتوراة سنة ١٨٧٠، وتزامنت مع فترة تأسيس بسمارك الدولة الألمانية، وتوفى فى ١٩١٨، السنة التى تأسست فيها الجمهورية الألمانية. وسياق حركة التأريخ، فيما يتعلق بمفهوم الدولة فى القرن التاسع عشر، قد حدد مسار الأبحاث الخاصة بتاريخ إسرائيل القديمة منذ بداية نشوء هذه الدراسات. وقد قوى الاعتقاد بأن الدولة القومية هى تعبير عن أسمى درجات الثقافة المتقدمة من الإحساس بضرورة تطوير فكرة الدولة الإسرائيلية الحديثة. تضافرت هذه العوامل مجتمعة بشكل مركب لتشكيل خطاب دراسات إسرائيل القديمة والسيطرة عليه.

يهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي نموذج الكيان القومي الموحد الذى يبحث عن مساحة قومية من الأرض، ويكافح لأجل الإبقاء على هويته القومية وعلى الأرض، من خلال الأزمات التاريخية. فمفهوم الماضى يعكس تماما فهم الحاضر. والحركة الصهيونية، التى نشأت فى القرن التاسع عشر بعد صعود حركة القوميات الأوروبية، قد ادعت باستمرار أن «رسالتها التاريخية» هى العودة إلى أرض خالية وصحار قاحلة، تنتظر وصول التكنولوجيا الأوروبيه لتصبح صالحة للسكن والازدهار. يتجلى هذا النموذج التاريخى لدى تأويل معطيات الدراسات الأركيولوجية التى تناولت «الاستيطان الإسرائيلى» بين العصر البرونزى المتأخر والعصر الحديدى، وهو تأويل يفترض (مسبقا) وحدة إسرائيل وهوية خاصة بها فى تلك الفترة، مما يعنى فى المحصلة وجود دولة قومية ناشئة بالمرتفعات الفلسطينية. وهكذا، سيطر مفهوما القومية والإثنية بقوة على دراسات العهد القديم، كما حددا مسار العديد من الكتب الجامعية حول تاريخ إسرائيل القديم. لذلك، ينبغى أن تفهم اهتمامات دراسات العهد القديم -من حيث طبيعة أبحاثها التاريخية- ضمن السياق السياسى والثقافى الأوسع. كما يجب وضع خطاب دراسات العهد القديم ضمن الخطاب الاستشراقى الأشمل.

فى ضوء تراكم الدراسات والمناهج النقدية والتحليلية لنصوص ومصادر العهد القديم، يخلص وايتلام إلى أن إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخى هى إيذانه بموت «التاريخ التوراتى»، الذى يستبدل به تدريجيا الاعتراف بالتاريخ الفلسطينى كموضوع قائم بذاته. وذلك فهم جديد لتاريخ المنطقة يزداد ابتعادا وانفصالا عن الدراسات التوراتية، كما أنه مفهوم موضوعى لتاريخ ذى قاعدة عريضة، يهتم بالاقتصاد والديمغرافية والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين عموما.

إسرائيل القديمة وفلسطين المعاصرة

يوضح تاريخ الجدل، فى دراسات العهد القديم، حول نشوء إسرائيل القديمة فى فلسطين بشكل جلى أن خطاب الدراسات التوراتية قد شكلته الصراعات السياسية المعاصرة المتعلقة بقضية فلسطين ومستقبلها. فالجدل حول جذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموما كنقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات أساسية؛ وهو نقاش يرفض الاعتراف بتورطه فى السياسة المعاصرة. تتيح بعض المراجعات المسحية المعاصرة مسحا عاما وتحليلا نقديا للنماذج الرئيسة، فيما يتعلق بفرضياتها المنهجية، وطريقة توظيفها للمعلومات واستنتاجاتها العامة. لكنها أخفقت فى إدراك أن عمليات «بناء» إسرائيل القديمة، التى تبدو مختلفة ظاهريا، قد عكست الأحداث الجارية فى فلسطين وقت صياغة تلك الأبحاث. ورغم تظاهر خطاب الدراسات التوراتية بالاختلاف حول جذور أو نشوء إسرائيل القديمة، فإنه فى الواقع استخدم اللغة المعاصرة فى الصراع حول فلسطين، بل كثيرا ما تبناها.

وقد أدى النقد المتواصل لتلك النظريات والنماذج على مدى العقدين الأخيرين إلى تصدع المظهر الأكاديمى للنقاش، وأظهر المعتقدات الدينية والآراء السياسية التى شكلت مختلف نظريات إعادة بناء الماضى. والحقيقة أن الصراع حول الماضى يستبطن صراعا آخر حول الهيمنة على الحاضر. بيد أن الخطابات ما بعد الحداثية قد كشفت عن الطبيعة الذاتية للمشروع الأكاديمى، وعرت دور مختلف مناهج البحث الأكاديمى فى المشروع الاستعمارى. وادى ذلك الى وعى بأن البحث عن إسرائيل القديمة ليس مجرد إعادة بناء موضوعية للماضى، لكنه متعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية وميزان القوى المعاصرة.

وإذ تبدو فرضيات الدراسات التوراتية الألمانية والأمريكية، فى ظاهرها، مناقشات حول طبيعة نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية؛ لكنها ليست نقاشا بين ادعاءات متنافسة حول فهم التاريخ الماضى، بل هو نقاش حول الهوية التى تمكن إسرائيل من المطالبة بهذا الماضى. فمختلف طرق اختلاق إسرائيل التى تعرضها النماذج التفسيرية الثلاثة تطالب جميعها بالزمان والمكان الفلسطينيين، إذ دائما تاريخ إسرائيل. ليس هناك إذن صراع حقيقى داخل خطاب الدراسات التوراتية لأنه لا يعترف لفلسطين والفلسطينيين بأى حق فى ذلك الماضى.



يهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلى نموذج الكيان القومى الموحد الذى يبحث عن مساحة قـومـيـة مـن الأرض، ويكافح لأجل الإبقاء على هويته القومية

النقد الذى صدر منذ عقدين، وقوض النماذج الرئيسة لتاريخ إسرائيل القديم بين عصر البرونز المتأخر وعصر الحديد المبكر، ركز على أمور منها: أن تلك النماذج لم تستوعب المعلومات الأثرية المتراكمة حول المنطقة؛ وأنها اعتمدت بالأساس على الروايات التوراتية فى فهم وتفسير المكتشفات الأثرية والمعطيات الأخرى لدى بناء تصوراتها حول نشوء إسرائيل؛ وأنها تجاهلت إعادة بناء الماضى الفلسطينى. وتبين هذه الأمور مدى تورط هذه النماذج التفسيرية السابقة فى الصراع المعاصر حول فلسطين.

وبعرض النماذج التفسيرية الثلاثة لنشوء إسرائيل القديمة، سيتبين تأثير الصراع المعاصر على فلسطين وتورطها فيه، وتأثير مسار المشروع الصهيونى الاستيطانى الإحلالى فى فلسطين، منذ بدايات القرن الماضى، على صياغة ورؤية هذه النماذج.

النموذج الأول: التسلل أو الهجرة «السلمية»

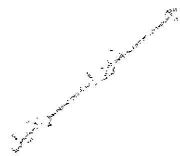
أبرز منظرى هذا النموذج هو الألمانى ألبريخت ألت. وقد صاغه بداية فى دراسة نشرت عام ١٩٢٥ بعنوان «حيازة الإسرائيلى للأرض فى فلسطين». بلورت هذه الدراسة ما أصبح يعرف بنموذج التسلل أو الاختراق أو الهجرة لفهم جذور إسرائيل، وهو ما تم وصفه عموما بأنه تسلل «سلمى»، أو هجرة الإسرائيليين «السلمية» إلى فلسطين. غلبت هذه الفرضية على مناهج وأعمال الباحثين الألمان، مثل نوت وويبرت إضافة إلى ألت. وكانت بالغة التأثير فى خطاب الدراسات التوراتية لأكثر من سبعة عقود بعد صياغتها الكلاسيكية على يد ألت. حاولت هذه الفرضية إعادة بناء الماضى، واختلاق إسرائيل، بعكس تصورات متعلقة بتاريخ فلسطين الحديث منذ عشرينيات القرن الماضى، وهى بالتحديد فترة انطلاق الهجرة الصهيونية إليها.

ينطلق ألت فى تفسيره لطبيعة استيطان

الإسرائيليين في فلسطين أواخر العصر البرونزي من أن التغيير الاجتماعي في الماضي كان بالضرورة نتيجة قيام جماعات عرقية مختلفة، حلت محل الثقافة المحلية، بغزو المنطقة أو الهجرة إليها. أي أن فلسطين لم تكن لتشهد أي تغيير إلا بتأثير خارجي، مما يعني إنكار المؤثرات الداخلية في تاريخ المنطقة. فالمجتمعات الفلسطينية المحلية - بنظر آلت - كانت عاجزة عن إقامة تنظيم سياسي أكثر تطورا وكفاءة من المنظومات البدائية المحلية، وأن العامل الخارجي كان ضرورة. ورغم أنه لا مبرر علميا واضحا لافتراض آلت أن نمو الوعي القومي لا يمكن أن ينشأ محليا، وإنما ينبغي تفسيره بأنه أمر مستورد، فقد شاع هذا الافتراض في خطاب الدراسات التوراتية، وتوافق أيضا مع الفرضيات المترافقة مع الأحداث التي وقعت في فلسطين في زمن تأليف آلت لدراسته، وهي سنوات الانتداب البريطاني المبكرة في فلسطين. فبالنسبة لآلت ومعاصريه من الغربيين، خاصة السياسيين الانكليز، لم يكن بمقدور فلسطين تطوير أشكال سياسية جديدة. وبالنسبة لهؤلاء السياسيين، يجسد هذا الزعم دوافعهم وممارساتهم الاستعمارية، فقد كانوا يسيطرون على فلسطين وغيرها بصك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، والذي أقام من دول الاستعمار أوصياء لتأهيل الشعوب غير المؤهلة لبناء نظامها السياسي، ومساعدتها على الارتقاء بمؤسساتها إلى مستوى الدولة.

بيد أن آلت يقول صراحة أنه لا يمكن أن يكون الدافع وراء إعادة التنظيم السياسي لفلسطين قد جاء من الداخل. وهو توجه ملحوظ لدى آلت في إصدار أحكام محللة في تفسير اخفاق وعجز سكان فلسطين المحليين على ابتكار نظم سياسية جديدة، وأنه كان ينبغي على تلك النظم المستجدة أن تأتي من الخارج. وقد ردد صدى هذه المقولات حول سكان فلسطين القديمة المؤرخون والأنثروبولوجيون الإسرائيليون المعاصرون الذين كثيرا ما ينظرون إلى المجتمع الفلسطيني في الثلاثينيات الماضية كمجتمع قبلي مفكك داخليا وعاجز عن تنظيم نفسه، وبالتالي فهو مجتمع لم يبلور شخصية قومية أو وعيا قوميا أو انتماء وطنيا يعلو فوق الخصوصيات والانتماءات الضيقة. وهذا يأتي في سياق تبرير إنكار حقوق الفلسطينيين في تقرير المصير والاستقلال الوطني والدولة القومية.

كذلك ينبغي الانتباه إلى أن أعمال آلبريخت آلت قد أنجزت خلال إحدى





ألا يذكر هذا النموذج التفسيري لجذور إسرائيل القديمة بكثير من الاعتذاريات أو الديباجات أو الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل المعاصرة أو المستمرة معها؟

أهم الفترات الحاسمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر: وهي فترة تصاعد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في العقود المبكرة من القرن الماضي، وما ترافق معها من تطلعات ومشروعات صهيونية «استيطانية» لإقامة وطن قومي لها هناك، مما بدل جذريا من التكوين الاجتماعي والسياسي والديمغرافي للبلاد. لقد كان الخط العام لنظرية آلت في تفسير نشوء وجذور إسرائيل القديمة، هي دراسة حركة جماعات بشرية ذات شأن وتفوق على السكان المحليين (الأصليين)، تبحث عن وطن قومي لها. وينبغي أن تفهم في سياق تلك التطورات غير العادية في فلسطين في وقت قيام آلت بأبحاثه، وهي تطورات من المستبعد جدا أن لا يكون على وعي بها.

وعلى خطى آلت، أعاد نوت وويبرت إنتاج وتوكيد نموذج التسلل أو الهجرة، وتبنيا ذات الافتراضات. يفترض نوت أن من الطبيعي أن تكون روايات العهد القديم صائبة بدون أدنى شك في اعتبار أن القبائل لم تكن أصيلة في فلسطين، بل دخلتها واتخذت لها موطن قدم في تلك «البراري والسهول المقفرة» في وقت محدد من الزمان، وأصبحت إسرائيل حقيقة نهائية ودائمة في فلسطين. كما يعتقد نوت أن هذه القبائل قد جلبت معها تراثا هاما من خارج فلسطين، مما أسهم في تشكيل عقيدة ووعي إسرائيل الذاتي أثناء تطورها في فلسطين. وكرر نوت استنتاجات آلت بأن هذه القبائل كانت شبه بدوية وتمر بعملية تحضر طويلة، وأن العملية كلها تحدث في البداية بطرق «سلمية» دون لجوء إلى القوة، وسيتكرر التركيز على «سلمية» طرق مصادرة الأرض. يستبطن هذا النموذج الزعم بأن تسلل إسرائيل إلى فلسطين لم يكن عملا من أعمال السلب، بل كان استيلاء على أرض خالية من السكان أو مناطق في فلسطين «غير مأهولة». ويستدرك ويبرت أن حالة الصراع بين دول المدينة الكنعانية وإسرائيل لم تحدث إلا لدى بدء المرحلة الثانية من «التوسع» الإقليمي الإسرائيلي.

ألا يذكر هذا النموذج التفسيري لجذور تاريخ إسرائيل القديمة بكثير من الاعتذاريات أو الديباجات أو الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل المعاصرة أو المستمرة معها، ابتداء من أسطورة وحدة الشعب اليهودي أو الجماعات اليهودية في العالم واشتراكها معا في قومية يهودية واحدة؛ وأسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض؛ وأسطورة رسالة الحضارة الأوروبية الراقية التي أحضرها المهاجرون الصهاينة إلى الشرق المتخلف حضاريا؛ وأسطورة تفوق المهاجرين الصهاينة والكيان الاستيطاني على المجتمعات والكيانات المحلية والإقليمية؛ وأسطورة الاستيلاء «السلمي» على الأرض الفلسطينية بدون عنف أو عدوان؛ وأخيرا أسطورة ضرورة «التوسع» الإقليمي للوصول إلى حدود آمنة - غير محددة - لأجل استدامة عملية التوسع.

النموذج الثاني: غزو فلسطين

هذا النموذج من إنتاج المدرسة الأمريكية لدراسات العهد القديم في جامعة جونز هوبكنز ببلتيمور بقيادة وليم فوكسويل أولبرايت. وقد قدمت رواية بديلة لقيام إسرائيل القديمة في فلسطين: اعتبرها خطاب الدراسات التوراتية نقيضا لنموذج آلت ونوت التي افترضت التسلل أو الهجرة «السلمية». وبينما استعانت رواية آلت ونوت بسفر «القضاة» وأجزاء من سفر «يشوع» ركز أولبرايت اهتمامه بشكل أوسع على المكتشفات الأثرية المتاحة آنذاك لإثبات قيام حملة عسكرية، قضت افتراضا على المجتمعات السكانية والتجمعات المدنية الفلسطينية. لعب «اختلاق» أولبرايت لإسرائيل القديمة دورا بالغا في دراسات العهد القديم بالقرن الماضي. وروج لهذه الأفكار عدد من خريجي مدرسة أولبرايت الذين تقلدوا مواقع أكاديمية هامة بالولايات المتحدة. اللافت في رواية أولبرايت حول إسرائيل القديمة أنها تعكس مفاهيم عصرية لتطورات حدثت في فلسطين متزامنة مع إنجاز أولبرايت لأبحاثه. وتكونت كثير من آرائه خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات اللذين شهدا تطور مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبلغ ذروته بقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد أول وأطول حرب عربية صهيونية.

يعتبر أولبرايت أن «تاريخ الديانة الإسرائيلية واليهودية من النبي موسى حتى يسوع، تبدو وكأنها تقف على ذروة «التطور» البيولوجي، تماما مثل تطور الجنس البشري العاقل، وتعكس التطورات الأخيرة تلكؤا ثقافيا لألفي عام، ومن المؤكد أنه تلكؤ صغير بالنسبة لمئات آلاف السنين واجه فيها الإنسان صعوبات كبرى في ارتقاء مرتفعات وعرة من «التطور» الإنساني الشاق والطويل». يرى أولبرايت أن العقيدة اليهودية والإسرائيلية ذاتها كانت ذروة «التطور» الإنساني ومنجزات «الأمم المتحضرة»، وأن المجتمع الغربي كان يعود إلى جذوره

أثناء إجراء أولبرايت لأبحاثه. وكان يقول «إن الدارس المتعاطف» مع التاريخ الشامل للإنسان لا يمكن إلا أن تكون له إجابة واحدة: هناك بالفعل ذكاء وإرادة عبر عنهما التاريخ والطبيعة، لأن التاريخ والطبيعة هما شيء واحد». وبالنسبة له، تاريخ إسرائيل ليس فقط ملكا لعلم اللاهوت، بل إن التاريخ بكليته هو لاهوت.

اعتمد أولبرايت في روايته لتاريخ إسرائيل على إحاطته بمكتشفات زمانه الأثرية في فلسطين، وقراءته لتراث وتقاليد العهد القديم. فاعتبر أن هناك ارتباطاً مباشراً بين تدمير التجمعات المدنية الفلسطينية بنهاية العصر البرونزي المتأخر (١٢٥٠ - ١٠٥٠ ق.م) وقيام مستوطنات أكثر فقرا، (تميزت بتغير ثقافتها المادية، من أعمال فخارية أو عمرانية مختلفة مثلا)، وبين أحداث سفر يشوع حول الغزو الإسرائيلي لفلسطين واحتلالها. وحدد قيام قرى إسرائيل في مرتفعات فلسطين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي. ورفض أن يكون ذلك هجرة سلمية، بل تغييراً مفاجئاً وعنيفاً للأوضاع نتيجة عوامل خارجية، ما أدى إلى تدمير التجمعات المدنية الحضرية في فلسطين. واستنتج أن العبريين اندمجوا بسرعة هائلة مع أشقائهم الإسرائيليين، حتى أن الكتابات التوراتية تشير بالكاد إلى أي اختلاف بينهم.. لقد تمت السيطرة الإسرائيلية على الكنعانيين: إما عن طريق المعاهدات أو الغزو أو الاندماج التدريجي.

ألا ينطبق وصف أولبرايت أيضا على تجربة المستوطنين البيض (الأوروبيين) في أمريكا الشمالية، حيث اندمجوا في كيان أو مشروع بشري استيطاني موحد، وتمكنوا بالغزو والمعاهدات والصهر القسري من تدمير مجتمعات الهنود الحمر والاستيلاء على بلادهم والسيطرة عليهم؟ بل ألا يستدعي ذلك أيضا التفوق الديمغرافي الذي رافق تدفق المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين، واندماج اليهود المحليين: بينما تمت السيطرة على السكان المحليين (عرب فلسطين) بواسطة «الغزو أو الاندماج التدريجي أو المعاهدات»: وآخرها اتفاقية معابر قطاع غزة إلى مصر، بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، التي جعلت غزة سجنا كبيرا، والسفر منها وإليها جحيما حقيقيا؟

وفي تبريره لسلب الأرض من سكان فلسطين والإبادة التي تعرضوا لها، يقول: «... هذا التقليد السامي (صفة استخدمت لصرف النظر عن الإسرائيليين أو اليهود) لم يكن أسوأ، من وجهة نظر إنسانية، من المذابح المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك في القرن السابع عشر... أو إبادة الأتراك للأرمن وإبادة الروس للقرغيز في الحرب العالمية الأولى.... ونحن الأمريكيين.. قمنا، بقصد أو بدون قصد، بإبادة آلاف السكان الأصليين في كل بقعة من أمتنا العظيمة، ووضعنا البقية في معسكرات اعتقال.. يبدو أن من الضروري في أحيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدن لحد بعيد، ليحل محله شعب ذو صفات متفوقة. حيث يتحتم الوصول إلى مرحلة لا يمكن فيها للاندماج العرقي أن يستمر دون كارثة. وعندما تحدث هذه العملية، كما يجري الآن بأستراليا، لا يمكن للدوافع الإنسانية فعل الكثير، علما بأن كل عمل همجي وكل ظلم سوف ينعكس بالتأكيد على المعتدي. من حسن حظ ديانة التوحيد ومستقبل بقائها أن الإسرائيليين الذين غزوا فلسطين كانوا أقواما همجية اتسمت بطاقة بدائية وإرادة بقاء لا تلين، حيث إن الهلاك الناجم عن هذا الغزو للكنعانيين منع الاندماج الكامل لشعبين شقيقين. كان سينتج عنه حتما انحطاط القيم اليهودية إلى درجة يستحيل إصلاحها».

يعبر هذا التبرير بشكل مذهل عن عنصرية سافرة وداروينية صراعية صريحة، لكن الأهم أن هذه الآراء لم تلق أي نقد من الباحثين لدى تقييمهم لأعمال أولبرايت. يلاحظ أيضا أن وصف أولبرايت للكنعانيين بأنهم حسيون لاأخلاقيون يتطابق مع وصف المستشرقين للآخر، باعتباره نقيضا للإنسان الغربي العقلاني المثقف: مما يؤدي إلى الحط من إنسانية الشعوب المحلية وقبول مبدأ إبادتها، كما حدث لسكان أمريكا الأصليين. يستبطن هذا الادعاء مقولة عنصرية أخرى حول «عبء الرجل الأبيض»، وتفترض أن الاستعمار يساهم في تطوير الشعوب البدائية. ومن هنا خطورة أفكار أولبرايت اللاهوتية ونظرية أن الديانة اليهودية أنقذت «أخلاقها التوحيدية الراقية» بإبادة السكان المحليين.

يعتقد أولبرايت أن الصراع المتواصل بين الإسرائيليين والشعوب المحيطة أدى حتما -ولو ببطء- إلى وحدة الإسرائيليين القومية. لكنه لا يرى أن شعوبا أخرى قد تأثرت بنفس العوامل وعلى نحو مماثل، لتصل إلى مرحلة الوحدة القومية: بل ينفي ضمنا قدرتهم على ذلك، في انتقائية لا مبرر لها. لكن ذلك ضروري لسبب آخر، فإسرائيل -كمنبع الحضارة الغربية- تمثل كل ما هو عقلاني، بينما تمثل كنعان سكان فلسطين الأصليين، أي «الآخر اللاعقلاني» الذي يجب استبداله في عملية التطور التي لا ترحم، والمقدرة إلهيا. وأضفت الافتراضات التطورية اللاهوتية المهيمنة على أعمال أولبرايت تأثيرا بالغا في خطاب دراسات العهد القديم. وتتجلى في قوله «تجري معالجتنا لهذا الموضوع في خطين متوازيين: الأول، هو المنحنى التصاعدي للتطور الإنساني، وهو منحنى يصعد تارة ويهبط أخرى، ويجري أحيانا في دورات ويتأرجح أحيانا أخرى. لكنه يتعافى ويستمر في الصعود: والخط الثاني، هو تطور نماذج أو أشكال تاريخية فردية لكل منها حياته العضوية الخاصة، التي تصعد لتصل إلى القمة ثم تنحدر. وهذه الصورة تبرز بشكل عام وجود أكثر العقائد الدينية إيمانا بإله واحد يوجه حياة الإنسان».



يعتبر أولبرايت أن «تاريخ اليهودية» من النبي موسى حتى يسوع، تبدو وكأنها تقف على ذروة «التطور» البيولوجي، مثل تطور الجنس البشري العاقل

في ضوء فلسفة أولبرايت للتاريخ المبنية على فكرة التقدم التطوري للكائنات، والمتماهية مع الداروينية الاجتماعية، يصبح طبيعيا أن «تحل إسرائيل محل شعوب فلسطين البدائية». وتقدم فلسفته نموذجا صراعيا، وتبريرا لاهوتيا مدخلا لنفي الآخر وإبادة شعب كامل. فيرى أنه «لا يمكننا الارتقاء روحيا إلا من خلال الكوارث والمعاناة، بعد التخلص من العقد النفسية، وذلك عن طريق «التطهر»: هذا التنفيس والتطهر العميق يرافق التحولات الرئيسة، وكل فترات المعاناة الذهنية والمادية التي يتم فيها القضاء على القديم قبل ولادة الجديد، تثمر نتائج اجتماعية مختلفة وبصيرة روحانية أعمق».

النموذج الثالث:

الصراع داخل فلسطين

صاغ هذا النموذج جورج مندنهول، أحد طلاب أولبرايت بجامعة جونزهوبكنز، في محاولة لتقديم تفسير بديل لجذور إسرائيل. وقد تحدى كثيرا من مسلمات نظرية آلت ونوت، ونظرية أولبرايت. وهم الذين اختلقوا إسرائيل القديمة على صورة إسرائيل المعاصرة، وهدم هذه المسلمات النظرية من أساسها. وقد نشر مندنهول نظريته في دراسة بعنوان «الغزو العبري لفلسطين» عام ١٩٦٢، واعتبرت في السبعينيات والثمانينيات أنها الدراسة التي هزت خطاب دراسات العهد القديم فيما يخص جذور إسرائيل التاريخية.

لأنها دحضت نظريتي الهجرة والغزو.

لكن نظريات مندنهول ذاتها كانت مرتبطة بأفكار أولبرايت الأساسية؛ وبالتالي لم تغادر خطاب دراسات العهد القديم، من حيث هدفه باتجاه البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية، مما يساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني، رغم أن جانبا مهما من أعماله يضفي شرعية على التاريخ الفلسطيني ويمنحه صوتا. كما يدرك مندنهول أن النظريات السابقة حول إسرائيل قد اختلقتها على صورة الدولة القومية في أوروبا، وأسقطت أفكارا حديثة على العالم القديم، فمفهوم القومية، كمفهوم العنصرية، لم يكن له وجود عمليا في التاريخ القديم.

يلفت مندنهول إلى أنه لم يكن هناك إدراك كاف للتعصب الاجتماعي والسياسي الذي اتسم به الباحثون المشتغلون بإعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم، واهتم بالكشف عن الفرضيات الصريحة والكامنة لنموذجي الهجرة والغزو، ورأى أنه لم يكن هناك غزو لفلسطين بأعداد هامة في بداية نظام قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، ولا ترحيلا جذريا للسكان، بل كان الأمر استبدالا ضروريا للحكام المحليين التابعين للملوك باسم الملوك، وإجمالا، لم يكن هناك أي غزو حقيقي لفلسطين، بل يمكن تسمية ما حدث، من وجهة نظر المؤرخ العلماني، ثورة فلاحين ضد شبكة مترابطة من دول المدينة الكنعانية.

وقد افترض مندنهول العامل الخارجي كمجموعة صغيرة دورها تحفيز جمهور الفلاحين الفلسطينيين المقهورين والمحتكرين. وبرأيه، كانت السمة الأساسية لهذه «الثورة التوراتية» كما دعاها، هي الثورة الدينية وليست الثورة الفلاحية المحلية. ثم بدا له أن تحديد فرضية نشوء إسرائيل بثورة فلاحية، لم يحالفه التوفيق، بل كان تحديدا مضللا؛ لأن «الثورة الفلاحية» لم تكن إلا وجها ثانويا أو عرضيا من «الثورة التوراتية». ورغم تشكيكه بفكرة أن جذور إسرائيل بفلسطين كانت هجرة خارجية لشعب وافد، مما يعطي الثقافة المحلية وتاريخها مساحة غير مسبوقة؛ إلا أن توكيده على مركزية الدين الجديد



ليس غريبا أن يلفت بعض الباحثين اليهود اليساريين إلى أن الفرضيات حول نظرية الثورة الفلاحية لبدايات إسرائيل كان لها قوة بلاغية واضحة

الوافد من الخارج قد أحبط فرصة الخروج على النظريات السائدة لتاريخ المنطقة، إضافة إلى تركيزه على فساد الثقافة المحلية بأكثر مما فعل أستاذه أولبرايت.

تأكيد مندنهول على خصوصية إسرائيل القائمة على عقيدة كانت هي أساس الحضارة الغربية، يتيح له تبني ودعم الافتراض الشائع بوجود انفصال بين إسرائيل وثقافة فلسطين المحلية؛ كما أنه يعكس الافتراض الشائع بوجود استمرارية متصلة بين إسرائيل القديمة والعالم الغربي الحديث، باعتبارهما مجتمعين قائمين على فكرة التوحيد، بخلاف الشرق الأدنى القديم الذي كان يؤمن بتعدد الآلهة. ولأن مندنهول يرى ثقافة سكان فلسطين الأصليين لاأخلاقية وفاسدة، فهم ببساطة لا حق لهم في الأرض وفقا لهذا المفهوم، بينما يرى احتلال إسرائيل لفلسطين تأكيدا للهدية الإلهية لإسرائيل. ثم يتناول فروقا أخرى بين إسرائيل وكنعان تتردد في الخطاب المعاصر بهدف إضفاء الشرعية على إسرائيل المعاصرة مقابل فشل سكان فلسطين الأصليين. فيقول: «الاهتمام بالمحافظة على السلام في مساحة واسعة من الأرض كان من القضايا الهامة لدى العقيدة الإسرائيلية المبكرة. وهو ما كان متباينا مع كنعان في فترة العصر البرونزي المتأخر». إذن، إسرائيل وحدها كان بإمكانها المحافظة على السلام في هذه المنطقة الواسعة لأن النظام المحلي كان يمثل استغلال نخب المدن للفلاحين. لذلك، فالمجتمع الكنعاني (الفلسطيني) لم يكن بمقدوره تنظيم اجتماعي متحضر.

تركيز مندنهول العرضي وغير الموفق، كما يقول، على الثورة الفلاحية ألقى ظلالا من الغموض على التمييز الجذري الذي أقامه بين إسرائيل والثقافة المحلية. ولكنه كتلميذ لأولبرايت، يعبر مندنهول تعبيرا صريحا عن فرضيات كامنة في خطاب دراسات العهد القديم تتعلق بالاختلاق الأكاديمي لإسرائيل القديمة. من ذلك، تمييز مندنهول الجذري بين العقيدة الإسرائيلية والأنظمة الاجتماعية السياسية الفاسدة التي حكمت سكان فلسطين الأصليين، والذي يعكس تصوير إسرائيل المعاصرة باعتبارها تطورا جديدا وجذريا في المنطقة. فجذور إسرائيل تعود للحضارة الأوروبية والديمقراطية؛ بحيث استطاعت استغلال هذه الأرض التي أهملها سكانها المحليون الكسالى والمنقسمون على أنفسهم زمنا طويلا. هل يذكر هذا التمثيل مرة أخرى بادعاءات الاستيطان الصهيوني حول تخلف المنطقة ورسالة التقدم الأوروبي التي يحملها المشروع الصهيوني؟

من ناحية أخرى، يتحدث مندنهول عن أسس المجتمع الديني المسمى «إسرائيل» باعتباره طوباويا قائما على علاقات أخلاقية بين أفراده. أي أن اختلاق مندنهول لإسرائيل القديمة يضاهي تطلعات المهاجرين الصهاينة الأوائل لإنشاء مجتمع جديد وعادل. أما الثورة التوراتية، التي هي حجر الزاوية للحضارة الغربية، فهي التي تحل محل النظام الوثني الفاسق، والحركة الدينية التي تحقق ذلك التغيير، جاءت من الخارج بواسطة مجموعة صغيرة من الإسرائيليين الفارين من فرعون مصر. ألا يستدعي ذلك صورة المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكوست النازي والقادمين إلى فلسطين لإقامة مجتمع «جديد وآمن ومتقدم»؟ وكذلك صورة موجة الهجرة الصهيونية الثانية (١٩٠٤-١٩١٤) التي جاءت بعشرات آلاف المهاجرين الروس المنتمين إلى الحركة الاشتراكية والذين أنشأوا المزارع الجماعية (الكيبوتسيم)، وبلوروا نموذج رواد الاستيطان الزراعي (الحالوتسيم)؟

لذلك، ليس غريبا أن يلفت بعض الباحثين اليهود اليساريين في الدراسات التوراتية إلى أن فرضيات مندنهول حول نظرية الثورة الفلاحية لبدايات إسرائيل كان لها قوة بلاغية واضحة في الستينيات والسبعينيات الماضية التي شهدت انتصار حركات التحرر الوطني في العالم الثالث وصعود اليسار. بيد أن هؤلاء الباحثين الذين دأبوا على تسييس إعادة بناء الماضي، لم يبذلوا أي جهد للربط بين هذه النظرية وبين أكثر حركات التحرر الوطني وضوحا، أي كفاح الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي. وتبقى المسألة خرساء لأن خطاب الدراسات التوراتية المهيمن قد أسكت تماما وبإحكام أي فكرة لوجود تاريخ فلسطيني أو تعبير عن تقرير المصير.

خـــــلاصــــــــة

نشأ خطاب دراسات العهد القديم (الحديثة) في سياق صعود القوميات الأوروبية، حيث كانت الدولة القومية الحديثة، خاصة في ألمانيا، تبحث عن جذورها البنيوية والحضارية في ثنايا العهد القديم، وتلقي بظلالها على خطابه ودراساته الحديثة. وتشكلت الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل في سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية. وقصد الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور إسرائيل القديمة، إلى إضفاء الشرعية على الدولة الحديثة. فسيطر ذلك على الخطاب التاريخي لدراسات العهد القديم، وحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

كانت الحاجة إلى البحث عن إسرائيل القديمة، باعتبارها الجذر الرئيس للحضارة الغربية، هي قوة دفع دراسات العهد القديم؛ وازدادت هذه الحاجة نظرا لمطالب اللاهوت الغربي في بحثه عن جذور خصوصيته في المجتمع الذي أنتج التوراة العبرية. وقد تعزز ذلك التوجه مع قيام إسرائيل المعاصرة، فأدى لنشوء أبحاث أكاديمية إسرائيلية تبحث، في الماضي البعيد، عن هوية وشرعية دولتها القومية.

تعكس هذه النماذج الثلاثة آيديولوجيات مؤلفيها ومواقفهم ومواقعهم من المشروع الصهيوني في فلسطين المعاصرة، وتعكس مراحل تطوره المختلفة التي تزامنت مع صياغة كل نموذج. فنموذج التسلل والهجرة السلمية قد صاغه ألت في العشرينيات من القرن الماضي، عندما كانت الهجرات الصهيونية المبكرة تترى باتجاه فلسطين، وتركز على حيازة الأرض بطرق غير عسكرية، وتنشئ المستعمرات الزراعية والمشروعات الصناعية والمؤسسات التعليمية والاجتماعية والنقابية التي ستشكل البنية التحتية للمجتمع اليهودي في فلسطين، وكانت الوكالة اليهودية هي الأداة الرئيسية للمشروع الصهيوني.

أما نموذج الغزو، فقد تمت صياغته أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات عندما كانت الامبرياليات الأوروبية تسيطر على معظم أرجاء المعمورة، ومع بداية تشكيل المنظمات اليهودية العسكرية وشبه العسكرية، وتم تشكيل الفيلق اليهودي الذي خاض الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، وأصبح لاحقا نواة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. أما نموذج الصراع الاجتماعي داخل فلسطين فقد تزامن مع صعود أفكار اليسار والصراع الطبقي والتغيير الثوري عالميا وسيطرة اليسار الصهيوني والاقتصاد الاشتراكي على نظام الحكم في إسرائيل منذ قيامها.

يلاحظ أن جميع النماذج التي عرضتها هذه المقاربة قد صاغت تفسيراتها لجذور إسرائيل القديمة في ضوء مفاهيم ونماذج تفسيرية حديثة. وقد أضفى خطاب دراسات العهد القديم هالة من الموضوعية على مقولاته ونظرياته، بينما تلعب عوامل أخرى لا واعية وغير موضوعية دورا حاسما في إعادة بناء الماضي المتخيل لإسرائيل القديمة. وقد طغت الأحداث المعاصرة والصراع على فلسطين بوضوح على خطاب وتأويلات هذه الدراسات. ورغم التقييم والدراسات النقدية التي سددت ضربات قوية أطاحت بكثير من فرضيات ونظريات واستنباطات هذا الخطاب المتحيز، استمرت بعض فرضياته وتصوراته الرئيسة الكامنة والتي كانت أساس اختلاق إسرائيل القديمة في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي المبكر. قد يكون بنيان هذه النماذج قد انهار، لكن ما يتم بناؤه في مكانها كثيرا ما يعتمد الأسس الكامنة ذاتها. ■

(*) Whitelam, Keith, The Invention of Ancient Israel, The Silencing of Palestinian History, London & New York: Routledge, 1996.

وصدرت له ترجمتان عربيتان: إحداهما بعنوان: اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني، عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، رقم ٢٤٩، سبتمبر/أيلول ١٩٩٩، ترجمة د. سحر الهنيدي، مراجعة د. فؤاد زكريا؛ وصدرت الأخرى بعنوان «تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني»، عن قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٠، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة د. زياد منى.

كـتـــاب الـزاويـــة

الثلج يسقط فوق الصين

أشعار صينية

الثلج يسقط فوق الصين
والبرد يحاصرها
الريح
مثل نواح امرأة عجوز
تلاحق من الخلف
تنشب مخالبها الثلجية
تنتزع ملابس السائرين
بكلمات كقسم الأرض
وتذمر لا ينتهي
تأتي من الغابات
في عربات خيل
وأنتم هناك يا مزارعي الصين
يا من ترتدون قبعات الفراء
وتواجهون العواصف الثلجية
ما هو قدركم؟
سوف أخبركم
(فأنا أيضاً سليل مزارعين)
فمن وجوهكم المجعدة التي حفرها الألم
ألمس سنوات وسنوات من عناء الرجال
الذين سكبوا أعمارهم فوق المروج
ورغم ذلك
فأنا لستُ أسعد حالاً منكم

تحـــولات الـــروايـــة





توزّع التفاؤل، بعد منتصف الخمسينيات، على رواية الواقعية الاشتراكية، ورواية المقاومة الفلسطينية التي اعتقد كتابها، أنّ ما تقترحه الكلمات يحققه الواقع

فيصـــــــــل دراج

■■ تحقق قراءة تاريخ الرواية العربية، منذ ميلادها الأول في مطلع القرن الماضي، إلى اليوم وظيفتين: وظيفة تقويمية ترصد تطور الرواية في تطور أشكالها الفنية، ووظيفة معرفية محددة، يتمازج فيها المتخيل الروائي بالوثيقة التاريخية، منتهية إلى تأريخ موضوعي، يقصر عنه المؤرخون الرسميون. فقد حملت الرواية، في ميلادها الأول، طموحاً واسعاً متفائلاً هو طموح الشعب العربي إلى مستقبل مشرق، تظلله المعرفة ويتمتع بالرقي والارتقاء. لكن هذا الطموح تزلزلت مواقعه غير مرة، إلى أن انتهى ذكرى بعيدة، يتأملها البعض بأسى عاجز، ولا يتذكر البعض منها إلا قليل القليل، مضيفاً إلى التذكر الناقص أحكاماً بائسة. وواقع الأمر أن الإخفاق العربي المتوالد، منذ قيام الكيان الصهيوني حتى اليوم، أعطى الرواية العربية جملة ولادات متلاحقة: فقد أعادت الرواية تنظيم علاقاتها بعد صعود الدولة البوليسية، التي راقبت الروائي والرواية، وأنجزت نقداً ذاتياً بعد هزيمة ١٩٦٧، مواجهة الهزيمة بأشكال روائية جديدة، ودخلت منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي إلى طور جديد، حاول المواءمة بين التحولات الاجتماعية العاصفة والأشكال الكتابية. أرخت الرواية للواقع العربي في القرن العشرين بشكلين: شكل واضح بسيط قوامه «المواضيع» المباشرة، وشكل أكثر رهافة وتعقيداً عنوانه تجدد الأشكال الفنية.

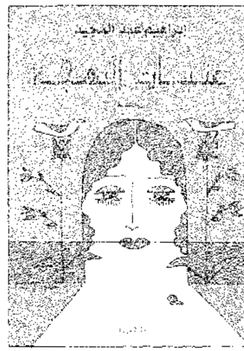
١ ـ طور أول: رواية التفاؤل والانتظار الاستقلال:

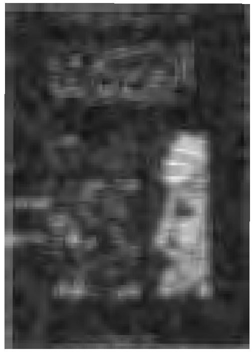
تزامن ظهور الرواية العربية مع ظهور المثقف العربي الحديث، في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، الذي رفض واقعه المتخلف وتطلع إلى مستقبل تبنيه قيم ومعايير ثقافية ـ سياسية جديدة. ولعل الزهد بالقديم واعتناق نقيضه، هو ما جعل من «الغرب المتقدم» مرجعاً قابلاً للمحاكاة، أو موضوعاً مستفزاً يفضح تخلف المجتمع العربي ويحض على إصلاحه. أفضى هذا التصور إلى صراع بين ما عرف بـ «القدماء» و«المجددين»، ودفع أنصار التجديد إلى الترجمة والتأليف والدعوة إلى أشكال كتابية جديدة. وإذا كان المنظور التجديدي قد وضع أمام القارئ جنساً أدبياً غير تقليدي، يدعى بالرواية، فقد وضع في الرواية الوليدة تصوراً للحاضر والمستقبل، يأتلف مع طموحات المجددين وغاياتهم. توزع مفهوم التقدم على الرواية وعلى المثقفين الداعين إليها، كما لو كانت الرواية سجلاً تربوياً، يشهد على مثقف ذاهب إلى مستقبل ينتظره، ويشهد على «يقين تقدمي» يساوي بين المستقبل ورغبة المثقفين.

أنجز محمد حسين هيكل، في روايته «زينب» أغراضاً ثلاثة: أعطى الرواية العربية ولادة رسمية، بعد تجارب كتابية متعثرة، باستثناء «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي، هي مزيج من الإنشاء البسيط والحكايات الوعظية، وأوكل إلى الرواية وظيفة نقدية اجتماعية تستجيب القديم وتبشر بالجديد، وأعلن أيضاً عن جيل من المثقفين يدعو إلى الرواية والمسرحية والمجتمع المدني والحياة الديمقراطية ونقد الماضي والانفتاح على ثقافة «الآخر» الأوروبي. اعتنق هذا الجيل دعوة هيكل، مازجاً بين الأدب والسياسة، وممارساً الأدب والسياسة معاً بمنظور نقدي لا يعوزه التفاؤل. كتب الرواية اللبناني أمين الريحاني والفلسطيني نجيب نصار، وعثرت لدى المصريين على أقلام كثيرة: توفيق الحكيم وطه حسين وعبد القادر المازني وصولاً إلى العقاد، الذي أعلى من مقام الشعر وهون من شأن الرواية.

أغلق توفيق الحكيم روايته «عودة الروح» بنهاية متفائلة، تعد بمستقبل مجيد يستعيد روح ماض بعيد مؤكداً، إلى تخوم الإسهاب، أن مصر تكبو وتقف سريعاً، وتغفو سهواً وترجع إلى يقظة متجددة. استمد الحكيم تفاؤله من إيمان بروح مصر، ومن سياق تاريخ كان يوزع التفاؤل على الجهات جميعاً، مطمئناً إلى تحرر وطني وشيك وإلى «روح العصر» التي تمدها «فلسفة التقدم» بما تشاء من الثقة والأمل. ولعل الإيمان بمستقبل هو الذي نصب النهاية المتفائلة عنصراً ثابتاً من عناصر الرواية العربية. فقد ختم اللبناني توفيق يوسف عواد روايته «الرغيف» ـ ١٩٣٩ ـ بما أغلق به الحكيم روايته، وسيعود مواطنه سهيل إدريس، بعد أكثر من عقد من الزمن، إلى النهاية المنتظرة، في روايته «الحي اللاتيني»، وسيبتره عبد الرحمن الشرقاوي في «الأرض» بشيء قريب، وصولاً إلى الجزائري اللامع محمد ديب في ثلاثيته «الدار الكبيرة». بدا الماضي المتخلف، في هذه الروايات وغيرها، صفحة منطوية، تعقبها صفحة حافلة بالضياء، يحتشد فيها الاستقلال الوطني والتحرر الاجتماعي ووعد بـ «عروبة جديدة»، تبرهن أن «الجوهر العربي» مغاير لـ «العنصر التركي» ومختلف عنه.

توزع التفاؤل والنهايات المتفائلة، بعد منتصف خمسينيات القرن الماضي، على طرفين: رواية الواقعية الاشتراكية، التي دافع عنها الماركسيون، ورواية المقاومة الفلسطينية التي اعتقد كتابها، بإخلاص كبير، أن ما تقترحه الكلمات يحققه الواقع، دون زيادة أو نقصان. وربما تكون رواية حنا مينة «الشرع والعاصفة» التي تناجت لاحقاً في روايات كثيرة صورة لـ «الأدب الجديد» المؤمن بإرادة الإنسان المتحرر وبقدرته على ترويض الأمواج العاتية. وإذا كان في هذه الرواية ما يفصح عن إيمانية قابلة للمساءلة، فقد كان فيها ما يعلي من شأن الإنسان، ويرى







فيه كيانًا فاعلاً قادرًا على بناء المجتمع الذي يريد.

ربطت الواقعية بين الإنسان النوعي، بلغة معينة، أو «البطل الإيجابي» بلغة أخرى. وبين مجتمع اشتراكي ينقل الإنسان، بشكل نهائي، من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية، حيث لا موقع إلا للخير والمساواة والجمال. ولعل هذا التصور هو الذي أقنع الجزائري الطاهر وطار أن ينزل بالإقطاع، في روايته «الزلزال» هزيمة نهائية، وأعطى «القوى الثورية» اليمنية انتصارًا حاسمًا في رواية يحيى يخلف «نجران تحت الصفر».

أنجز الفلسطينيون «بطلا إيجابيا» على طريقتهم، يجمع بين الحق والإرادة والبندقية، ويعود إلى أرضه السليبة منتصرا. خلق جبرا إبراهيم جبرا، وهو الروائي الفلسطيني الأكثر ثقافة والأغزر كتابة، «بطلاً مطلقًا» لا يعوزه من صفات الانتصار شيء، بطلا أقرب إلى الحلم، مستقبله ماضيه الجميل وماضيه مستقبله المشرق. واطمأن غسان كنفاني إلى جمالية الإرادة، التي تأمر الفلسطيني الحقيقي بالذهاب إلى معركة منتصرة، يفرضها شرف الإنسان وهوان المنفى الذي لا يطاق. انتصر الفلسطينيون في رواياتهم، إلى أن جاء زمن شائك أخبرهم أن الواقع يغاير الأحلام، وأن المثقفين يعرفون جماليات الكتابة، ولا يعرفون عما خارج الكتابة شيئًا كثيرًا.

توازعت رواية التقدم، كما رواية التحرر، بطلاً واعدًا بأشكال مختلفة. عثر توفيق الحكيم والشرقاوي ومحمد ديب على صيغة «الصبي الواعد» الذي يعلن تفاؤه عن زمن جديد، وارتكن الواقعيون إلى «البطل الإيجابي» الذي يخوض «صراعا طبقيا» يلبي مشيئة التاريخ وينصرها. وارتاح الفلسطينيون إلى «البطل الثوري» الذي يعد بحكاية سعيدة النهاية. تعين البطل، في صوره المختلفة، موضوعًا وإشارة: الصبي هو الفرد الذي تدور الحكاية حوله، وهو المستقبل والانتصار والتحرر القريب. أما «البطل الإيجابي» فهو صورة عن ذاته المنتصرة وصورة لإرادة جماعية لا تغفل انتصارا، يتحدث باسمه وينطق باسم الذين يمثلهم. انطوى البطل الفلسطيني، الذي لا تخذله البندقية، على صفات البطلين السابقين مضيفا إليهما «بطولة الأرض» التي تمد البطل بـ «قوة خفية» كما اعتقد جبرا.

ترجمت الروايات، في صورها المختلفة، حكاية التقدم، القائمة على عنصرين: بطل نوعي يسرد صفاته ويسرد معها المصاعب التي تبرهن عن بطولته، وانتقال نوعي من زمن إلى آخر يبرهن عن هزيمة الماضي وانتصار المستقبل المضيء على غيره. حكاية واضحة شفافة ترتكن إلى زمن يتقدم لا يعرف الرجوع، يلازمه إنسان نافذ البصيرة يصل إلى ما يريد. يصل صبي توفيق الحكيم إلى مظاهرة حاشدة أقرب إلى النشيد المقدس، تخبر أن في روح مصر ما يحرر مصر، وتصبح المرأة البدوية في «دعاء الكروان» لطه حسين سيدة مثقفة تأخذ أمور حياتها بالحزم والشدة، وينبذ بطل سهيل إدريس في «الحي اللاتيني» غواية «الغرب المتفسخ» ويعود إلى «أمته العربية» فتى جديدا، ويصعد بطل رواية «الزلزال» سعيدًا فوق أطلال «القوى الرجعية»، ويتصدى بطل حنا مينة، وهو أقرب إلى «البطل الشعبي - الوطني» للعواصف جميعًا، ويصل مع شعبه إلى مرفأ أمين.

مهما يكن المآل العربي فإنه من السخف كل السخف أن يرى القارئ اليوم إلى «رواية التقدم» باستخفاف ساخر أو بعطرسة مترهلة، ذلك أنها انطوت على عناصر إيجابية كثيرة: أسست، أولاً، جنسا كتابيا عربيا جديدا عنوانه: الرواية، وعبرت عن سياق تاريخي أقنع العرب بأن «الاستقلال الوطني» طريقهم الوحيد إلى الازدهار والارتقاء، وجسدت نزوعا فكريا مسيطرا صائبًا، لأن «التقدم» هو بديل التخلف، وإن المتخلف لا مستقبل له إن اعتصم بتخلفه والتحق بماض قريب. ولهذا لا تقرأ «رواية التقدم» بمقولتي: الانتصار والهزيمة بل بمقولتي الصواب والخطأ. رواية اقترحها مثقفون اقترحوا الحداثة الاجتماعية سبيلاً لارتقاء أوطانهم، قبل أن تأتي «دول مستقلة» تعتقل الأوطان والمثقفين وتقوض، باجتهاد محسوب، كل ما يسمح بالحداثة ويجعل منها حقيقة اجتماعية.

٢ - طور ثان: من رواية التقدم إلى رواية السجن:

على هامش التصورات الروائية جميعًا، المبشرة بفجر جديد، وقف روائي عميق البصيرة أقرب إلى التشاؤم يدعى: نجيب محفوظ. اشتق الرواية من «اغتراب الإنسان»، الذي أسس لصعود الرواية في الأزمنة الحديثة، ومن رؤية ذاتية رسولية المضمون، تتطير من «السلطة المصرية»، وتنظر إلى سلطات الأزمنة البشرية كلها بحذر كبير. ساوى في روايته الأولى «عبث الأقدار» بين السلطة والقتل، وندد بعبث السلطة المستبدة في روايته الثانية «رادوبيس»، وابتدأ مرحلته «ما بعد - الفرعونية» برواية تندد بالسلطة عنوانها: «القاهرة الجديدة». ومع أنه عمش موضوع السلطة في سياق وطني - تحرري يوحي بـ «العدالة»، فقد قادته خيبته اللاحقة إلى عمل هجائي غير مسبوق عنوانه: «أولاد حارتنا»، الذي رأى في السلطة، في الأزمنة كلها، شرًا أصيلاً متأبدًا، لا سبيل إلى إصلاحه وتبديله.

شكلت رواية محفوظ: «اللص والكلاب» في مطلع الستينيات الماضية، مرجعًا لرواية عربية جديدة، لا تعتنق التفاؤل ولا تؤمن به، بل تتمحور حول «فرد مغترب» يتطير من سلطة تواجه عدالة الكلام بعنف مادي غير مسبوق. انتهى زمن الصبي النقي وانقضى زمن «الجماعات الثائرة» وبدا المستقبل سؤالاً حائرًا. لم يكن الفرد المغترب، روائيا، إلا تعبيرا عن سلطة باهظة وضعت داخلها كل شيء، وحولت ما خارجها إلى أشياء أو ما يشبه الأشياء. ولعل هذا الاغتراب الذي يحول الوجود إلى منفى، هو الذي وسع مساحة «المونولوج الداخلي» أو الحوار مع الذات، بعد أن غدا الحوار مع الآخرين فعلاً مغامرًا غير مأمون العواقب. رفع صنع الله إبراهيم، في روايته «تلك الرائحة» صورة الفرد المغترب إلى حدودها العليا، حيث المغترب لا يقترب من الكلام إلا ما كان ضروريا، تاركًا كلامه الغائب المسرح لروح مقفلة على أسرارها لا يراها أحد. وسيحاول هذا المغترب، بعد أن اقترب من التقوض، أن يأكل نفسه في رواية «اللجنة» تعبيرًا عن وجود كابوسي يزهق الأرواح ويتلف البداهات.

إذا كان محفوظ قد وضع «سعيد مهران» في قاهرة الستينيات، وأطلق لسانه بأسئلة حائرة شاكية، وهو يحاذر موتًا وشيكًا، فقد حمل جمال الغيطاني، في رائعته «الزيني بركات» بطله الحائر الشاكي إلى القرن السادس عشر، منددًا بـ «البصاصين» ومعطيا سؤال الاغتراب فسحة تاريخية واسعة، تمدد بوضوح موجع واسع الأرجاء. وسيدفع الغيطاني بعد قليل، بسؤاله إلى مجال أكثر قتامًا في عمله «أولاد حارة الزعفراني» حيث «العنة» المنتشرة إشارة إلى مجتمع يسير متلكئا إلى الموت. ولعل من المفيد لقراء تطور القول الروائي أن يقارنوا بين «الخصاء الاجتماعي» في عمل الغيطاني والإنسان الذي يأكل نفسه في رواية إبراهيم، ذلك أن في

شكّلت رواية محفوظ: «اللص والكلاب» في مطلع الستينيات الماضية، مرجعًا لرواية عربية جديدة، لا تعتنق التفاؤل ولا تؤمن به، بل تتمحور حول «فرد مغترب» يتطيّر من سلطة تواجه عدالة الكلام بعنف مادي غير مسبوق

العملين ما ينتهي إلى نتيجة واحدة أخذ الفرد المحاصر بوجوده الضيق أبعادًا جديدة في عمل غالب هلسا «الخماسين»، حيث السلطة غبار خانق، والمغترب مهزوز الرجولة والقمر البارد صوت عاجز كالأصوات الاخرى والألوان شاحبة والرمل يكتسح داخل البيوت وخارجها.

حمل عبد الرحمن منيف موضوع «الفرد المغترب» إلى «شرق المتوسط»، وهو عنوان روايته الشهيرة، مساويا بين السجن الصغير والسجن المجتمعي الكبير، وبين السجناء والأنقاض البشرية. وإذا كان بطل صنع الله إبراهيم، في «اللجنة»، قد أكل نفسه، فإن بطل منيف أكلته السلطة، وأرسلت شظاياه إلى «الغرب»، كي يعالج ما لا تمكن معالجته. أعاد منيف رسم الإنسان المغترب، بصورة مدهشة، في روايته «حين تركنا الجسر»، مشتقًا ملامحه من شتاء قارس وأرض موحلة ورحلة خائبة، يودع فيها المتمرد تمرده ويندرج مع جماعات بشرية فقدت أرواحها. في نهاية السبعينيات «المراحلة» كتب العراقي الراحل غائب طعمة فرمان، وهو في منفاه، عملاً حزينا في جماله عنوانه: «الام السيد معروف»، عن إنسان يقرأ موته في معدة مريضة وشمس غاربة وغرفة موحشة وجهاز بيروقراطي مميت. كان فرمان قد وضع شيئًا من الأمل في روايته «خمسة أصوات» حين رأى فيضانًا يكنسح «الظالمين»، دون أن يدرى أن «الظالمين الجدد» يكتسحون المجتمع كله. شيء قريب مما كتبه اللبناني الياس خوري في روايته «الوجوه البيضاء» وفي أعمال متميزة لاحقة، رصدت تلك المسافة الحارقة بين الرغبة والخيبة.

يستطيع القارئ، في حدود السلطة والفرد المغترب، أن يعطف رواية على أخرى مشيرًا إلى مساحة شاسعة من السجون والجلادين والمقابر المنتظرة، لكنه إن وعى ما قرأه يعود بالروايات جميعاً إلى رواية «اصل» هي: اللص والكلاب، ينطبق على رواية محفوظ في علاقاتها بالرواية العربية الجديدة، ربما، ما ينطبق على «معطف» غوغول في علاقاتها بالرواية الروسية، التي رأى النقاد الروس فيها «رحمًا» لرواية واسعة لاحقة. تحمل الإشارة إلى رواية محفوظ دلالتين: دلالة أولى صادرة عن انصراف الرواية العربية، قبل هزيمة حزيران وبعدها، إلى موضوع السلطة، من حيث هو موضوع مسيطر، يصدم الكتابة الروائية الحالمة أبدًا بمجتمع ديمقراطي، يحكمه الحوار ويعترف بحقوق الكلام، ودلالة ثانية أقصت «التبشير السعيد»، ووطنت معنى الكتابة الروائية، كما يجب أن تكون، التي ترصد مسار إنسان يتطلع إلى غاية ويصل إلى موقع لم يتوقعه ولم يرغب به.

بدأت «دولة الاستقلال الوطني» من مجتمع ممتلئ بطموحه، وانتهت بعد قمع ثابت وثبات قامع إلى مجتمع مقوض. دخلت الرواية، بعد عقود من الخيبة المتوالدة، في طور جديد، يسائل انهدام المجتمع والسلطة، ويضيف إلى الاغتراب السياسي اغترابًا وجوديا، يتاخم الرثاء والرثاء الذاتي معًا. مثلت هذه الرواية، في نماذجها الواعية، شهادة مزدوجة، تنفتح على الخارج وتقرأ الخيبة الشاملة، وتنفتح على الذات الكاتبة محدثة عن اغتراب المثقفين، الذين حلموا بمجتمع حديث يحول الرواية إلى ظاهرة اجتماعية، على مستوى الكتابة والقراءة معًا، وآية ذلك رواية رضوى عاشور «أطياف»، التي وزعت الشخصية الساردة إلى شخصيات متعددة، تعبيرًا عن غياب اليقين، مستأنفة أشجان غائب طعمة فرمان في: «آلام السيد معروف»، بل ان الساردة وسعت شجن «السؤال» متوسلة مكانًا واسعًا يمتد من القاهرة إلى مخيم صبرا وشاتيلا، وزمنًا ممتدًا من زمن حفر قناة السويس إلى تفكك المشروع الوطني الفلسطيني. أعاد الروائي والناقد محمد برادة، على طريقته، صياغة أسئلة المثقف الوطني المهزوم في عمل لافت عنوانه: «مثل صيف لم يتكرر»، جاعلاً من سيرته الذاتية مرآة واسعة لسيرة صعود الحلم القومي وانهياره. قرأ الروائي الزمن التاريخي بالزمن الذاتي، مازجًا بين كتابة تقريرية وأسلوب ذاتي شديد الذاتية، معالجًا زمنًا روحيا شديد المراوغة، لا يمكن القبض عليه تمامًا. جمع بهاء طاهر الأشجان جميعًا في روايته «الحب في المنفى» التي قادت الحالم إلى احتضاره، ودفعت بالاحتضار إلى الموت المنتظر. وسيعيد الروائي، بعد سنوات من القلق والتأمل صياغة أسئلته في عمل يقترب من الندرة هو: «واحة الغروب»، الذي عاين مسار المثقف التنويري منذ زمن بداياته المعوقة إلى زمن هزيمته الكاسحة.

٣ـ طور ثالث: رواية تبحث عن شكلها

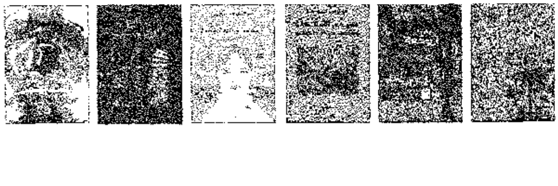
لم تصطدم «رواية التقدم» بما يعوق كتابتها، لأنها اطمأنت إلى زمن تصاعدي يهزم العوائق واحدا بعد آخر ويقف، في النهاية، سعيدا رافعًا راية الانتصار. كان في داخل الزمن المرتقى صعدًا، أو خارجه، «البطل الرومانسي»، الذي يتصدر المكان، ويحول ما عداه إلى مرايا تعكس جماله وتفوقه وقدرته على اقتراح الأحلام وتحقيقها. استبدلت رواية الاغتراب، التي تكاثرت بعد «اللص والكلاب»، بالبطل الرومانسي فردًا مهزومًا محوطًا بمرايا مغايرة، تترجم اغترابه بأشكال متعددة. وعلى الرغم من السجن وآفات الإنسان المعطوب، لم تفقد «رواية الاغتراب» الأمل، فقد كان المجتمع لا يزال قادرًا على الوقوف.

بعد توطد هزيمة حزيران - ١٩٦٧ - وانشغال السلطات المهزومة بهزيمة شعوبها، تغير المشهد الاجتماعي - الأخلاقي، وانفتح على واقع أقرب إلى الكابوس. وصل المجتمع العربي إلى نقيض ما توقع الوصول إليه، واستولد الروائي بطلا منقطعًا كليًا عن صبي الحكيم وفتى الشرقاوي و«فارس» حنا مينة، الذي يلامس بأصابعه النجوم. تميز المشهد الاجتماعي، الممتد من احتلال الجيش الإسرائيلي لبيروت - ١٩٨٢ - إلى تدمير العراق، بأمرين أساسيين: تحول المجتمع إلى كتلة سديمية يصعب شرحها، وانغلاق معنى المستقبل الذي هو ضرورة لـ«التخييل الروائي»، وبسبب ذلك ألغى الروائي العربي فكرة المستقبل، وعمل على بناء شخصية روائية جديدة، تحيل على حاضر لفظ أنفاسه، وعلى مستقبل مات قبل موته.

سردت الرواية سديمية الواقع العربي اتكاء على شخصية - مجاز، تأخذ عناصرها الأولية من الواقع المعيش، وتنفذ إلى قراره وتأوله وترفضه. عبر المجاز الجديد عن كائن مشوه أجوف، مشلول، معطل ومعطّل، أو عن كيان فارغ ومفرغ، يشهد على مجتمع فقد وعيه. لجأ يوسف أبو رية، في «تل الهوى»، إلى مجاز: المولود المسخ، الذي يكثف واقعًا انزاح عن البداهات وسقط في لاعقلانية مغلقة. استأنف الروائي مجازه في «ليلة عرس»، مبينًا أن المسخ تكاثر إلى مجتمع من المسوخ، وأن الإنسان السوي مطارد ولا مكان له. وصاغ محمود الورداني، الروائي المجتهد الدؤوب، «روح العصر» بمجاز «الرأس المقطوع» في روايته «أوان القطاف»، معلقًا الرأس المقطوع في فضاء زمني واسع الأرجاء. وأضاف الغيطاني إلى المتخيل الروائي المحسوب متخيلاً إضافيًا في «حكاية الخبيئة»، مشيرًا إلى واقع يحتمل كل أنواع العبث واللامعقول. أضاءت هذه الروايات، بشكل مبدع، العلاقة بين التحولات الاجتماعية والأشكال الفنية، مصيرة الشكل إلى مضمون والمضمون إلى شكل، ومبرهنة أن الشكل الروائي العربي، الممتد من بداية الستينيات إلى بدايات الثمانينيات، قد استنفد أغراضه.

أخذ المجاز مكانًا مسيطرًا في عملين روائيين لبنانيين متميزين أولهما: «أهل الهوى» لهدى بركات، الذي محور قوله حول شخصية العاشق - المجنون، الذي ندد بمجتمع عشق الكراهية واعتبر الإنسان العاشق مجنونًا خطرًا، يقصى إلى موقع لا يرتاده «فرسان الكراهية». وثاني العملين هو: «دنيا» لعلوية صبح، الذي يواجه العنف المادي بسيولة الكلام وقتام الكوابيس بديمقراطية الأحلام، ويجابه «المشلول المستبد» بجماليات نقيضه، التي تنقض الحكاية المستبدة المكتفية بذاتها بمتواليات حكائية متنوعة، تفصح عن سلطة الحياة المغايرة كليًا لحياة السلطة. ربما يكون مجاز «المشلول المستبد» الذي صاغته الروائية برهافة نادرة، هو التعبير الأدق عن عالم عربي، يسوسه أموات يقتاتون بالأحياء. عارض السوري خالد خليفة، في روايته «مديح الكراهية» ثقافة الموت المأخوذة بتجانس لا روح فيه، بتنوع حكائي يدافع عن خصب الحياة، منتهيًا إلى تفاؤل مضمر، تحسنه العقول المضيئة، يرى في الجسد الحي طاقة متمردة قادرة على ترويض صاحبها. ترك الروائي «الوعظ الأيديولوجي» القديم جانبًا، ونفذ إلى وجود الحياة الخبيئة، التي تنتج ظاهرة وتخلق ما هو نقيض لها. وصل في عمله إلى خلق روائي يقترب من الريادة، متوسلاً بنية حكاية متعددة المستويات.

رد الروائي العربي أيضًا على عالم متشبع بالقبح والعطن بلغة صقيلة متقنة، كما لو كان النثر في ذاته أداة لتوصيل المعنى وتصورًا للعالم في آن. استأنف هذا التصور تقليدًا دعا إليه إدوار الخراط، ومنحه أبعادًا جديدة. يظهر النثر الروائي المغسول من شوائبه في عمل عزة القمحاوي: «غرفة ترى النيل» التي تسرد بشجن مختنق احتضار زمن نظيف ليس له أنصار كثيرون في هذا الزمان، موحية بأن اللغة الجميلة شكل من أشكال المقاومة. ويظهر النثر الصقيل في عمل الأردني إلياس فركوح «أرض اليمبوس» الذي يوحد بين الرواية



والسيرة الذاتية، ويقرأ بحلل إدوار الخراط بوقائع تاريخية متعددة، موسعاً ومعلقاً معناه عليه. إضافة إلى هذين العملين هناك عمل المصرى ياسر عبد الحافظ: «بمناسبة الحياة»، الذى يعطى درساً فى اقتصاد الكلام الدال، ينتقل المجاز، لدى ياسر، إلى حقل اللغة مستأنساً. فى زمن مختلف، بلغة الصمت التى جاء بها صنع الله إبراهيم ذات مرة. تمكن الإشارة، فى هذا المجال، إلى رواية: «أول النهار» للمصرى سعد القرش، الذى أعاد إنتاج ثلاثية محفوظ، بشكل خلاق، متمثلاً معنى استمرارية الحياة، متصرفاً بالمكان والزمان. لا تقصد هذه الإشارة المقارنة بين عملين روائيين، فهذا كلام لا يحمل الكثير من المعنى، بل تقصد التدليل على التزام الرواية بالدفاع عن القيم، داخل الكتابة وخارجها. فقد تطلع صنع الله إبراهيم، فى روايته «شرف»، بحنين كسير إلى حقبة ناصرية منقضية، بينما آثر سعد القرش حواراً مشرقاً مع نجيب محفوظ، يبرهن أن «أولاد محفوظ» لا يزالون على قيد الحياة.

المجاز الروائى الذى يكثف الواقع ويؤوله، واللغة التى تجمع بين التوصيل والتأويل والمقاومة... أضافت الرواية العربية الجديدة إلى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً، يليق بزمن يقمط القذارة بلباس حرير، عنوانه: السخرية السوداء، أو الكتابة الهجائية، التى يهمش فيها الشكل المضمون، كما لو كان الشكل فى ذاته هو المضمون الأكبر، عبث السورى فواز حداد بوقائع عابث فى عمله المتميز «مشهد عابر» ساخراً من المسافة الشاسعة بين المواضيع وأسمائها، إذ القاضى يشبه القاضى ولا يكونه، وإذ المحامى يمسح لقبه ويكون شيئاً آخر، وإذ الطفولة البريئة زمن لقيط تخالطه الدعارة. رفع اليمنى وجدى الأهدل، فى روايته «فيلسوف الكرانتينا» السخرية السوداء إلى مقامها الأعلى مذكراً، من بعيد، بأدب الكوابيس الذى اقترحه أورويل والدس هكسلى وسويفت فى رحلات جوليفر. اقترح الروائى اليمنى منظوره شاهداً على واقع مغاير كل المغايرة، فلا مخابر تخترع البشر ولا موقع لسلطة تقنية تحول البشر إلى أقنعة متناظرة.. ضحك أسود يتطلع إلى الضحك السوى، أو ضحك مقهور أملته رقابة أقرب إلى «البلاء»، أدمنت النفاق وإعدام الحقيقة. على جهة أخرى، لها خصوصيتها المكانية والأسلوبية صاغ إبراهيم عبد المجيد عملاً روائياً لافتاً جديراً بالتأمل عنوانه: «عتبات البهجة» التى هى «عتبات الكآبة»، ساخراً من الزمن وأحواله، ومن تغيرات الجسد والروح، ومسائلاً طفولة ما هى بالطفولة، وينظر بحزن عميق إلى بديل اجتماعى لا وجود له، صاغ عبد المجيد مسائل الحياة، الأكثر تعقيداً وشجناً، بوضوح شفيف، لا يحسنه إلا المبدعون الحقيقيون. تصدر جمالية «عتبات البهجة» عن سخرية واسعة مضمرة، تطفو على السطح بمقدار محسوب، وترتد ثانية إلى أعماق محتجبة مراوغة. «عتبات البهجة» ثناء على جماليات الحياة البسيطة، فى زمن همش الرصين والأسئلة المترصنة. تقيم هذه الجماليات علاقة بين رواية عبد المجيد ورواية «مواقيت التعرى» لهدرا جرجس زخارى، التى كشفت عن الجمال فى زوايا إنسانية خبيئة، كاشفة عن مفارقات الحياة، وناشرة منظوراً شفيفاً لا تعوزه الرهافة أبداً.

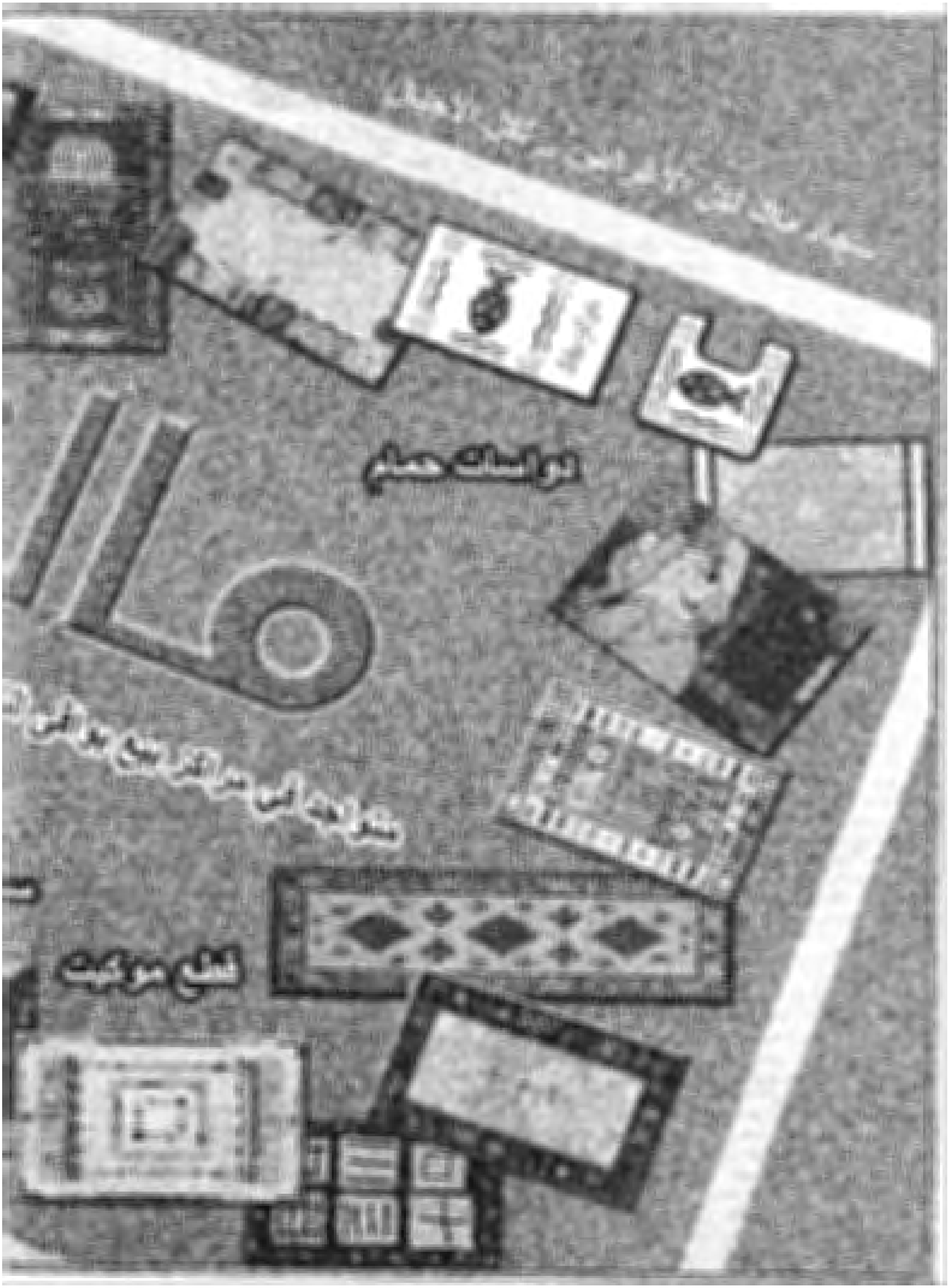
استأنفت «الرواية العربية الجديدة» تقنية السيرة الذاتية، وأمدتها بأبعاد جديدة. كان الراحل غالب هلسا، وغيره من جيل الستينيات، وقد مزج بين الرواية والسيرة الذاتية مؤكداً، غالباً، الكراهية المتبادلة بين المثقف والسلطة يقود موضوع السخرية، المؤسس على مبدأ المفارقة، إلى رواية محمد البساطى «جوع» التى عبثت، باقتصاد لغوى غير مألوف، بوجود عابث لا يعرف المنطق ولا يعترف به. وسعت الرواية، فى العقود الأخيرة، مساحة السيرة الذاتية وهمشت التداعى السلطوى، ناظرة إلى تداع اجتماعى أكثر قتاماً. تظهر، فى هذه الحدود، رواية مكاوى سعيد «تغريدة البجعة»، حيث السيرة الذاتية موقع تتقاطع فيه سير ذاتية متعددة. جاءت من مكان واضح الإضاءة وانتهت إلى لا مكان. فكل سيرة ذاتية فضاء بغيرها وتستضىء بها. قبل أن تسقط السيرتان فى الخراب، وكل سيرة ذاتية تضاء بنثار اجتماعى بائس، حالها حال الكتاب الذى أعطب صفحاته غبار شديد القذارة. تتساقط السير، تباعاً، من قارب هش مثقوب، وتظل السيرة الأخيرة السائرة إلى الموت، رثى جمال الغيطانى فى «شطح المدينة» زمناً مضى ورثى مكاوى سعيد ما تبقى من بشر الزمن المنقضى، معلناً تربع زمن قبيح على أطلال زمن كان يعد بالجمال. وعلى الرغم من اختلاف البنية الروائية، أخذت أمينة زيدان، فى «نبيذ أحمر» بتقنية قريبة، ذاهبة إلى جذور عطب كان مستتراً، تكشف بعد سقوط مدو لا يمكن حجبه. خلقت الروائية تصورها من مقولات فكرية مباشرة - أفكار اليسار - وسخرية مريرة. وخلقتها، أولاً، بلغة متوترة نافرة يخالطها الهذيان. حدثت سدورها عن موت الجمال وازدهار القبح. وإذا كان مكاوى سعيد قد أفصح عن منظوره فى استهلال فاجع عناصره البرد والليل الموحش والأرواح الجافة، فقد استهلت زيدان عملها بإشارة إلى «أب مبتور الساق، لا تسعفه «القلب الدافئ» على السير طويلاً. ربما كان فى ركون الرواية إلى شكل السيرة الذاتية دفاع عن ذات مفردة مغتربة تواجه مجموعاً بشرياً لا شكل له. ذلك أن الذات شكل، بينما المجموع ركام لا شكل له، يرفض الأشكال والذوات المستقلة معاً.

كان الروائى العربى، فى زمن مضى يضع ذاته «داخل السرد» مقنعاً ذاته بصحة قوله، ومحاولاً أن يقول للآخرين بأنه يقول بالحقيقة. فعل هذا غسان كنفانى فى «رجال فى الشمس»، وفعله أيضاً حليم بركات فى عمل رؤيوى لامع هو «ستة أيام». ابتعد بعض الروائيين، بعد أن أدركه اليأس، عن مركز الرواية وعن هامشها أيضاً، مؤثراً تصويراً طبيعياً، إن صح القول، يعطى الأشياء كما هى، دون زيادة أو نقصان مقترباً، ربما، مما يمكن أن يدعى بـ «الواقعية القذرة»، التى تحاول القبض على واقع طافح بالقذارة. مهد حمدى أبو جليل لهذا المنظور، ورفعه محمد الفخرانى إلى مرتبة جديدة فى عمله «فاصل... للدهشة»، حيث البشر شظايا تستعصى على الشكل والتشكيل، وحيث للبشر، الذين أوجل دفنهم، لغة وبيوت وهموم على صورتهم. لن تكون حكاية الشظايا البشرية إلا شظايا حكائية أو صوراً متجاورة متراصفة، تتكاثر وتتوالد ولا تعثر على ملامحها. أراد الفخرانى أن يترجم تداعى الواقع، بشكل روائى متداع، يصرح بالتجريب الروائى الشجاع، قبل أن يصرح بشىء آخر. لا غرابة أن يفقد البشر ملامحهم، ذلك أن الملامح الواضحة تعبير عن ارتقاء، وأن لا يكون لهم أسلوب لغوى، لأن الأسلوب الواضح والشخصية الفعلية لا ينفصلان. ربما يشكل موضوع «غياب ملامح الشخصيات الروائية» مدخلاً واسعاً للزمن الاجتماعى، الذى ارتد بعيداً إلى زمن المجتمعات المغلقة، التى لم تكن تعرف معنى الفرد والحوار بين الأفراد.

كل شىء يموت، أو يتطلع إلى الموت: بطل القمحاوى فى «غرفة ترى النيل»، إن لم تخطئ الذاكرة العنوان، وبطل سعد مكاوى فى «تغريدة البجعة»، وحاملة القول فى «دنيا» علوية صبح، والإنسان الجميل فى «نبيذ أحمر»... أنهى بهاء طاهر عمله الكبير «واحة الغروب» بانتحار «إنسان تنويرى»، عاقت نفسه خراب الفرد والمجموع، فأشعل النار بـ «الأصل» القديم، وطالب ببدء جديد متحرر من جميع «الأصول». انتهى زمن اليقين، وإن كانت آثار «اليقين» اللاعقلانى المتعدد الأطياف قائمة فى مجتمعات عربية تشبه الأنقاض، أو فى أنقاض بشرية تشبه المجتمعات.

تتعامل الرواية العربية مع واقعها متمسكة بمنطق المفارقة تصف الموات وتقتفى آثاره، وتبرهن أن الكتابة وتوليد الأشكال فعل مقاوم يدافع عن الحياة. تنقض الرواية مدينة ظالمة مؤثثة بالكوابيس وترنو، بثبات مجيد، إلى مدينة فاضلة، قائمة، فى مكان ما. ■

على الرغم من اختلاف البنية الروائية، أخذت أمينة زيدان، فى «نبيذ أحمر» بتقنية قريبة، ذاهبة إلى جذور عطب كان مستتراً، تكشف بعد سقوط مدو لا يمكن حجبه


دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com

جهـــــــاد فـاضـــــــل

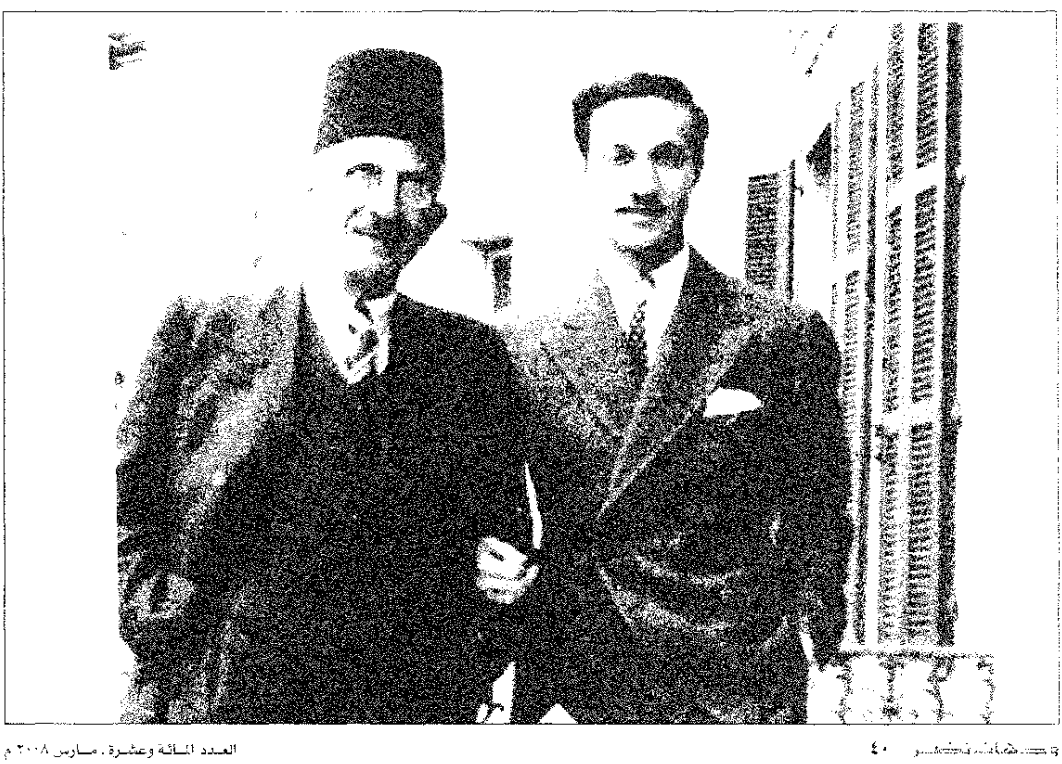
بين الأخطل الصغير

* للبنان مكانة خاصة في سيرة الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب الذاتية والفنية. فقد زار لبنان لأول مرة وهو في العاشرة من عمره من ضمن عمله في فرقة نجيب الريحاني، وأكثر ما لفت نظره في تلك الزيارة المبكرة، كما يروي في ذكرياته، رقصة الدبكة اللبنانية والأغاني الشعبية التي تصاحبها. ولكن الذي جعل عبدالوهاب يزور لبنان فيما بعد، ويعتاد لاحقًا على زيارته، كلما سنحت له الفرص، كان أمير الشعراء أحمد شوقي. وإذا صح أن عبدالوهاب بات عضوًا في شلة شوقي، أو ملازمًا له، وهو في حدود السابعة عشرة من عمره، فمعنى هذا أن زيارته الثانية للبنان تمت وهو دون العشرين، وبصحبة شوقي بلا شك.

وقد دأب شوقي بعد ذلك على اصطحاب عبدالوهاب معه إلى لبنان في فصل الصيف عادة. وكثيرًا ما أحيا عبدالوهاب حفلات غناء في ربوعه.

فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن عبد الوهاب تردد مرة في إحياء حفلة غنائية كان سيقيمها في مدينة عالية عندما قرأ في إحدى الصحف المصرية نعي والده الشيخ عبدالوهاب الشعراني. قرأ عبدالوهاب الخبر قبل ساعات من موعد الحفلة وقرر في البداية الاعتذار عن الغناء. ولكن شوقي، ومعه الدكتور طه حسين الذي كان يصطاف في عالية أيضًا، أقنعاه بالغناء على أساس أن الغناء ليس فرحًا فقط، وإنما هو شجن وألم أحيانًا. فاستسلم عبدالوهاب لمشيئتهما وغنى بشجن وألم..

ويستمر عبدالوهاب في زيارة لبنان بعد رحيل شوقي، وتقوى روابطه الذاتية والفنية به، ولدرجة القول إن البحث في سيرته الفنية العامة يظل ناقصًا إن أهمل الباحث الفصل اللبناني في هذه السيرة. فإلى لبنان تردد كثيرًا في صباه، وفي كهولته، وفي شيخوخته. وظل لبنان في ذاكرته مرادفًا للجمال والفن والأدب. وفي لبنان أحب عبدالوهاب سيدة لبنانية حبًا شغله سنوات وكاد يتزوج من هذه السيدة لولا ظروف قاهرة. وقد ظل هذا الجرح العاطفي اللبناني ينزف سنوات في قلبه، ولم يختم نهائيًا، كما ذكر مرارًا في مجالس خاصة. وفي لبنان يلتقي عبدالوهاب بفيروز ويلحن لها أغاني جميلة منها قصيدة «سكن الليل» لجبران خليل جبران، وقصيدة «مر بي يا واعدًا وعدًا» لسعيد عقل. وفي لبنان يلتقي بالشاعر الكبير الأخطل الصغير، ويقيم معه نوعًا من «شراكة فنية» لها مكانة خاصة في تراثه. ولو أن الأخطل الصغير استجاب لدعوة عبدالوهاب له



ما غناه عبدالوهاب للأخطل الصغير، على ضآلته، يفسح له مكانة كريمة في سيرة الموسيقار الكبير

إلى مصر سعياً لمزيد من التعاون المشترك بينهما. لكان أثر الأخطل في سيرة عبدالوهاب لا يقل خطورة عن أثر شوقي. ولكن، لسبب ما، لم يلبِ الأخطل دعوة عبدالوهاب الملحة لزيارة القاهرة والإقامة فيها ولو إلى حين ضيفاً عليه. كما لم يلبِّ أيضاً دعوة حارة أخرى لنظم قصيدة خاصة حدد له عبدالوهاب موضوعها، أو مواصفاتها، على وجه التحديد، من أجل أن يغنيها في فيلم له، متعاوناً فيه مع أنور وجدي.

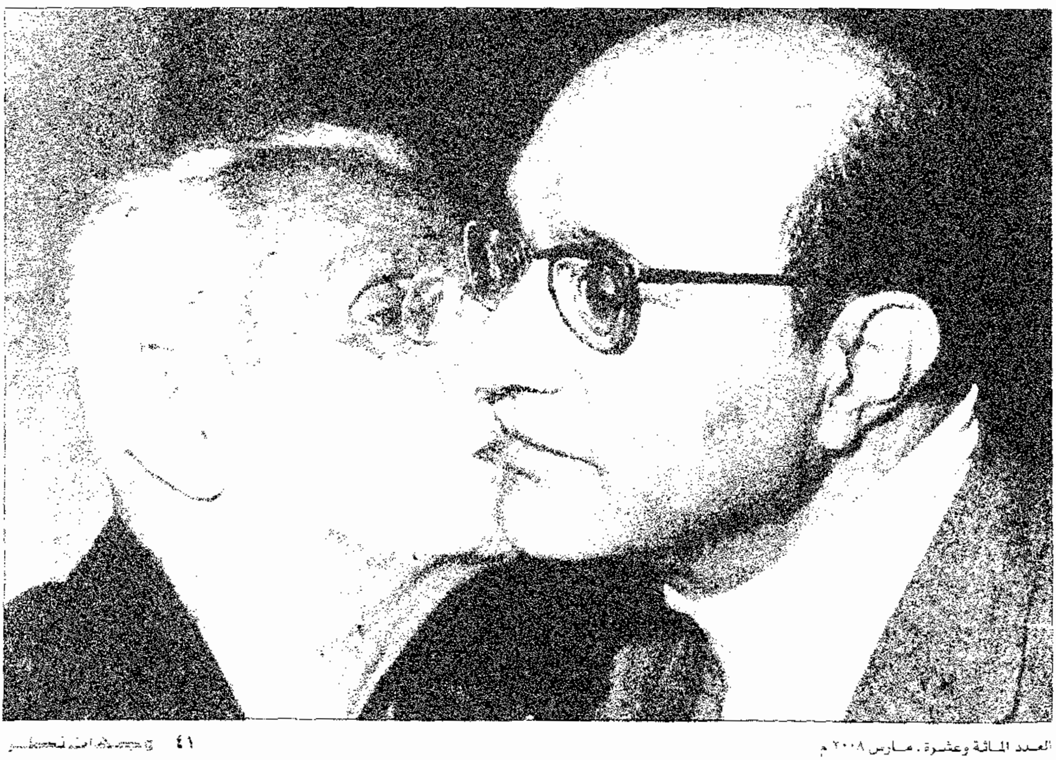
على أن ما غناه عبدالوهاب للأخطل الصغير، على ضآلته، (خمس قصائد إحداها في مدح الملك فاروق وهي شبه مجهولة) يفسح للأخطل مكانة كريمة في سيرة عبدالوهاب.

وكان عبدالوهاب سعيداً بالصلة التي ربطته بالأخطل، شخصياً وفنياً على السواء. فقد كان يعتبر الأخطل من أجود شعراء الغزل. وكان الأخطل مرتبطاً في ذهن عبدالوهاب بالكلمة الأدبية الأنيقة. وكان يقول إنه لم يبذل جهداً يذكر في تلحين القصائد التي غناها له، لأن هذه القصائد كانت ملحنة بطبيعتها. ولعل سحابة واحدة في العتب شابت علاقتهما تتعلق بقصيدة «اسقنيها بأبي انت وأمي» التي أعجبت عبدالوهاب كثيراً وطلب من الأخطل أن يغنيها، إلا أن ظرفاً ما جعل الأخطل يهبها لأسمهان. وكان عبدالوهاب ينسب ذلك إلى سحر المرأة وتأثيرها في قلوب الشعراء..

بداية معرفة عبدالوهاب بالأخطل الصغير تثير بعض الإشكالات. أو لنقل إنها بداية ملتبسة إذا اعتمدنا رواية عبدالوهاب لها، كما هي واردة في حوارد مع سعد الدين وهبة. في حين أن رواية الأخطل لهذه البداية، وهي واردة في حديث للأخطل مع مجلة الحوادث اللبنانية (عدد ٥٠٠ تاريخ ١٠ حزيران ١٩٦٦)، تبدو طبيعية أكثر، وواقعية. تعرف عبدالوهاب على الأخطل في بيت الرئيس اللبناني شارل دباس في مدينة عالية عندما أقام دباس مأدبة على شرف أمير الشعراء شوقي. أما عبدالوهاب، وكان ذلك في أواخر حياته، وكثيراً ما كانت ذاكرته تخونه، فقد روى حول هذا اللقاء رواية غريبة لا يمكن اعتماد الكثير مما ورد فيها، للأسباب التي سنشير إليها.

قال عبدالوهاب لسعدالدين وهبة، باللهجة العامية المصرية: أنا عرفت بشارة الخوري في منزل رئيس جمهورية الشام وكان اسمه محمد علي العبد وكان عامل

وعبد الوهاب»



بين الأخطل الصغير وعبد الوهاب

شراكة فنية قامت بين عبد الوهاب والأخطل الصغير أثمرت خمس أغنيات

حفلة لشوقي زى المعتاد يعنى ماهياش حاجة غريبة، ناس كتير جداً ووقت البوفيه وقفنا، كل واحد يقف فى حتته، أنا بعدت عن شوقى لأن شوقى متلقفين عليه الحكام والجماعة الكبار وبتاع وأنا واقف فى حتة، فواحد من بيت العضمة قاللى: أنا محمود العضمة، قلت أهلاً وسهلا يا فندم، قاللى:

إيه رأيك فى البيتين دول يا فلان، قلت له أفندم، قاللى:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد فى قرارة الكأس شيا
لم يكن لى غد، فأفرغت كأسى
ثم حطمتها على شفتيا

أنا يعنى أعجبت قوى بالأبيات وقلت له دى أبيات جميلة جداً بتاعة مين. قاللى بتاعة الراجل اللى واقف جنبينا. مين؟ قال لى: الأخطل الصغير، قلت له: ومين الأخطل الصغير ده، قاللى بشارة الخورى. قلت له طيب يا فندم رحت مسلم عليه أهلاً أستاذ بشارة أنا سعيد جداً بحضرتك وأرجو أنك أنت يعنى ما تقدرش تكمل لى الأبيات دى بيتين تلاتة أربعة كمان عشان نقدر نسجلها، قاللى اه بكل ممنونية. قلت له طبعاً وانت قاعد فين بتشتغل فين. قاللى قاعد فى بيروت. فين؟ كان له جريدة بيطلعها اسمها البيرق أو البرق، حاجة زى كده. وعرفته وتعرفت به بقى من يومها وبقينا على اتصال والحاجة الغريبة بأن أنا سجلتها وأنا بعيد عنه يعنى مش قريب منه. يعنى بعتها لى فى جواب كنت فى برلين بسجل أغانى الوردة البيضاء لأن ما كناش بنسجل ولو أن أنا عملت الوردة البيضاء فى باريس لكن التسجيل كان فى برلين لأنهم كانوا مشهورين أنهم بيسجلوا كويس.

* غنيت حاجة تانية لبشارة الخورى؟

. آه أمال وبعت لى فى نفس الجواب اللى بعتهولى وبعته على الأستاذ. بيضا . اللى هو كان شريكى كان صاحب شركة بيضافون واللى عملنا أنا وهوه الفيلم بعت لى معاه برضه فى نفس الجواب جفنه علم الغزل فالاتنين دول لحنتهم فى برلين وغنيت واحدة على فرقة وغنيت الثانية بالعود وهى الهوى والشباب.

هذا ما قاله عبدالوهاب لسعد الدين وهبة حرفياً. قال إنه تعرف على بشارة الخورى، أو الأخطل الصغير، فى منزل رئيس جمهورية الشام محمد على العبد خلال حفل أقامه هذا الرئيس على شرف شوقى، وأن أحد المدعوين إلى الحفل، واسمه محمود العضمة لفت نظره إلى وجود شاعر اسمه بشارة الخورى فى الحفل، وهذا الشاعر صاحب قصيدة غزلية عظيمة هى التالية:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد فى قرارة الكأس شيا
لم يكن لى غدٌ فأفرغت كأسى
ثم حطمتها على شفتيا

قال عبدالوهاب هذا الكلام لسعد الدين وهبة فى أواخر حياته، أى بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، اختلطت لديه الذكريات، وخانته قبل كل شىء ذاكرته. جرى هذا الحفل الذى حضره عبدالوهاب تكريماً لشوقى فى النصف الأول من العشرينيات من القرن الماضى. وروى عبدالوهاب ما بقى من ذاكرته عنه بعد مضى أكثر من ستين عاماً على حصوله. فمن الطبيعى أن يخطئ فى سرد وقائعه. ولكنه أخطأ خطأ فاحشاً عندما ذكر أنه حصل فى «الشام»، لا فى مدينة عالية، وفى منزل رئيس جمهورية الشام محمد على العبد، لا فى منزل رئيس جمهورية لبنان شارل دباس. ليس فى تاريخ سوريا الحديث، وفى حقبة الانتداب الفرنسى بالذات، رئيس جمهورية اسمه محمد على العبد. ولأن «الشام» فى الذهن المصرى تشمل لبنان أيضاً، فلربما اعتبر لبنان شاماً، أو بحكم الشام. ولكن إذا أمكن اعتماد هذا التفسير، فكيف يمكننا اعتماد محمد على العبد رئيساً للجمهورية، ثمة إذن «الخبطة» فى السرد، وخيانة من الذاكرة، مبعثها مرور الزمن، والسرد السريع للأحداث.

إن من يقرأ حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبدالوهاب، سيلاحظ وجود شطحات كثيرة من هذا القبيل. ولكن هذه الشطحة تفوق أية شطحة أخرى، وتعزز رأى الكثيرين فى كون هذا الحوار مليئاً بثغرات كثيرة. أجرى عبدالوهاب هذا الحوار على عجل، ولم يعد إليه بعد ذلك لمراجعته.

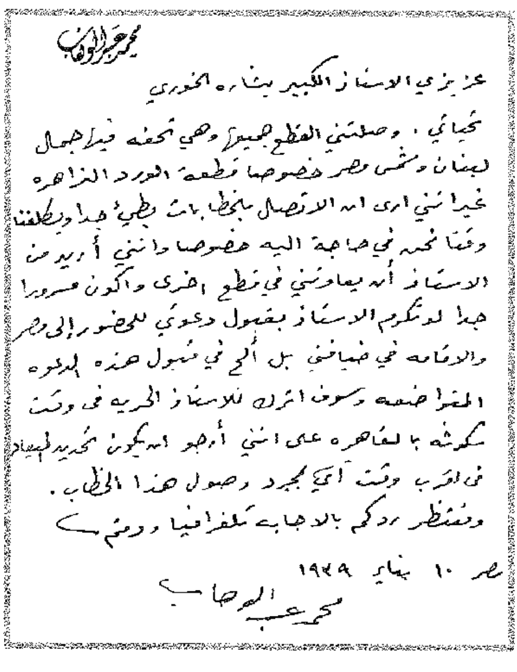
على أن الأخطل روى هذا اللقاء الأول له مع شوقى، وضمنا مع عبدالوهاب، فى حوار له مع مجلة «الحوادث» كما أشرنا.

قال إن لقاءه الأول بشوقى كان فى مدينة عالية، وفى بيت رئيس الجمهورية شارل دباس، حيث يتعرف الأخطل على عبدالوهاب، وحيث يقول شوقى لعبدالوهاب: إن الأخطل شاعر مبدع وعليه أن يلتفت إلى شعره.

من الأدلة على أن عبدالوهاب قد خانته ذاكرته فى الكثير عما رواه لسعد الدين وهبة، أنه ذكر أن قصيدة «يا شراعاً وراء دجلة يجرى» هى للأخطل الصغير، فى حين أنها لشوقى، ولكن سعد الدين وهبة يلفت نظره إلى ذلك، فيتراجع.

المهم أن شراكة فنية قامت بين عبدالوهاب والأخطل الصغير أثمرت خمس أغنيات عرف بعضها، أو أكثرها، نجاحاً منهلاً، وأنه استقر فى ذهن عبدالوهاب أن الأخطل الصغير شاعر غزل من الدرجة الأولى وأن عليه أن ينتفع بشعره أيما انتفاع. وقد بلغ من إعجابه به أنه دعاه للحضور إلى مصر والإقامة فى ضيافته، وألح عليه فى قبول هذه الدعوة على النحو الوارد فى رسالته إليه، والتى كتبها عبدالوهاب بنفسه:

عزيزى الأستاذ الكبير بشارة الخورى. تحياتى. وصلتنى القطع جميعها، وهى تحفة فيها جمال لبنان وشمس مصر، خصوصاً قطعة الورد الزاهرة. غير أننى أرى أن الاتصال بالخطابات بطىء جداً، ويكلفنا وقتاً نحن فى حاجة إليه. خصوصاً أننى أريد من الأستاذ أن يعاوننى فى قطع أخرى.



محمد عبد الوهاب

عزيزي الاستاذ الكبير بشاره الخوري

تحياتي . وصلتني القطع جميعها وهي تحفه فيها جمال لبنان وشمس مصر خصوصا قطعة الورد الزاهره غير انني ارى ان الاتصال بالخطابات بطيء جدا ويكلفنا وقتا نحن في حاجة اليه خصوصا وانني أريد من الاستاذ أن يعاونني في قطع اخرى واكون مسرورا جدا لو تكرم الاستاذ بقبول دعوتي للحضور الى مصر والاقامه في ضيافتي بل ألح في قبول هذه الدعوه المتواضعه وسوف اترك للاستاذ الحريه في وقت تشريفه بالقاهره على انني أرجو ان يكون تحديد الميعاد في اقرب وقت ممكن بمجرد وصول هذا الخطاب .

ومنتظر ردكم بالاجابه تلغرافيا ودمتم

مصر ١٠ يناير ١٩٢٩

محمد عبد الوهاب

قصيدة «جفنه علم الغزل» هي من شعر الغزل الذي برع فيه الأخطل



الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب.. صداقة وطيدة مع الأخطل الصغير، غنى له: جفنه علم الغزل. و زرد من يشتريك. الحب والجمال. الهوى والشباب، وفي الصورة حفل عشاء يجمع العملاقين

وأكون مسروراً جداً لو تكرم الأستاذ بقبول دعوتي للحضور إلى مصر، والإقامة في ضيافتي، بل ألح في قبول هذه الدعوة المتواضعة. وسوف أترك للأستاذ الحرية في وقت مكوثه بالقاهرة، على أنني أرجو أن يكون تحديد الميعاد في أقرب وقت، أي بمجرد وصول هذا الخطاب. وننتظر ردكم بالإجابة تلغرافياً ودمتم. مصر في ١٠ يناير ١٩٣٩ . محمد عبدالوهاب.

لا ندري الآن ما إذا كان الأخطل قد رد، أم لم يرد، على دعوة عبدالوهاب. قد يكون اعتذر عن عدم قدرته على تلبيتها لأكثر من سبب. لعل الأخطل فهم من رسالة عبدالوهاب أن المطرب الكبير يريد أن يوصيه على «قصائد» لمناسبات معينة، تتصل بفيلم من الأفلام أو بغير فيلم، وأن الأخطل وجد أنه غير صالح لنظم قصائد موصى عليها وغير منبثقة انبثاقاً طبيعياً عن ذاته. الشاعر عادة ينظم ما يفيض به خاطره، ولا ينظم حالات نفسية أو وجدانية يوصيه عليها آخرون. ولعل الأخطل أنف من أداء هكذا مهمة، ووجد أن بعض شعراء مصر، كأحمد رامي على سبيل المثال، يمكنهم أن يؤدوا هذه المهمة أفضل منه. ناهيك عن أن الأخطل كان شاعراً مقلا نسبياً. كما كان نظم الشعر بالنسبة إليه، نوعاً من عذاب حقيقي. لذلك فضل عدم ولوج هذه التجربة المرة، والبقاء في لبنان بعيداً عن مثل هكذا مهمات شعرية وجد أنه لا يستطيع القيام بها، أو أنها لا تليق به.

وقد يكون موقف الأخطل، بحسب التفسير الذي أعطيناه له، سليماً من الناحية الشعرية، أو الأخلاقية المحضة. شاعر لا يريد أن ينظم القصائد بأجر، وعلى مقاس هذه العاطفة، أو هذه الحالة، وسواها.

ولكن الأخطل، بنظر آخرين، فوت فرصة ذهبية كان عليه اقتناصها بلا تردد، لمصلحة شعره وذيوع شهرته. فعبدالوهاب كان مطرباً عظيماً يومها. كان مطرب الملوك ومطرب الشعوب. وقد ارتبط اسم هذا المطرب بشاعر كبير كان يجله الأخطل أيما إجلال، ويعرف علو منزلته في عالم الشعر، هو أمير الشعراء شوقي الذي قال له في حفل شارل دباس في عالية: «كنت سترثيني». قال له شوقي ذلك بعد تعرضه لحادث سير وهو في طريقه إلى بيت الرئيس، ووصوله إلى هذا البيت أصفر الوجه متعباً جراء هذا الحادث. وعندما رثى الأخطل شوقي بعد ذلك في حفل تأبينه في القاهرة بقصيدة مطلعها:

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهى أدنى منابره

ذكر هذه الواقعة في بعض أبيات القصيدة:

شوقي! أتذكر إذ عالية موعدنا
نمنا ونام دهر عن مقادره
وأنت تحت يد الأسى ورأفته
وبين كل ضعيف القلب خائره
ولابتسامتك الصفراء رجفتها
كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عكاف على صنم
في الجاهلية ماضي البطش قاهره
سألتقيه رثاء خذه من كبدي
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

لقد كان يتعين على الأخطل، بنظر هؤلاء، أن

يحذو حذو شوقي في الاهتمام بعبدالوهاب. وتزويده بالتالي بقطع من شعره يغنيها. فعل ذلك شوقي، وعاد عليه هذا الذي فعله بالخير الوفير. إن عبدالوهاب هو الذي نقل شوقي من الدواوين إلى حياة الناس. كانت قصائد شوقي قبل عبدالوهاب مبثوثة في أعماله المطبوعة التي لا يقرأها إلا قلة قليلة من المثقفين، فجعلها عبدالوهاب شائعة على كل شفة ولسان. وقد كان جديراً بالأخطل. وهو شاعر نواسي مثل شوقي، أن يسير على درب شوقي في رعاية هذا المغني العظيم المهتم بشعر الغزل، وفي التعاون المستمر معه، بعد رحيل شوقي. خاصة أن شوقي وجه الاثنين إلى هذا التعاون. ثمة خطأ تاريخي ارتكبه الأخطل قد يكون من أسبابه نشوب الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي دعا فيها عبدالوهاب إلى قيام هذا التعاون وتنظيمه. وقد يكون من هذه الأسباب تنائي الديار، وصعوبة الاتصال السريع بين الشاعر اللبناني والفنان المصري. وقد يكون في عداد هذه الأسباب أن الأخطل الصغير كان نوعاً من شجرة لبنانية أصيلة يمكن أن تصاب بالسقم إذا انتقلت من تربة إلى تربة. والمعروف أن الأخطل كان موزعاً على مطارح وأمكنة لهو وسمر لبنانية، وعلى حلقات منادمة. فهل خشي من الشعور بالوحدة في القاهرة، ومن خيانة قرينه له فيما لو أوصاد عبدالوهاب على قصيدة، وخانه عندها شيطان شعره؟

ليس فيما وصلنا من وثائق سيرة الأخطل ما يجيب عن مثل هذه التساؤلات. ولكن الأخطل، وحتى الحصول على أجوبة شافية بخصوصها، ارتكب بنظر الكثيرين، خطأ كبيراً لا يغتفر. كان عبدالوهاب مطرباً في القمة، وكان باستطاعته أن يأخذ الأخطل معه إلى هذه القمة وإلى أي مكان. كان باستطاعة الأخطل أن يتملص من «قصائد التوصية»، وأن يزود عبدالوهاب بقصائده العظيمة الأخرى، وأن تنشأ بينه وبين عبدالوهاب علاقة فنية تاريخية أقوى مما حصل عملياً بينهما. علاقة يحل فيها الأخطل في فن عبدالوهاب مكانة شوقي في هذا الفن. ولكن الأخطل، فيما يبدو، لم يعرف أن ينتفع من هذه الفرصة التي سنحت، وضاعت!

كانت الكلمة عشق محمد عبدالوهاب الثاني بعد الموسيقى. وعلى الرغم من كل القصائد العامية التي غناها، فقد كانت عينه على الدوام على القصائد المكتوبة بالفصحى. ولا شك أن هذا الاهتمام بقصائد الفصحى مرده صداقة أمير الشعراء شوقي، وبث شوقي بذرة الثقافة الرفيعة في وجدان هذا المطرب الذي لم ينل في صباه حظاً يُذكر من التعليم. ولكنه أمسى مع الوقت شخصية فنية وثقافية أيضاً. ونلمس مدى اهتمامه بشعر الفصحى من أغانيه التي غناها من هذا الشعر، وفي تنبؤه بأن هذا الشعر وحده سيكون شعر الغناء في المستقبل. وهو تنبؤ لم يصح مع الأسف.

ومن قرأ حوارات، أو ذكريات محمد عبدالوهاب، المبثوثة في مصادر مختلفة، يجده يتوقف ملياً عند شعر الأخطل الصغير، وارتباط هذا الشعر عنده بأمرين: الأول هو الغزل. فشعر الأخطل مرادف عنده لشعر الحب والعشق. والواقع أن معظم ما غناه عبدالوهاب من شعر الأخطل، ماعدا القصيدة التي يمدح فيها الأخطل الملك فاروق، هو شعر غزل بالغ الحرارة، مشحون بالمشاعر الدافئة. أما الأمر الثاني فهو أن هذا الشعر مرتبط في ذهنه بالكلمة الأدبية الأنيقة، وذات المقام الرفيع في أدب الضاد وشعرها.

وعلى ضآلة ما غناه عبدالوهاب للأخطل، وبعضه لحنه وسجله على عجل في برلين، فإن له مكانة كريمة في تاريخ عبدالوهاب الفني والغنائي. لقد اجتمع في هذا الغناء النص الجميل النبيل، واللحن البسيط القوي معاً، والصوت العظيم الذي كان في تلك الفترة في أوجه. ومتى اجتمعت هذه العناصر الثلاثة في أغنية، شقت هذه الأغنية طريقها بيسر نحو النجاح والبقاء.

أول قصيدة غناها محمد عبدالوهاب للأخطل الصغير هي قصيدة قليلة الأبيات أعجب بها عبدالوهاب أيما إعجاب وطلب من صاحبها فيما بعد أن يزيد في عدد أبياتها كي تؤلف أسطوانة كاملة، وكي لا يضطر إلى ترداد بعض أبياتها كثيراً لتؤلف مثل هذه الأسطوانة. وهذه هي أبيات القصيدة بعد إضافات الأخطل، ومع الإشارة إلى أن عبدالوهاب لم يغن البيتين الأخيرين منها:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحي فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد في قرارة الكأس شيا
لم يكن لي غد، فأفرغت كأسي
ثم حطمتها على شفتيا
أيها الخافق المعذب يا قلبي
نزحت الدموع من مقلتيا
أفحتم على إرسال دمعي
كلما لاح بارق في محيا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى
وما أول الوشاة عليا
أأنا العاشق الوحيد لتلقى
تبعات الهوى على كتفيا
اسقني من لماك أشهى من الخمر
وتم ساعة على راحتيا
أنا ماض غداً مع الفجر، فاسكب
نغمات الحنان في أذنيا..

أما القصيدة الثانية التي غناها عبدالوهاب للأخطل، فهي «الصبا والجمال»، وهي قصيدة غزلية دافئة ادعت أكثر من سيدة لبنانية أن الأخطل قالها فيها. وعندما كانت إحدى هؤلاء السيدات تسأل الأخطل عما إذا كانت هي التي ألهمته هذه القصيدة، فقد كان يجيب: «بتلبقلك كثير.. أكيد كانت من وحيك».. وقد كرر الأخطل مثل هذا القول لعشرات السيدات الجميلات اللواتي سألنه عمن ألهمه هذه القصيدة. على أن الواقع الذي رواه الأخطل الصغير مرة، وهمساً بالطبع، هو أن هذه القصيدة كانت من وحي انتخاب الآنسة (يومها) جميلة حداد (زوجة الدكتور سعد الله الخليل فيما بعد) ملكة جمال لبنان. ذات ليلة في أوتيل القاصوف في الشوير. كان الأخطل الصغير من بين من حضر تلك الليلة، وبعد إعلان النتائج كان الأخطل يسجل على ورقة في جيبه نواة هذه القصيدة التي اكتملت في اليوم التالي:


UNITED FILM Co
AKWAD, WADY & Co.

شركة الأفلام المتحدة

القاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٨

عزيزي الاستاذ الشاعر بشارة الخوري

...

بين الأخطل الصغير وعبدالوهاب

الصبا والجمال ملك يديك
أى تاج أعز من تاجيك
نصب الحسن عرشه فسألنا
من تراها له، فدل عليك
فاسكبى روحك الحنون عليه
كانسكاب السماء فى عينيك
كلما نافس الصبا بجمال
عبقرى السنا، نماه إليك
ما تغنى الهزار إلا ليلقى
زفرات الغرام فى أذنيك
سكر الروض سكرة صرعته
عند مجرى العبير من نهديك
قتل الورد نفسه حسداً منك
وألقى دماه فى وجنتيك
والفراشات ملت الزهر لما
حدثتها الأنسام عن شفتيك
رفعوا منك للجمال إلها
وانحنوا سجداً على قدميك!

البيت الأخير فى القصيدة لحقه تعديل أجراه الأخطل بعد طلب من عبدالوهاب. «رفعوا منك للجمال إلها» مسألة فوق قدرة عبدالوهاب على تحمل مسئوليتها فى مجتمع تقليدى محافظ. أرسل عبدالوهاب إلى الأخطل الرسالة التالية التى يشرح فيها الوضع:

عزيزى الأستاذ الكبير..

تحياتى، وصلتنى جميع القطع وأشكرك كل الشكر وقد أعجبت بقطعة (الصبا والجمال) وابتدأت فعلاً فى تلحينها غير أننى أرى أن تغيير البيت الأخير (رفعوا منك للجمال إلها - فسجدنا له...) ضماناً لموافقة وزارة الداخلية المصرية على القطعة لأن إدارة المطبوعات هنا تحت تأثير الهيئة الدينية ولا يمكن أن توافق على أى شىء به كلمة إله أو سجدنا ويكون هذا لغير الله. وأما القطعتان الثانيتان فللآن لم أكون فيهما رأياً قاطعاً وسأرسل لك برأيى فيهما، ويجدر بى أن أقول بأنه يهمنى أن تكون قصيدة (الصبا والجمال) لم تعطها لأحد سواى، كما أرجو ألا تعطيها حتى يكون لها الرونق المطلوب ودمتم..

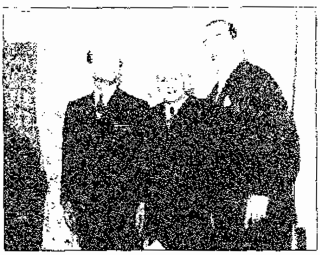
١٩٣٨م

محمد عبدالوهاب

فى هذه الرسالة نلمس مدى اهتمام عبدالوهاب بهذه القطعة، وطلبه من الأخطل ألا يعطيها لأحد سواه «حتى يكون لها الرونق المطلوب»، أى أن هذه القصيدة إذا غناها عبدالوهاب، فرونقها أكيد، فى حين أنها إذا عرفت طريقها إلى سواه، فقد لا يكون لها الرونق المطلوب! والواقع أن عبدالوهاب استخدم آلة البيانو فى هذه الأغنية استخداماً عبقرياً فعلاً، وكأن هذه الآلة أُعدت لها.

وليس فى رسالة عبدالوهاب أية إشارة إلى عنوان القطعتين الأخريين اللتين قال إن الأخطل بعث بهما إليه.

أما قصيدة الأخطل الثالثة التى غناها عبدالوهاب فكانت «جفنه علم الغزل»، وقد غناها عبدالوهاب فى فيلم «الوردة البيضاء» الذى اضطلع بدور



الأخطل الصغير مع الموسيقار محمد عبدالوهاب واللواء عبدالحميد غالب السفير المصرى الأسبق فى بيروت

البطولة فيه سنة ١٩٣٤، أى بعد سنة من رحيل شوقى. وفى ذكرياته يقول عبدالوهاب إنه شارك شخصياً فى العزف لأن فرقته الموسيقية كانت فى مصر فى حين أنه سجل الأغنية فى برلين، وقرر إدخالها فى الفيلم. كما روى عبدالوهاب طرائف عن استعانته ببعض التقنيين الألمان لمساعدته فى أداء ما يسمى بـ «الشخشيخة».. شخشيخة ولكن ألمانى، كما يقول: «جبت الراجل اللى هو بيضرب الشخشيخة دى، أو الماراكازا. ولقيت صعوبة عشان يفهم بالألمانى أنا عاوز إيه»..

وقصيدة «جفنه علم الغزل» هى من شعر الغزل الذى برع فيه الأخطل، والذى يعبر تماماً عن أجوائه النواسية التى اشتهر بها شعره كما اشتهرت بها سيرته الشخصية:

جفنه علَم الغزل
ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا
فى جحيم من القبل
ونشرنا ولم نزل
حلم الحب والشباب
حلم الزهر والندى
حلم اللهو والشراب
هاتها فى يد الرضى
جرعة تبعث الجنون
كيف يشكو من الظما
من له هذه العيون
يا حبيبى، أكلما
ضمنا للهوى مكان
أشعلوا النار حولنا
ففدونا لها دخان
قل لمن لام فى الهوى
هكذا الحسن قد أمر
إن عشقنا فعذرنا
أن فى وجهنا نظر!

ونترك لعبد الوهاب أن يحدثنا عن أغنية «يا ورد مين يشتريك» التى بعضها عامى، وبعضها الآخر فصيح:

● يا ورد مين يشتريك دى حاجة غريبة إن إحنا كنا فاهمين إن إحنا يعنى فتحنا عكا والظاهر إن إحنا مافتحناش عكا ولا حاجة، لأننى جيت قلت له يا أستاذ بشارة ما تيجى نعمل حاجة جديدة. قال زى إيه؟ قلت له يعنى شوف شوقى كان بيقول مثلاً يعنى فى الليل لما خلى إلا من الباكى والدوح على النوح. الدوح كلمة عربية يعنى ما تستعملش.. للصارخ برضه ده كان يدخل كلمات عربية فى أسلوبه الدارج. فلما نيجى إحنا نعمل حاجة يعنى بقى إيه عربية. قال لى طيب ما نعملها عربية خالص ودارجة خالص. قلت له يبقى عال ويبقى فتح جديد فدى يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك التى فيها شقت جيوب الغزل وانبح صوت القبل على الشفاه التى تشرب من مهجتى.

يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك

وأغلب الكوبليهات تجد فيها عربية فصيحة وجنبها عامية. قلنا على أساس إنه يعنى إنه إيه يمشى قاه ما مشيش ولا حاجة فضل بس فى الأغنية بتاعت يا ورد مين يشتريك يعنى لا أنا عدتها ولا هو عادها ولا حد تانى عادها.

أما الأغنية الخامسة التى تعاون فيها الأخطل وعبدالوهاب فقد طواها النسيان تماماً تقريباً. إنها قصيدة كتبها الأخطل فى الملك فاروق، وغناها عبدالوهاب على العود، ولم تذع حتى فى الراديو، ولم يأت على ذكرها فيما بعد لا المطرب ولا الشاعر.

وقد كان طبيعياً أن يطويها النسيان طياً نهائياً بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وسقوط الملكية فى مصر، وإهمالها من قبل الدارسين.

وتبدأ القصيدة بالبيت التالى:

أنزلت آية الهدى فى جبينك
فإذا الشرق كله طور سينك

ويبدو أن مثل هذه المبالغة من الأخطل فى المطلع، وفيه يضع الملك فاروق فى مصاف الأنبياء الذين تنزل عليهم الآيات، قد أجهز على القصيدة قبل أن تولد، أو عشية ولادتها.. وعلى ضوء ذلك، قد لا يكون عبدالوهاب على خطأ عندما طلب من الأخطل أن يزور مصر وأن ينزل ضيفاً عليه فيها.. فكتابة الشعر عن قرب، غير كتابته عن بعد. ولو أن الأخطل أسمع عبدالوهاب هذه القصيدة شخصياً، لربما غير فيها وبدل. وبالتالى أبصرت النور كأية قصيدة أخرى. فعلى الرغم من أن «التوصية» على القصائد مسبقاً، تتضمن قدراً من الإحراج للشاعر، وحتى اعتداء على كرامته وكرامة الشعر فى آن، فإن فى هذه «التوصية» واقعية ما من شأنها أن تسهل مرور القصيدة. والمغنون فى نهاية المطاف أدرى بما يصلح للغناء، وبما لا يصلح له، مهما وجه إليهم اللائمون من لوم وتوبيخ وملاحظات!

وتظل صفحة الأخطل الصغير ومحمد عبدالوهاب إحدى أجمل صفحات سيرتهما الفنية والذاتية على حد سواء. ※

حرب أكتوبر
وجهة نظر غربية.. و«شخصية»

أليستير هورن

يشرفني ويسعدني بأن أكون هنا هذه الليلة ولكن مما يؤسفني أن الأستاذ هيكل ليس معنا. فوجوده كان سيضيف حرارة وحيوية للمناقشة ولا أظن أننا كنا سنختلف كثيرا معه. هناك الكثير من المواضيع الجديدة التى كنت أود الحديث عنها. ولكن إذا سمحتم لى أريد أن أبدى سعادتى وحماسى فيما رأيته وسمعته فى اليومين السابقين من الصحفيين الشباب والقريبين من سن الشباب وهم جميعا هنا معنا فى هذه الغرفة. إننى مندهش من مدى أسئلتهم وتركيزهم فى هذا الموضوع. فى الواقع لا أظن أننى أستطيع أن أحظى بنفس هذه التجربة الآن فى وطنى حيث أعتقد أن مستوى الصحافة هناك عال جدا. إنى أهنئهم على ذلك.

فى الواقع أنا متوتر جداً بخصوص هذه المحاضرة التى كانت فكرة الأستاذ هيكل. كنت أود أن تكون مجموعة نقاش مصغرة. ولكنى وجدت نفسى هنا فى أرض المعركة! ولهذا أظن أنه يجب على أن أقدم بعض التفسيرات قبل أن أبدأ. أولاً إننى سأقدم وجهة نظر غربية وشخصية لحرب أكتوبر وإدارة الأزمة حينها والتى سببت الكثير من البلبلة أنتم أدرى بها منى. ثانياً: إن الكتاب الذى أكتبه عن كيسنجر. هو كتاب غير مرتبط به تماما لدرجة أنه وعد بتسليمى شهادة رسمية محررة يتعهد فيها بأنه لن يتدخل ولن يقرأ الكتاب حتى يتم نشره. وهذا شىء مريح ومشجع وبمعرفتى بكيسنجر فهذا ليس بالغريب منه. كما أحب أن أضيف أننى لم أنته من كتابته بعد.

ثالثاً: أريد أن أقدم لنفسى عذرا مقبولا وذلك من المعروف أن الأرشيف الخاص بكيسنجر وصل وزنه إلى ثلاثة وثلاثين طناً من الأوراق. أغلب رجال الدولة يقيسون أرشيفهم بالأمتار ولكن أرشيفه يقاس بالأطنان! وهو بلا شك أكثر رجال السياسة فى العالم الذين



تمت الكتابة عنهم وتسجيل نشاطهم، وهذا مما لا شك فيه وخصوصاً بما قام به فى مأساة حرب السادس من أكتوبر. فى ذلك الوقت كانت فضيحة ووترجيت فى واشنطن، ولابد أنكم تتذكرون الحديث الذى جرى عن أشرطة التسجيل التى تتحدث عما قام به نيكسون وما لم يقم به. أما كيسنجر فإنه يمتلك شرائطه. شخصيا لا أعتقد أن أى رجل دولة آخر وخصوصاً فى الغرب فى أيامنا هذه ممكن أن يحتفظ بمثل هذه الشرائط التسجيلية بما فيها من مخاطر واضحة.

هناك أيضا عدد كبير جداً من المجلدات الخاصة بمذكراته تستحق القراءة. وأخيراً ضمن المصادر العديدة التى استخدمها ما يسمى التليكوم، وهى محادثات مسجلة كان قد أجراها مع العديد من الأشخاص. والمثير للاهتمام فى هذه التسجيلات ليس بالضرورة بما يقال ولكن بنبرة الصوت التى يتحدث بها. مثلا لو قارنا نبرة الصوت فى المحادثات بين جولدا مائير وكيسنجر، بالرغم من مناداتها له «بالأمير الساحر» وهو باستخدامه لكلمة الدلع «ملكة جمال إسرائيل»، الذى لم يكن سعيدا بذلك! بنبرة الصوت فى المحادثات الودية بينه وبين الرئيس السادات أو مع سفير الاتحاد السوفيتى فى واشنطن الذى كان صديقا شخصيا حميما له نستطيع أن نفهم الفرق.

على النقيض من ذلك، كان السفير البريطانى يمر بوقت عصيب مع الأمريكان. لا أعتقد أن العلاقات الخاصة كان يمكن أن تكون بنفس البرود الذى كان بين تيد هيث رئيس الوزراء البريطانى ونيكسون. وهذا يبدو فى المحادثات المسجلة بوضوح. وبالمقارنة كانت محادثات كيسنجر مع السفير البريطانى فى واشنطن تختلف كثيرا عن المحادثات الودية والدافئة جداً مع سفير الاتحاد السوفيتى بالرغم من أن الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت كان العدو رقم واحد لأمريكا. هذا عاملاً هاماً.

ولنبدأ بإعطائكم خلفية عامة أنه من الصعب على الشعوب التى تعيش خارج الغرب أن تستوعب الأهمية القصوى فى سياسة أى دولة هو الخوف فى ذلك الوقت من الحرب الباردة ومن الاتحاد السوفيتى الذى انهار الآن وبالتالى أصبح من السهل على الشعوب نسيان ذلك الخوف. ولكن ذلك الخوف فى ذلك الوقت كان حقيقياً.

وفى ذلك الوقت أيضا بالنسبة لأمريكا: كانت لاتزال الحرب البشعة فى فيتنام قائمة، وكان كيسنجر قد وقع على اتفاقية السلام منذ فترة وجيزة مع فيتنام الشمالية التى بدأت تنتهكها بانتظام منذ شهر أكتوبر. وفى أكتوبر

فى أبريل ١٩٧٣ ذهب صحفى أمريكى - بلجيكى لامع اسمه أرنولد بولجراف إلى أمريكا وكان مقربا من السادات وكانت معه تفاصيل خطة مصرية للهجوم على سيناء. وكان ذلك جزءا من خطة السادات

محاضرة ألقاها المؤرخ البريطانى أليستير هورن يوم الأحد ١٧ فبراير الماضى بالقاعة الشرقية بالمبنى الرئيسى للجامعة الأمريكية بالقاهرة بدعوة من مؤسسة هيكل للصحافة العربية.

أيضاً كانت قضية ووترجيت لاتزال متأججة وبدأت تؤثر على الرئيس نيكسون وتحد من قدراته خوفاً من تقديمه للمحاكمة. وكما نذكر كان نيكسون أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية الذي يستقيل من منصبه خوفاً من المحاكمة.

مرت على نيكسون أوقات أثناء الأيام الحرجة لحرب أكتوبر لم يكن فيها قادراً على التفكير السليم وكان كيسنجر هو المسئول الفعلي عن السياسة الغربية والسياسة العالمية. كان نيكسون رجلاً ذكياً جداً ولكنه كان مليئاً بالعيوب. وكان نيكسون مناهضاً للسامية ومن المثير للعجب أنه عين وزيراً للخارجية يهودياً ولد في ألمانيا من أبوين يهوديين. ولم يكن ذلك بالسهل لكليهما. وكان نيكسون يعتبر أن يهود أمريكا قد أعطوه المبرر لأن يكون أشد على إسرائيل من أي رئيس أمريكي آخر كما كتب في مذكراته لأنهم لم يصوتوا له وبالتالي فهو ليس مديناً لهم بشيء. وبالتالي نظرياً كان يستطيع أن يتبنى خطاً أكثر تشدداً مع إسرائيل دون أن يخاف من هجوم اللوبي الصهيوني القوي في الولايات المتحدة.

ولنعود مرة أخرى للحرب، كانت خطة السادات من وجهة نظري واحدة من أذكى الخطط الحربية في التاريخ لأنها بنيت على خطة خداع بارعة، وكما قال الفيلسوف الصيني صون صو منذ قرون طويلة «إن فن الحرب هو الخديعة». ومن المدهش أنه بالرغم من جميع عيون المخابرات المركزية على الصحراء الشرقيه استطاع السادات أن يبدأ هجومه مباغتاً المخابرات الإسرائيلية والمخابرات المركزية الأمريكية وكل الجواسيس المنثورة في السماء.

علق مرة بسمارك أن الأجيال التي تقوم بالإنجازات المدهشة يتبعها أجيال تقضي على هذه الإنجازات المدهشة. وفي الحقيقة هذه المقولة تنطبق على الموقف الذي ساد الفترة التي سبقت أكتوبر ١٩٧٣. حيث قامت إسرائيل بعد نجاحها الباهر في حرب «الأيام الستة» في ١٩٦٧ بالاسترخاء معتمدة على انتصاراتها بفرض أنه ليس هناك ما يدعو للخوف من أن تشكل الدول العربية مجتمعة تهديداً حقيقياً على أمنها. فالمشكلة أن الإسرائيليين كانوا ينظرون إلى السادات ومعهم المخابرات الغربية بعيونهم وليس بعيون السادات نفسه، ولم يتخيلوا أن هدف السادات يمكن أن يكون مجرد حرب محدودة مثل حروب القرن الثامن عشر وليس كالحروب المريرة التي عاشها القرن العشرون.

وبحلول عام ١٩٧٣ لم يكن الجو السائد في إسرائيل قد تغير كثيراً منذ ١٩٦٧، وكان ذلك عاملاً مكيفاً لسياسة الولايات المتحدة. لن تتحرك الولايات المتحدة إلا إذا شعرت أن إسرائيل قد شعرت بالتهديد. ولكن كانت واشنطن في ذلك الوقت مشغولة جداً بما كان يجري من أحداث في أنحاء أخرى من العالم، ليس فقط قضية ووترجيت وفيتنام ولكن كانت هناك المحاولات الجارية لتحقيق سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتي وعلاقتها الجديدة مع الصين، جميع هذه القضايا كانت مهمة.

في يناير ١٩٦٩ كان نيكسون وهو شخصية مميزة يستطيع أن يرى أشياء كثيرة لم يكن كيسنجر قادراً عليها. حذر نيكسون في عام١٩٦٩ بأن انفجاراً قريباً سيحدث في الشرق الأوسط، ولكن للأسف لم يتم فعل شيء يوقف هذا الانفجار بسبب عدد من الأحداث التي شغلت الساسة الغربيين. وفي عام ١٩٧٠ قام وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكي بمحاولة عمل مجموعة اتفاقيات جديدة بين الدول العربية وإسرائيل ولكنها فشلت بسبب رفض الجانبين. أنا كبريطاني أجد العمل السياسي الأمريكي يجري بطريقة غريبة حيث تجد نظام الخطين المتوازيين «تجد وزارة الخارجية تقوم بعملها حسب خطتها. ثم تجد مجلس الأمن القومي ينفذ خطة أخرى خاصة به. ولكل جهة هدف خاص بها. وكان ذلك في رأيي سيئاً جداً أثناء سنوات نيكسون - كيسنجر.

كان هنالك عدم ثقة في وزارة الخارجية من قبل الجهتين، وبالتالي ترك كيسنجر القيام بما يريد وكان في ذلك الوقت رئيساً لمجلس الأمن القومي، ثم أصبح بعد ذلك وزيراً للخارجية أي قبل اندلاع الحرب بأسبوعين، وبالتالي احتفظ بالموقعين الهامين.

في عام ١٩٧٢ حدث شيء هام جداً، فقد قام السادات بطرد ٢٥٠٠٠ من الخبراء الروس المتواجدين في مصر. وكان يجب على كثيرين أن يلاحظوا ذلك ويفكروا لماذا حدث؟ وما هو المغزى من ذلك؟ كان الشعور السائد في الولايات المتحدة عامة أن ذلك مؤشر جيد بأن يطرد السوفييت من الشرق الأوسط. وفي أوائل عام ١٩٧٣ ذهب حافظ إسماعيل إلى الولايات المتحدة وحاول مرتين العمل على الخط الخاص بكيسنجر بتحذير واشنطن من أن المشاكل بدأت تتحرك. لكن كيسنجر لم يشعر بأي خطر ملح وذلك بسبب المشاكل العديدة التي كانت تدور في رأسه.

وفي أبريل ١٩٧٣ ذهب صحفي أمريكي - بلجيكي لامع اسمه أرنولد بولجراف إلى أمريكا وكان مقرباً من السادات وكانت معه تفاصيل خطة مصرية للهجوم على سيناء، وكان ذلك جزءاً من خطة السادات، لأنه أفصح لبولجراف عن نواياه ولكن في نفس الوقت استطاع أن يضلله ويضلل أيضاً الغرب عن التاريخ الحقيقي للهجوم. ولم يحدث شيء في أبريل. واعتبر ما حدث هو مجرد مناورات وتهديدات. وغضبت إسرائيل لأن ذلك كلفها عدة ملايين من الدولارات لتحشد جنودها على كافة الجبهات. وعندما انتهى الذعر في أبريل، كان الرأي أنه إذا حدث ذلك مرة أخرى، فلن تكون إلا محاولة للتخويف فقط لا غير، ولا يجوز أن تؤخذ بعين الاعتبار. وكان هذا هو الموقف قبل بداية شهر أكتوبر. وجاء تحذير آخر لواشنطن من قبل الروس عندما قام برجينيف، السكرتير العام للحزب الشيوعي، بزيارة رسمية لأمريكا في يونيو ١٩٧٣ وهناك أعطى نيكسون تحذيراً واضحاً بأنه سيكون هناك انفجار في الشرق الأوسط.

تم تعيين كيسنجر وزيراً للخارجية في ٢٢ سبتمبر، وكان ذلك قبل بدء حرب أكتوبر بأسبوعين. ويمكننا أن نتخيل كم كانت أفكاره متوشة في ذلك الوقت. وفي تمام الساعة السادسة من صباح السادس من أكتوبر، كان كيسنجر نائماً في نيويورك في فندق الوالدورف أستوريا بعد أن أعد الكلمة التي سيلقيها في الأمم المتحدة عن السلام. أيقظه أحد معاونيه ليخبره أنه يبدو أن سوريا ومصر على وشك الهجوم على إسرائيل. وسأله كيسنجر إذا كان واثقاً مما يقول. رد عليه سيسكو أحد مستشاريه قائلاً: إنه غير واثق وربما يكون كيسنجر قادراً على فهم الموقف.

وبالطبع أصبح ذلك اليوم مليئاً بالنشاطات المكثفة. وكان كيسنجر يحب مثل تلك النشاطات. ولكن ما كان يثير الدهشة أكثر هو أن أول مكالمة قام بها كيسنجر لم تكن للرئيس أو إسرائيل أو مصر. بل كانت لسفير الاتحاد السوفيتي أناتولي دوبرينين وكانت هناك كما سبق وأفصحت، علاقة صداقة ظريفة بينهما. ويبدو أن السفير السوفيتي كان نائماً عندما طلبه كيسنجر وبالتالي لم يكن يستوعب ما كان يقوله كيسنجر. فكان يردد نفس السؤال لعدة مرات وهنا رد كيسنجر قائلاً: «لو ستستمر بهذه الطريقة ستندلع الحرب قبل أن تفهم رسالتي». في ذلك اليوم اتصل كيسنجر بدوبرينين خمس مرات وعلى ما أظن لم تكن أولوياته للحرب التي سوف تقوم في الشرق الأوسط ولكن للأمن النووي للقوتين العظميين.

وبمرور الوقت في ذلك اليوم أصبح واضحاً لكيسنجر أن إسرائيل لم تكن المعتدية وفاجأه ذلك كثيراً. لأن إسرائيل هي التي بدأت الحرب في ٦٧. وبعد أن تحدث مع دوبرينين اتصل بالسفير الإسرائيلي دينتز في واشنطن الذي أكد لكيسنجر أن إسرائيل حقيقة لم تكن هي المعتدية هذه المرة ولكن الذي هاجمها هم المصريون والسوريون.

ولم يتحدث كيسنجر مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون إلا في منتصف النهار حيث كان مختبئاً في فلوريدا بعيداً عن كل العواصف في واشنطن وفضيحة ووترجيت. ولكنه قال شيئاً واحداً يبين قدرته على رؤية الأشياء لكيسنجر بألا يأخذ جانب أحد الأطراف لأنه لا أحد يعلم من يبدأ الهجوم هناك.

ثم بدأ كيسنجر في مفاوضات لوقف إطلاق النار داخل الأمم المتحدة. وكان من الصعب أن يجعل مجلس الأمن يوافق على ذلك. كانت الأطراف عديدة، إنك تتعامل ليس فقط مع الدول العربية وإسرائيل، ولكن كان هناك البريطانيون والفرنسيون وجميع أعضاء مجلس الأمن ولم يكن الجميع متوافقاً مع موقف وطلبات الولايات المتحدة. كانت المشكلة معقدة جداً ولم تكن أمريكا والاتحاد السوفيتي يريدان تطبيق وقف إطلاق النار لأنه قد يحرج زبائنهم من الدول: مصر بالنسبة للسوفييت وإسرائيل للأمريكان. وبالتالي مر يومان دون الوصول إلى قرار مع كل جانب يناضل من أجل موقف مشرف.

وفي مساء ٦ أكتوبر اتصل كيسنجر بالسفير البريطاني لورد كرومر، وأوصل له رسالة هادئة يحذر فيها السفير البريطاني من أخذ موقف مخالف للولايات المتحدة في هذه القضية بالذات، معبراً أن ذلك في مصلحة الجميع بما فيهم أوروبا الغربية، محذراً بألا يخرج عن خط أمريكا، مضيفاً بأنهم جميعاً في حاجة لسياسة مشتركة.

فيما بعد حذر كيسنجر دوبرينين لأنه لم يكن متأكداً تماماً في ذلك الوقت أن السفير السوفيتي ليس متورطاً في عمل مزعج أو مؤذ، حذره قائلاً: إن مباحثاتنا بخصوص الوفاق الدولي معرضة للخطر، لا تجعل مشاكل الشرق الأوسط تفسد كل شيء. وفي نهاية ذلك اليوم، كان من الواضح لكيسنجر أن سياسته للوفاق الدولي قد انهارت بسبب حرب انشغل بها أحياناً ولكنه لم يتوقعها.

وفي اليوم التالي، السابع من أكتوبر، بدأت أمريكا في استلام توسلات ملحة من جولدا مائير في إسرائيل قائلة: إن

قادة الجيش قد أخبروها أن الأمور تسير بشكل أسوأ بكثير مما كان متوقعاً. عند استلام هذه المعلومات طلب من هيج أن يخبر نيكسون بأن إسرائيل قد خسرت ٦٠ قتيلاً و١١٠ جرحى حتى الآن. وأضاف كيسنجر أنك يجب أن تضرب هذا الرقم بمائة حتى تحصل على الرقم الذى يوازى المصابين فى أمريكا. إذا خسرنا ٦٠٠٠ قتيل و١٥٠٠٠ جريح فى يوم واحد لن يكون ذلك بسيطا.

ماذا كان يدور فى ذلك الوقت فى أرض المعركة؟ كان السوريون قد قاموا بهجوم كثيف على مرتفعات الجولان حتى وصلوا إلى نقطة دفاعية خطيرة للإسرائيليين، وبدا للإسرائيليين أن التهديد الرئيسى قادم من هناك. وكانت مصر قد عبرت قناة السويس بفاعلية شديدة باستخدام خراطيم مياه تم استيرادها من ألمانيا لإزالة الدفاعات الإسرائيلية واستطاعوا بالفعل أن يهدموا ويحتلوا رقعة كبيرة من خط بارليف الإسرائيلى الذى كان يشكل خط الدفاع الإسرائيلى لسيناء.

كانت الحراسة الإسرائيلية فى ذلك الوقت خفيفة جداً. وهنا أعود لمقولة بسمارك بأن ما تنجزه أجيال تأتى بعدها أجيال تضيعه. وعلق السادات بعد الحرب بأن إسرائيل كانت تهزأ من نشاطنا الإنشائى قائلة: إن المصريين كانوا دائما يحبون بناء الأهرامات وفى الواقع إن الأهرامات التى شيدناها على خط قناة السويس كانت مؤثرة للغاية.

لنعد للسوفييت. ماذا كانوا يفعلون فى ذلك الوقت؟ لدينا موقف معقد فى موسكو. إن ميزة أن تكون قد عشت فى زمن الحرب الباردة يمكننا الآن أن نكون فكرة عما كان يدور فى الجانب الآخر. إن أغلب ما نشر عن تلك الفترة كان من وجهة نظر السوفييت، ونجد أنه كان هناك ارتباك شديد فى المكتب السياسى السوفيتى. لم تكن تلك الأيام مثل أيام ستالين أو خوروشوف. كما لم يكن بريجنيف رجلاً عجوزاً مخرفاً. ولكنه كان كبيراً واعياً استطاع أن يأخذ وقته فى التفكير للوصول إلى قرار. وكان باقى أعضاء المكتب السياسى مترددين فى إبداء رأيهم حتى يعرفوا أى طريق سيسلك بريجنيف؟ أين سيقفز هذا الدب؟ لقد أذهلتهم المفاجأة ولم يكونوا قادرين على التصرف السريع تماماً مثل الأمريكان الذين أذهلهم الهجوم المصرى. لقد أخذوا وقتهم حتى استردوا توازنهم.

كما سبق وقلت، كان يوم ٧ أكتوبر يوم التأجيل فى الأمم المتحدة وبالتالى لم يصدر أى قرار بخصوص وقف إطلاق النار. ولكن لم يكن الحال هكذا فى صفوف المسئولين الإسرائيليين فى تل أبيب. كانت هناك حالة ذعر كبيرة لدرجة أنهم بدأوا الحديث عن استخدام السلاح النووى الإسرائيلى بالرغم من نفى كيسنجر وقوله إنه لم يعلم بذلك بتاتاً. كان كيسنجر طوال ذلك الوقت مقتنعاً تماماً بأن إسرائيل فى النهاية سوف تكسب الحرب. واستمر فى رأيه هذا طوال وقت الحرب. ولكنه تأثر مثل الجميع فى واشنطن بالخسائر الإسرائيلية وأحداث اليوم الأول. كما كان عليه أن يفعل شيئاً بخصوص المكالمات الملحة من إسرائيل لإمدادهم بالأسلحة.

طوال ذلك الوقت كان كيسنجر كما هو متوقع تحت ضغط عنيف من اللوبى الصهيونى ومن الشيوخ الصهاينة فى الكونجرس فى واشنطن. ومما أثار الدهشة، يقول كيسنجر يوم ٧ أكتوبر إننا يجب أن نكون فى جانب الإسرائيليين لكى يقبلوا أن يفقدوا شيئا بعد الحرب. ويستمر قائلا: لذلك يجب أن نمدهم بالمعدات لأنه متأكد تماماً بأنه لو لعب الأمريكان دورا قاسيا ستكون هذه المرة الأخيرة لإذعان الإسرائيليين للأمريكان، لأننا لو نكمناهم على أسنانهم لن يكون لديهم شىء يمكن أن يخشوه فى المستقبل. الذى يتحدث هنا هو أستاذ الدبلوماسية فى إدارة الأزمات. هو يفكر مرة أخرى فى اللعبة الكبيرة التى يلعبها الأمريكان والسوفييت. وبدأ الضغط الإسرائيلى يتزايد بشدة وأخيرا أرسلت أمريكا الأسلحة المطلوبة بعد أن أيقنت أن السوفييت قد أعادوا تسليح سوريا بالذات ثم بعد ذلك مصر، بإرسال ٣٠ طائرة يوميا مليئة بالأسلحة والذخائر، وتزايدت الشحنات من الولايات المتحدة. كانت فى ذلك الوقت منافسة خطيرة: من سيرسل أسلحة أكثر لمن؟

وفجأة حدث تغيير مهم فى الموقف: (لهذا أنا آسف لعدم وجود الأستاذ هيكل معنا اليوم). يوم ٧ أو ٨ أكتوبر استلم كيسنجر عن طريق قنواته الخلفية (حافظ إسماعيل)، رسالة مفاجئة من السادات حيث لم تكن هناك فى ذلك الوقت علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر. طلب السادات دعوة الولايات المتحدة لتكون المسئولة عن عملية السلام. ويصف كيسنجر هذا الطلب بأنه خارق للعادة، وذلك لأنهم كانوا فى الأمم المتحدة على وشك أن يناشدوا السادات بسحب قواته من المناطق التى احتلها الجيش المصرى.

ويعترف كيسنجر فى مذكراته بأنه لم يأخذ السادات على محمل الجد فى ذلك الوقت، لأنه كان قد هدد فى العديد من الأوقات بشن الحرب ولم يفعل. وهنا يأتى كيسنجر بتقييم للموقف قائلا: «فى تقديرى سوف يعبر السادات قناة السويس، ثم يبقى هناك ولا أظن أنه سوف يخترق أى مناطق أخرى». وهنا كنت مهتما جدا لمعرفة إذا كانت هذه المعلومة موجودة فى الرسائل المتبادلة التى كنتم تتحدثون عنها مع هيكل. بالتأكيد لم أجد أى شىء إضافى فى أرشيف كيسنجر.

فى يوم ٨ أكتوبر، كان نيكسون فى إحدى لحظاته الشفافة، فقد قال لكيسنجر أنه لا يجب أن ننسى ونترك هذا الموضوع معلقاً لمدة أربع سنوات أخرى ونكون فى خلاف مع العالم العربى. لن نفعل ذلك مرة أخرى. ويستمر قائلا: ولكن على الجانب الآخر إذا كسبت إسرائيل الحرب كما فعلت فى ٦٧ لا يجب أن نترك الحال يستمر كما هو فى الوضع الراهن. لن نفعل ذلك مرة أخرى. إذن فهو كان يفكر فى اتفاقية أشمل وأوسع بكثير بعد وقف إطلاق النار. كما تنبأ أيضا قائلاً: إننا مازلنا فى ٨ أكتوبر وأن الإسرائيليين سوف يوقفون المصريين ويقطعون الجسر الذى يربط المصريين.

ولكن إسرائيل بقيت فى الحالة الحرجة والصعبة طوال ٩ و١٠ أكتوبر، واستمرت فى الإلحاح فى طلب مؤن وأسلحة أكثر من الولايات المتحدة. وكان طوال ذلك الوقت يقوم السفير الإسرائيلى دينتز بكل حماس ونشاط بإثارة أعضاء الكونجرس الأمريكى الذى ولاؤه الأكبر للوبى الصهيونى. لدرجة أن كيسنجر فى أحد الأوقات أثناء حديثه مع عضو كونجرس فقد أعصابه على دينتز قائلا: «إذا كنت ستستمر بالضغط على هكذا لن أستمع إليك بعد اليوم وسوف أعمل على وقف إرسال الأسلحة إلى إسرائيل»، وكان ذلك تهديدا خطيرا.

وفى نهاية يوم ١٠ أكتوبر بدأ كيسنجر يرى إمكانية ضوء جديد بالرغم من أن كل ما كان يدور كان سيئا لإسرائيل. وأكرر ما قال: «هناك الآن فرصة لبدء عملية سلام بإقناع الدول العربية بأن الاتحاد السوفيتى يمكنه أن يثير حربا ولكنه لن يستطيع أن يحقق تقدما دبلوماسيا. لذلك لا غنى عن الدبلوماسية الأمريكية. إن التقدم الدبلوماسى يحتاج إلى نجاح عسكرى، ولكن ليس بالشكل الذى يوحد العرب ضد أمريكا». كان فى الواقع يفكر تماما مثل السادات فى نصر من نوع انتصارات القرن الثامن عشر التى يمكن أن يفهمها المؤرخ متيرنخ، وليست حرباً مثل حروب القرن العشرين.

بحلول ١٣ أكتوبر فجأة تغيرت الأمور فى ميدان الحرب، تماما كما خبرناه نحن فى العالم الغربى أثناء الحرب العالمية الثانية. فجأة وفى وقت قصير جدا بدأت تتحرك الأمور بسرعة شديدة على حدود الشرق الأوسط. وبعد أسبوع من اندلاع حرب أكتوبر، وفى ١٤ أكتوبر شنت إسرائيل هجمة مضادة رائعة بقيادة شخص يسمى اريل شارون

هورن فى سطور

السير أليستير هورن من بين أشهر المؤرخين الغربيين المعاصرين، له نحو عشرين مؤلفاً تعنى أكثرها بتاريخ الحروب بما فى ذلك حروب المقاومة والتحرير الوطنى.

ومن بين أهم مؤلفاته كتابه عن حرب التحرير الجزائرية، والذى يعد من أهم المراجع التاريخية فى موضوعه، وقد اكتسب مؤخراً صيتاً واسعاً بين عامة الناس بسبب تصريح للرئيس الامريكى جورج بوش (غير المعروف بسعة اطلاعه) أعرب فيه عن إعجابه الشديد بكتاب هورن، تلاه بدعوة السير أليستير للقائه فى البيت الأبيض.

كما أن هورن حالياً بصدد إعداد كتاب عن سيرة حياة وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر.

وقد ولد السير أليستير هورن فى لندن عام ١٩٢٥ وأدى دراسته الجامعية فى جامعة كمبريدج، ثم تطوع فى سلاح الطيران أثناء الحرب العالمية الثانية. لينهى خدمته العسكرية فى أواخر الأربعينيات برتبة نقيب ملحق بالإم آى فايف فى الشرق الأوسط. فى أوائل الخمسينيات عمل مراسلاً لجريدة الديلى التلجراف، ثم تفرغ تماماً للكتابة التاريخية منذ عام ١٩٥٥.

من بين كتاباته أيضاً ثلاثية مهمة عن النزاع الفرنسى الألمانى الممتد من الحصار الألمانى لباريس عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ مروراً بالحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وله أيضاً مؤلف شهير عن فرنسا فى عصر بونابرت وآخر عن سيرة حياة المارشال منتجومرى.

الذي اكتشف فجأة أن هناك ثغرة مفتوحة بين الجيشين الثاني والثالث المصري على قناة السويس. لم يستطع أن يقنع رؤساءه بمتابعة هذا الموضوع إلا بعد وقت طويل. كان الإسرائيليون يدرسون بحرص شديد نجاح تلك العملية وفي نفس الوقت كانوا متخوفين من شارون لما يعرف عنه بأنه جنرال عنيد وخطير.

على أية حال تم تنفيد الهجوم وبحلول ١٥ أكتوبر يلاحظ كيسنجر كيف استطاع الإسرائيليون سحب الجنود المصريين خارج نطاق نظامهم الدفاعي. متمكنين بذلك من تحطيم أكثر من ٣٠٠ دبابة سوفيتية وتغيير وإعاقة الهجوم على قناة السويس. أحد عناصر خطة السادات للقضاء على التفوق الهائل للطيران الإسرائيلي الذي ظهر في حرب الأيام الستة كان باستخدام قواعد صواريخ سام التي زودهم بها الاتحاد السوفيتي. وكان ذلك فعالا للغاية في الأيام الأولى للحرب. لقد استطاعوا ان يسقطوا أعدادا كبيرة من الطائرات الإسرائيلية. ولكن كلما استمرت الحرب كانت القوات المصرية فيما يبدو تتحرك تدريجيا بعيدا عن هذا الغطاء الواقي. وسرعان ما أصبحت أجواء الجيش المصري غير محمية بقواعد الصواريخ وكان هذا أحد العوامل التي غيرت بطريقة خطيرة مجرى الأحداث في الحرب في ١٤ و١٥ أكتوبر.

وفجأة ظهرت مبادرة سوفيتية لوقف إطلاق النار لأنهم بدأوا يدركون أن زبائنهم من الدول سوريا ومصر. كما كانوا يطلقون عليهم، لم يعودوا المتفوقين. فبدأ الضغط على أمريكا يتزايد لكي تفعل شيئا. زار كوسيجين، الرجل الثاني بعد بريجنيف في الكرملين، مصر ليقابل السادات. وفيما يبدو لم تكن الزيارة فعالة لأنه لم يصدر عنها أي قرارات، ولكن في اليوم التالي ١٨ أكتوبر، استلم كيسنجر رسالة عاجلة تطلب منه السفر إلى موسكو ليتفاوض مباشرة مع الكرملين بخصوص وقف إطلاق النار. وسافر كيسنجر فعلا.

لم يكن كيسنجر متأكدا من مدى خداع السوفييت للأمريكان وإلى أي مدى هم متورطون. ولكنه طار إلى موسكو. ويقول كيسنجر أنه في نهاية يوم ١٩ أكتوبر كنا قد حققنا أهدافنا المبدئية، لقد خلقنا ظروفا ليبدأ فيها العمل الدبلوماسي كما دافعنا عن أمن أصدقائنا ومنعنا انتصار السلاح السوفيتي وأيضا حافظنا على علاقاتنا مع الدول العربية المهمة والذي سيكون لديهم دور هام ورئيسي في العمل الدبلوماسي في مرحلة ما بعد الحرب. ولقد استطعنا أن نحقق كل هذا في أحلك الظروف التي كانت تمر بها أمريكا متثقلة بأزمة العصر.

كانت زيارة كيسنجر لموسكو ناجحة. لقد اتفق السوفييت والأمريكان على بنود وقف إطلاق النار التي سوف يمررونها في الأمم المتحدة. ولكن عندما عاد كيسنجر يوم ٢٣ أكتوبر أصابته الدهشة عند استلامه رسالة تهديد من بريجنيف موجهة مباشرة للرئيس نيكسون كما يبدو بناء على ضغط شديد من الرئيس السادات الذي كان يحث الاتحاد السوفيتي بالتدخل المباشر في الحرب في الشرق الأوسط. وكان ذلك بالنسبة للأمريكان وفي هذا التوقيت بالذات الطامة الكبرى. كان ذلك مرعبا ومخيفا للغاية وكان فيما يبدو أن السوفييت ربما قد أرسلوا عددا من جنودهم إلى الشرق الأوسط. وكان ذلك هو آخر ما يمكن قبوله.

عليك أن تتذكر ماذا كان يدور في واشنطن في ذلك الوقت وهو تأثير قضية ووترجيت التي شلت وأوهنت حركة نكسون كما وضعت الكثير من الضغط غير المطلوب في ذلك الوقت على كيسنجر نفسه. وكان يوم ٢٤ أكتوبر هو يوم الأزمة الحقيقية، وعندما أقول أزمة أعني أنه كان يوما لا يضاهيه إلا يوم أزمة الصواريخ الكوبية عام١٩٦٢. وحدثت تلك الأزمة في ذات الوقت من العام الذي حدثت فيها أزمة الصواريخ تلك. وكان في مساء ذلك اليوم اجتماع مجلس الأمن الوطني، وهو المكان الذي سوف يتخذ القرارات في داخل البيت الأبيض. ومن الأشياء المثيرة في ذلك اليوم كان دور نيكسون. لم يكن نيكسون في الاجتماع بمعنى الكلمة. لقد كان تحت تأثير هائل للكحول الذي كان قد تناوله في ذلك اليوم. لم يكن نيكسون يحتمل تناول الكحوليات وكان يومها قد تناول كأسا أو أكثر لتخفيف الضغط عليه بسبب قضية ووترجيت، ولم يكن واعيا في تلك الليلة ولم يكن حديثه ذا معنى. وبالتالي تم أخذ القرار باسمه ولكن دون توقيعه لكي ترفع حالة التأهب الأمني وهو ما يبدو مخيفا للأمريكان ولكنها في الواقع لا تعني الشيء الكثير. كل ما هناك انك تضع البحرية والطيران في حالة تأهب قصوى. ولكن قصد بذلك إرهاب الاتحاد السوفيتي بإرسال رسالة أننا جادون، ولن نسمح للسوفييت بالتدخل في الشرق الأوسط. وتم ذلك بسرعة خاطفة في منتصف الليل مما كان له الأثر البالغ وتراجع السوفييت ليتم رفع حالة التأهب تلك قبل ان يستيقظ أحد في الولايات المتحدة الأمريكية. في الحقيقة لقد تم كل ذلك في غضون ساعات ولكنها أرعبت المكتب السياسي في الكرملين. وعلمنا فيما بعد أن بعضا من المارشالات السوفييت قد أشهروا سيوفهم ورفضوا قبول مثل هذه التصرفات الأمريكية وقالوا يجب أن نقابل التهديد بالتهديد. ولكن بريجنيف لعب دورا هادئا ورفض الفكرة قائلا: لا يجب أن يستفزنا عدم المسئولية الأمريكية.

كانت هذه فترة خطيرة جدا. فترة سوف ينتقدها المؤرخون وذلك لأن الأمريكان قد يكونون قد بالغوا في ردود أفعالهم ولكن كان رد الفعل السوفيتي بالفعل مبالغا به عندما هدد واشنطن. ولكن أعتقد أن عدم استعداد بريجنيف المضي في تهديده هو مؤشر بأن دبلوماسية كيسنجر بالنسبة لفكرة الوفاق الدولي مع السوفييت قد عملت بناعمية وأنه إذا كانت الحرب قد اشتعلت أثناء حكم خروشوف لكان الأمر خطيرا جدا. ولكن تلك الأيام كانت تختلف كثيرا وإن الكل قد شعر بقيمة سياسة الوفاق هذه.

بعد ذلك بدأت حدة الحرب في الشرق الأوسط تنخفض. لقد تم الاتفاق على وقف إطلاق النار في الأمم المتحدة. وكان هناك نقد مرير للإسرائيليين من الأمريكان لخرقهم وقف إطلاق النار وهجومهم على القوات المصرية المحاصرة لدرجة أنهم في فترة ما كانوا على استعداد لإرسال وحداتهم المحمولة جوا ليتعاملوا مع الإسرائيليين لتمنعهم من تحطيم الجيش المصري. أعلم أن هذه نقطة جدلية في مصر وهي أن الجيش المصري كان قادرا على الخروج وحده. ولكن كل ما نعلمه هو أن تم تنفيذ وقف إطلاق النار وذلك تحت ضغط شديد من أمريكا على إسرائيل. وقد قال كيسنجر لجولدا مائير إننا لن نسمح لكم بإذلال المصريين بالسماح لكم بالقضاء على جيشهم.

وأخيرا أريد أن أقول شيئا عن تلك القصة المعقدة القريبة جدا من قلوب المصريين. أنا أتحدث عن العلاقة المتميزة التي بدأت في نهاية حرب أكتوبر بين الرئيس السادات وكيسنجر. قام السادات بدعوة كيسنجر لزيارة مصر في أوائل شهر نوفمبر وهو اجتماع انتقده الكثيرون كما تعلمون وذلك لأنهم يعتقدون أن كيسنجر قد خدع السادات. ولكني غير متأكد من ذلك بتاتا. ولكن ما أنا متأكد منه جاء بوضوح شديد في كتاب كيسنجر. هناك بعض الفقرات المؤثرة جدا جاءت في مذكراته الطويلة جدا وهو يصف السادات الذي لم يكن معجبا به ثم تطور هذا الشعور لديه حتى وصل إلى درجة مذهلة، بدون أي مبالغة. من العاطفة لم يكن هناك ما يماثلها بعلاقته مع جولدا مائير أو الإسرائيليين.

عندما حضر كيسنجر إلى القاهرة في نوفمبر ١٩٧٣ يقول فورا شعرت بأنني أمام رجل مميز. لم يكن السادات مهتما بالتفاصيل التي يتمسك بها عادة الزعماء المتدللون ليشعروا أنهم يسيطرون على الأحداث. شعرت بأن السادات يمثل أفضل فرصة لتجاوز الاتجاهات المتجمدة المعروفة في الشرق الأوسط منذ إنشاء دولة إسرائيل. لقد أذهلني لأنه لم يناقش أو يساوم. في الحقيقة كان يقوم بعمل في منتهى الشجاعة. ويستمر كيسنجر في مناقشة خطة النقاط الست التي أعدها مع السادات لتحرير الجيش المصري المحاصر. ومرة أخرى يقول كانت لدى السادات أفكار أكثر بكثير من الشخصيات المعاصرة له. المستقبل وحده سيثبت إذا كان قد بدأ حركة تاريخية لا رجعة عنها، أم كان مثل هذا الفرعون أخناتون الذي كان يحلم بالتوحيد وهو في وسط كل هذه الآلهة. ألف سنة قبل أن يتقبل العالم هذه الفكرة. بطريقة أو بأخرى سوف تكون قضية السلام هي هرمه.

ومن المثير اليوم أنني سألت وأنا في وسط الصحفيين هنا كم منهم يشعر أن اتفاقية كيسنجر - السادات لها ما يبررها وإذا كانت اتفاقية جيدة أم سيئة. وأصابتني الدهشة من الإجابات لأنني كنت أظن مما سمعته في الأيام القليلة الماضية أن الإجابة ستكون ساحقة ولكنها لم تكن كذلك. كانت الإجابات متساوية. ها نحن هنا بعد مرور ٣٥ عاما على اتفاقية السادات وكيسنجر. لقد مرت خمسة أو ستة أعوام على اتفاقية كامب ديفيد قبل أن تعود سيناء إلى مصر. ولكن ٣٥ عاما من السلام في زمننا هذا تعتبر فترة طويلة. وفي نظر العالم الغربي فإنها تمثل الفترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى مرحلة رونالد ريجان.

أنا مهتم جدا بسماع رأي الحاضرين في هذه الغرفة إذا كانت هذه الاتفاقية جيدة أم سيئة، كما نقول في كتب التاريخ الإنجليزية. هل كان الوفاق بين السادات وكيسنجر شيئا جيدا؟ أم أدى إلى عزل مصر عن العالم العربي؟ لقد سمعت مؤيدين للرأيين. في الأسبوع الماضي عندما كنت في اجازة سألني دكتور شاب مصري، «أرجوك أن تخبرني. من انتصر في حرب أكتوبر؟ لم أكن قد ولدت بعد ولكني غير متأكد» أجبته بأنني أظن أن السادات انتصر ولكن ليس المهم من ينتصر في الحرب، المهم انتصار السلام.

أنا سعيد جدا في زيارتي هذه. لقد استفدت كثيرا في الأيام الماضية وأنا أستمع للناس. ومازلت أتطلع لمعرفة آراء الأستاذ محمد حسنين هيكل عند عودته في صحة جيدة. ■

أليســــــتير هـــــــورن
Alistair Horne



The Fall of Paris: The Siege and the Commune 1870-71
(سقوط باريس: الحصار والحكومة الاشتراكية ١٨٧٠-١٨٧١)

Penguin, 2007, 480 pp., $10.88

يتوجب على أي شخص يرغب في استيعاب الحرب الأهلية التي لا تزال تستثير روح فرنسا أن يقرأ هذا الكتاب الكلاسيكي. كانت فرنسا عام ١٨٧٠ بمثابة قلب أوروبا، ينبوع الثقافة والموضة والإبداع. انقضت عشرة أشهر ثم انهارت فرنسا من جراء حصار بروسي طويل الأمد بعد أن لجأ مواطنوها الجياع إلى أكل الكلاب والقطط والفئران. ومن ثم أرغمت فرنسا على قبول شروط استسلام بالغة الإهانة أملاها المستشار الحديدي بسمارك. لاح سقوط فرنسا في أعين الكثيرين بوصفه سقوطاً للحضارة ذاتها. إن تأريخ اليستير هورن لحصار باريس وعواقبه لعمل دال على الألمعية، عمل يعالج التاريخ العسكري والاجتماعي بمسحة الروايات العظيمة ومذاقها.

※



To Lose a Battle: France 1940
(خسارة معركة: فرنسا ١٩٤٠)

Penguin, 2007, 736 pp., $12.24

إن السير اليستير هورن واحد من أعظم مؤرخي بريطانيا، ألف العديد من الكتب عن تاريخ فرنسا، ومن بينها هذا الكتاب. في غضون ستة أسابيع من عام ١٩٤٠ دمر هجوم هتلر الخاطف خط ماجينو المهيب وسرعان ما دك الجيش الفرنسي بأسره. ومع هذا الكتاب سوف يجد القارئ أنه لم يسبق لأي مؤرخ أن كتب تاريخاً أكثر دقة وإثارة لتلك الكارثة. تنساب فصول الكتاب بسرعة سينمائية من المعركة إلى البرلمان الألماني، الرايخستاغ، إلى قصر الإليزيه. إن كتاب خسارة معركة يتجاوز حدود التاريخ العسكري التقليدي ليستحيل إلى لوحة تبرز الروح القومية الفرنسية في أحلك لياليها.

※

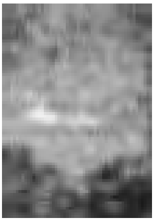


١٩٥٤-١٩٦٢ Savage War of Peace: Algeria A
(حرب ضارية للسلام: الجزائر ١٩٥٤-١٩٦٢)

NYRB Classics, 2006, 624 pp., $13.57

تواصلت حرب الجزائر من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢، فوضعت ست حكومات فرنسية وأدت إلى انهيار الجمهورية الرابعة وعودة دي جول إلى السلطة وكادت تحدث حرباً أهلية على الأراضي الفرنسية. مات خلال الصراع ما يربو على مليون شهيد جزائري ونفي عدد مماثل من المستوطنين الأوروبيين. وغير هذا وذاك وصم الحرب اتحاد مشين بين رعب ثوري وعذاب مشحون بالقمع. لقد انصرم زهاء نصف قرن منذ أن وضعت تلك الحرب الضارية أوزارها باستقلال الجزائر، ومع ذلك، كما يناقش اليستير هورن في مقدمته الجديدة لكتابه التاريخي الكلاسيكي، لا تنفك آثارها محسوسة ليس في الجزائر وفرنسا فحسب بل في العالم أجمع. الحق أن حرب الجزائر تتراءى الآن وكأنها بروفة كاملة الملامح لصراع غير المتبلور الذي زلزل البلقان في العقد العاشر من القرن العشرين والذي يخرب الآن الشرق الأوسط، من بيروت إلى بغداد. يجسد كتاب «حرب ضارية للسلام» قصة لا تعدم الدقة لحرب الجزائر، كتاب يبث الحياة في ذلك النزاع البشع المعقد بلمحات من ذكاء وثقة وزخم لا ينقطع. إنها صراعات تكتسب من خلالها قضايا الدين والقومية والإمبريالية والإرهاب حدة جديدة مهلكة. لا غنى عن هذا الكتاب في تلك الأوقات العنيفة التي نعيش فيها علاوة على أنه معلم باق لفن المؤرخ البريطاني.

※



Seven Ages of Paris
(سبعة عصور من باريس)

Alfred A. Knopf, 2002, 480 pp., $11.56

لندن مذكر، نيويورك غامضة جنسياً. يكتب هورن قائلاً: لكن «هل هناك أي إنسان عاقل يشك في أن باريس امرأة بالأساس»؟ هكذا يقدم المؤرخ الشهير تأريخه لمدينة النور، إذ يورد «مقالات متصلة تتضمن سير حيوات وسبعة عصور من الحياة المثيرة الطويلة لامرأة جذابة جميلة إنما أيضا مضطربة مزعجة وأحياناً عنيفة». تبدأ عصور هورن السبعة في القرن الثالث عشر حين جعل الملك فيليب أوجست باريس المركز الإداري والثقافي لفرنسا. العصر الثاني هو عصر البروتستانتي هنري القادم من نافار (الملقب بعدها بالملك هنري IV) الذي تحول إلى الكاثوليكية بعد إخفاقه في حصار المدينة لأن باريس «تستحق قداساً». وراح «يتخلص من الأحياء المكتظة المتمثلة للعصور الوسطى... لتحل محلها أخرى أنيقة كلاسيكية الملامح مرتبة الأركان». أما العصر الثالث فكان عصر الملك لويس XIV، وقد شكلت فترة من الازدهار الثقافي الهائل وإن أزاح «ملك الشمس» مقعد الحكومة من تحت قدمي باريس إلى فرساي. لقد أسبغ نابليون على باريس استقراراً ما بعد الثورة وعظمتها وطفق يبني نظاماً حديثاً للصرف الصحي. وتحت حكم نابليون III والبارون هاوسمان، خلال عصر المدينة الخامس، تمت إعادة تشييد المدينة بيد أن الفترة انتهت بإراقة الدماء. انتقل العصر السادس بالمدينة من «العهد الجميل» إلى بدايات الحرب العالمية الثانية. أما العصر الأخير فغطى فترة الاحتلال وصولاً حتى عام ١٩٦٩. إن هورن يضفي على هذا السرد الألمعي الممتع نفس العاطفة المدينية التي أسبغها بيتر أكرويد على سيرته عن لندن. لا شك أن هذا الكتاب سوف يبعث البهجة في قلوب الفرانكفونيين في كل مكان.

※



The Price of Glory: Verdun 1916
(ثمن المجد: فيردان ١٩١٦)

Penguin, 1994, 388 pp., $3.75

إن هذا الكتاب ليس مجرد تأريخ لحقائق معركة من المعارك. إنه دراسة لا تفتقر إلى العمق أو التعاطف في وصفها لرجال حاربوا في فيردان. كما أنه يثبت أن فيردان هي المفتاح لاستيعاب الحرب العالمية الأولى - مفتاح لعقول من شنوها والتقاليد المقيدة لهم والعالم الذي خلقهم. لا توجد حملة عسكرية - عدا معركة سوم - تلخص «مطحنة» الجبهة الغربية بالحرب العالمية الأولى مثل فيردان. فقد وقع نحو ١٢٥٠٠٠٠ ما بين قتيل وجريح من الجانبين الفرنسي والألماني خلال عشرة شهور تقريباً في سبيل قطعة أرض «أكبر قليلاً من المتنزهات الملكية اللندنية».

إن القارئ يتبين بجلاء ما يشتمل عليه هذا الكتاب من بحث مضن وتفاصيل بينة. يبدأ كل فصل بعبارة مقتبسة توحي بفكرته العامة، والعديد منها باللغتين الفرنسية أو الألمانية. لم تخل المكتبات من هذا الكتاب منذ ثلاثين عاماً. وهذه النسخة الكاملة تحوي مقدمة جديدة وصوراً إضافية. وعلى الرغم من مضي زهاء أربعين عاماً على هذا السرد، فهو على الأرجح أفضل ما كتبته الأقلام الإنجليزية بخصوص هذه المعركة.

※



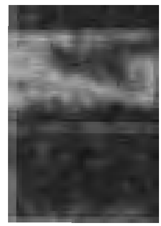
La Belle France: A Short History
(فرنسا الجميلة: تاريخ موجز)

Knopf, 2004, 512 pp., $30.00

لو أن هذا العمل «الموازي» للكتاب المبهج سبعة عصور من باريس يمثل «ذروة أربعة عقود من الغرام مع فرنسا»، فالعلاقة بين المؤلف والعشيقة لا تشي بأية علامة على الانحسار. فهورن يلاحق قصة حبيبته من السلالة الميروفنجية في القرن السادس حتى مسيرة فرانسوا ميتران وعلاقاته الخطرة (تلك السياسية والخاصة). يغوص المؤلف بكل عشق في خضم من الحكايات واللقطات

التاريخية والنوادر الشخصية غير ان نزاعات المحبين لعاود الظهور في صورة احكام جافة لا تعوزها التسلية واغتيالات بين الحين والاخر لبعض الشخصيات. يلهم فاليري جيسكار ديستان وجين-بول سارتر بعض مفردات لغة انتقاها المؤلف بعناية: «لو ان ثمة فيلسوفاً مذنباً بالخطيئة التي اتهم بها الاخرون سقراط، الا وهي إفساد الشباب، فلا بد أنه سارتر». فاحت من سارتر - على حد قول هورن - رائحة أشبه بالماعز، صفة اشترك فيها حسبما يبدو مع هنري IV الذي يكن له المؤلف إعجاباً لكونه سياسياً محنكاً. ان هورن يناقش تاريخ فرنسا الحديثة مناقشة شخصية ويشيد برموزها في كل مناسبة مما يجعل هذا الكتاب واجب القراءة لكل عشاق فرنسا. وبينما يتراءى تناوله للعصور الوسطى وبداية العصر الحديث سريع النبرة سطحي التناول، سوف يجد القارئ النصف الثاني من الكتاب مفعماً بالتأمل والعمق. ان ما يلي ذلك من سرد مثير لمعضلات المقاومة والتعاون مع المحتل تحت الاحتلال النازي والتطهير الانتقامي يمثل قمة التأريخ العاطفي.

※



How Far From Austerlitz? Napoleon 1805-1815
(كم تبعد عن أوسترليتز؟ نابليون ١٨٠٥-١٨١٥)
St. Martin's Griffin, 1998. 416 pp.. $3.75

يغطي المؤرخ العسكري الضليع اليستير هورن في كتابه «كم تبعد عن أوسترليتز؟» العقد المحوري من مسيرة نابليون، إذ يتعاطى مع نابليون - بدءاً من انتصاراته في مدينتي أولم وأوسترليتز وانتهاء بهزيمته في ووترلو - باعتباره واحداً من أبطال التراجيديا اليونانية، مترع بشعور بالكبر سوف يفضي في النهاية إلى انهياره المباغت. فهو يعلن على سبيل المثال أنه بمجرد بدء الغزو، قلما يتوقف. فالغزو الأول يتطلب من المنتصر غزواً ثانياً لحماية ارباح الأول وهكذا. وعليه سرعان ما تقل الموارد المادية والبشرية وتسقط الإمبراطورية. هذا هو ما جرى بالضبط لنابليون: وهورن ينهي حكايته إلى القارئ ببراعة منقطعة النظير، بالإضافة إلى ذلك يرسم مقارنات مثيرة بين الإمبراطور الفرنسي والالماني هتلر: كبحت القوة البحرية البريطانية غزوات الاثنين داخل إطار القارة الأوروبية، وشن الاثنان غزواً مشئوماً على روسيا، وأبتلي الاثنان بعطش مميت للغزو.

إن هذا المجلد يجسد ما يبرع فيه هورن كل البراعة: كتابة تاريخ شعبي إنما متقن، تاريخ حافل بالحيوية والمتعة، غني بالنوادر... بقلم واثق وبصيرة تلتقط أدق التفاصيل، وهكذا يصطحب قراءه إلى صورة متكاملة الابعاد، نسخة أدبية من عرض قد تشاهده في ووترلو حيث حارب نابليون حربه الأخيرة. يكتب هورن بنبرة واضحة نابضة بالحياة دون أن يغوص على الإطلاق في التفاصيل التقنية. ان كتاب كم تبعد عن أوسترليتز؟ يمثل ما ينبغي أن يكون عليه التاريخ الشعبي: آسر ينور القارئ خير تنوير، سريع الإيقاع لكنه جاد النبرة.

※



Friend or Foe
(صديق أم عدو)
Weidenfeld & Nicholson, 2004. 256 pp.. $25.86

في الذكرى المئوية لتوقيع التحالف الودي بين فرنسا وبريطانيا، تظهر دراسة جديدة عن تاريخ فرنسا بقلم مؤرخ بريطانيا الأول، في فترة أصبحت فيها الأقدار الفرنسية-البريطانية أكثر تشابكاً من ذي قبل وذلك بسبب اليورو وتطور الاتحاد الأوروبي والنفق الواصل بين الدولتين على الرغم من اختلاف البلدين في العديد من الجوانب الأخرى مثل شئون الهجرة وحرب الخليج. يستكمل هورن في كتاب صديق أم عدو ما بدأه في كتاب «سبعة عصور من باريس»، «كتابه الأبرز على الإطلاق»، حسبما أعلن موريس درون، «لقد قبض هورن بصورة مثالية على سلسلة متصلة أشبه بالأمواج من قدر فرنسا، سلسلة ترتحل بلا انقطاع من القمم إلى الأغوار، وهكذا يصبح ما يرويه من تاريخ «ذا خصوصية وخطة محددة. إذ يتحول إلى تفسير شخصي لتاريخ فرنسا متأرجحاً بين المرتفعات والأعماق: سوف يلقى القارئ دوائر من سعي مضلل إلى «المجد» تتبعها في الغالب كارثة من جراء الكبرياء ثم تتحقق المعجزة: شفاء سريع وانتصار ثقافي فرنسي».

إن هورن يسلط الضوء في كتابه على مجموعة من الكوارث والمآسي والشخصيات، يعمل فكره في حالة «العلاقة الخاصة» بين فرنسا وبريطانيا عبر القرون. وسوف يتمعن في خاتمة الكتاب في القضية التالية: هل التحالف أم التنافس - إن لم تكن العداوة - هي الوضعية الطبيعية بين فرنسا وبريطانيا؟

كتاب الزاوية

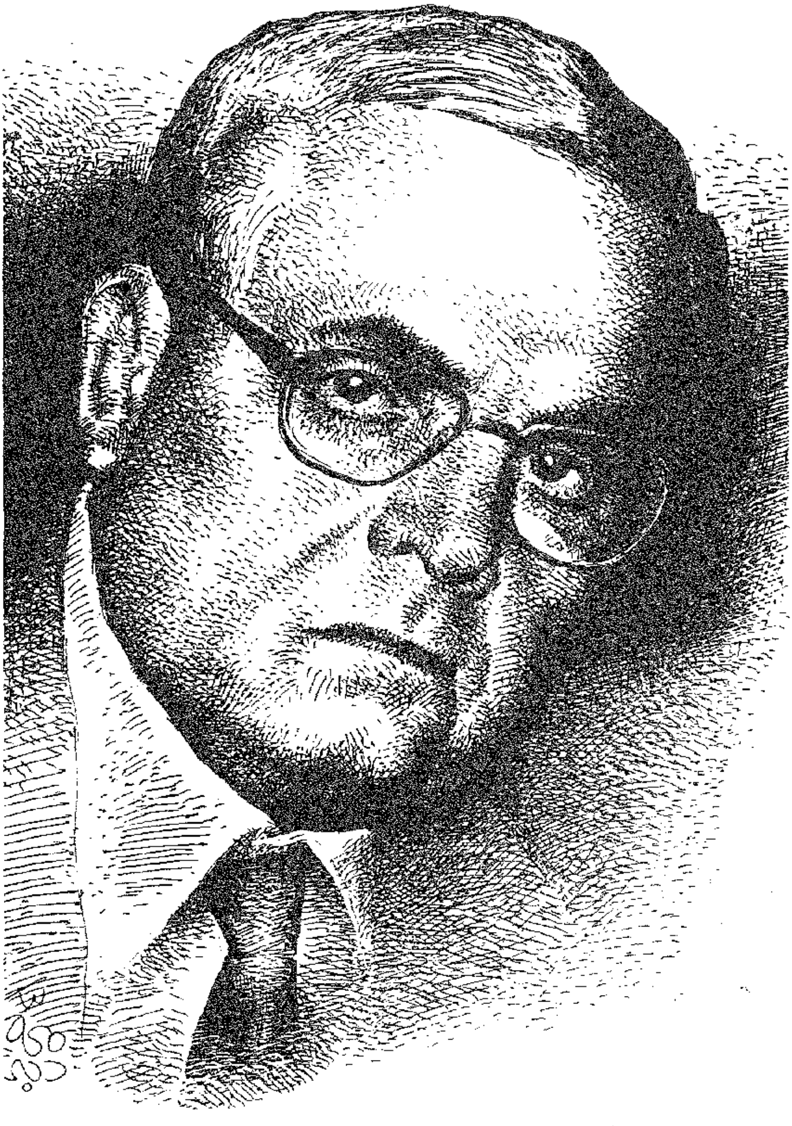
أغنية الشمس

أشعار صينية

نعم!
الشمس أكثر جمالاً من كل شيء
من العذارى الجميلات
من بتلات الأزهار لحظة تشربها الندى
من الثلج الأبيض
من البحار الزرقاء
الشمس جرم سماوي ذهبي أحمر
جرم رائع
جرم متفتح
هويتمان
ألهمته الشمس
وبرؤيته التي في اتساع البحر
صاغ أشعاراً
فان جوخ
ألهمته الشمس
وبفرشاة نارية
غمسها في ألوان مشتعلة
رسم مزارعين يحرثون الأرض
رسم زهور «عباد الشمس»
أيتها الشمس
أنت الأعلى

تم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣، وبالتالى سقط النص من الدستور القاضى بالعيب فى الذات الملكية، غير أن ذلك كان صحيحا فقط من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فلم يكن مسموحا بالعيب فى ذات رأس الدولة

العيب فى ذات



■ ■ «العيب فى ذات الحاكم» من القضايا التى ظلت تفرض نفسها على التاريخ المصرى فى العلاقة بين رأس الدولة، كيفما كان مسماه: ملك، سلطان، أو رئيس جمهورية، وبين المصريين فى مؤسساتهم، سواء كانت النيابية أو الصحفية، أو حتى على مستوى الأفراد. وعلى الرغم من ذلك، فقد تعرض لها الحقوقيون أكثر مما تعرض لها المشتغلون بالكتابة التاريخية، مع أنها كانت مرهونة دائما بالظرف التاريخى.

صحيح أنه قد حدثت اجتهادات من بعض المؤرخين الشبان مثل العمل الذى وضعه الدكتور سيد عشماوى تحت عنوان «العيب فى الذات الملكية - انهيار هيبة حكم الفرد المطلق (الخديو - السلطان - الملك) ١٨٨٢ - ١٩٥٢»، وصحيح أن صاحب هذا العمل قد حشد بالمعلومات المفيدة.. كل هذا صحيح، إلا أننا رأينا إعادة الظاهرة إلى ما قبل، وعلى وجه التحديد، بعد إنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦، فظهور المؤسسة التشريعية يعنى وجود أكثر من رأى، التى يمكن أن يتناقض أحدها مع رأى صاحب «الذات الخديوية»، وهو ما لم يتأخر كثيرا فجرى على عهد خلفه، الخديو توفيق، سواء فى مظاهرة عابدين الشهيرة فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ أو فى جلسة مجلس النواب التى تعالت فيها الأصوات التى تنتقد تصرفات الخديو والتى وصلت إلى المطالبة بخلعه.

ثم إن نفس الفترة شهدت ظاهرة «الصحافة الأهلية»، وكانت بذلك طرفا ثالثا فى المعادلة، فإن ما عمد إليه بعضها من انتقادات تصرفات الخديوى إسماعيل، مما عرض جريدة مثل الأهرام للإغلاق، ولم يكن قد مضى على صدورها شهور قليلة، ناهيك عن

العيب فى ذات أفندينا
دراسة تاريخية موثقة من ١٨٨٦ حتى اليوم
القاهرة : دار الشروق ٢٠٠٨

الكتاب الأخير



يونان لبيب رزق

أفندينا!!

الصحافة الصادرة فى فترة الثورة العرابية التى كانت تهاجم توفيق عيانا بيانا.

ثم إننا رأينا الامتداد بالظاهرة إلى ما بعد، صحيح أنه قد تم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣، وبالتالى سقط النص من الدستور القاضى بالعيب فى الذات الملكية، غير أن ذلك كان صحيحا فقط من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية فلم يكن مسموحا بالعيب فى ذات رأس الدولة، حتى لو كان بلقب رئيس الجمهورية، ويتمتع بصلاحيات سياسية تسمح بضرورة نقدها، ومن ثم رأينا أن تتابع الظاهرة على عهد كل من الرئيسين عبد الناصر والسادات، بل وزدنا على ذلك فوصلنا إلى عهد الرئيس مبارك، على الرغم مما فى الكتابة عنه مذاق سياسى.

وتبدو صحة هذه المقولة إذا لاحظنا أن الرئيس السادات لم يتردد عندما تزايدت صيحات الاحتجاج ضد سياساته فى إصدار قانون مطاط يتيح له ملاحقة من يعيبون فيه عام ١٩٨٠ باسم «قانون حماية القيم من العيب».

باختصار فإننا نرى عمل الدكتور سيد العشماوى خطوة بين الكتابة فى هذا الموضوع من الوجهة القانونية والكتابة فيه من وجهة تاريخية، الأمر الذى يؤكده كثرة اعتماده على الكتابات القانونية، بينما نعتبر عملنا هذا نقلة كاملة للكتابة التاريخية، ضاربين عرض الحائط بكثير من القواعد والنصوص القانونية التى اعتمدت عليها هذه الكتابات.

ولعل ذلك ما دعانا إلى توثيق الدراسة على نحو لا يتيح لأصحاب المنهج القانونى فى دراسة ظاهرة العيب فى الحاكم التشكيك فى «الدراسة التاريخية». فلم نترك حقيقة إلا ووثقناها، حتى أن القسم الوثائقى قد غلب فى حجمه على الدراسة نفسها. ■

وقائع محاكمة أحمد حلمى

■ الجريمة: التطاول على مسند الخديوية المصرية.

رئيس المحكمة: عزتلو على بك ماهر.

وكيل النيابة: عزتلو محمد زكى بك - السن ٣٣ سنة.

السيرة الذاتية: تعلمت فى مدرسة سيدنا الحسين ثم استخدمت كاتبا فى مركز دمنهور وبعد ذلك أديت امتحانا بنظارة المالية ولما قبلت فى الامتحان عينت فى مأمورية سيوة وما زلت بها إلى أن استقلت منها ثم رجعت كاتبا بدمنهور، وبعد ذلك استخدمت بالمساحة ولما أنشئ اللواء كنت أكتب فيه مستترا. ولما اتفقت مع مصطفى باشا كامل أخذت إجازة واشتغلت به ومكثت بالعمل حتى انتهت الإجازة فاستقلت ولبثت محررا فى اللواء إلى أن استقلت بعد وفاته وأصدرت جريدة القطر المصرى.

من مذكرة النيابة: إن الصحافة قد تكون وبالا على الأمة إذا لم تؤد وظيفتها على الوجه الصحيح فتصبح شرا عليها يجب ملافاة أضراره، ومن الأسف أن بعض الجرائد بمصر اخترقت سياج القانون وأساءت لحرية الصحافة فأخذت تنشر كل ما يعن لها صحيحا كان أو غير صحيح. حسنا كان أو قبيحا. وربما خفف من جرمها حسن قصدها بأن كان عملها صادرا عن حسن نية. ولكن الأمر فى بعضها ليس كذلك إذ تكتب ما تخيل أنه يروج بضاعتها أو تنشر ما تدفعها إليه المصلحة الشخصية أيا كانت تاركة المصلحة العامة وراء ظهرها.

ومن الجرائد التى تعدت حدود الأدب والواجبات الصحفية جريدة القطر المصرى المرفوع على صاحبها الدعوى اليوم.

مركز الجناب العالى: من المعلوم أن الخديو المعظم هو الحاكم الشرعى للبلاد فيجب أن يكون مقامه فوق كل مقام واحترام شخصه الكريم فوق كل احترام. وقد قيل من دلائل الرقى فى مقام احترام صغيرهم لكبيرهم فكيف بولى الأمر الأكبر ومقام الأمير أو الملك يمنعه من الرد على ما يفترى عليه. فليس من الشهامة ولا من الأدب أن يكون ذلك سببا فى التشهير بهذا المقام السامى لأن الفرد وإن رأى شيئا يفترى عليه به ينبرى للرد والدفاع عن نفسه خلافا للملك أو الأمير.

وقائع الدعوى: تضمن عدد القطر المصرى الصادر فى ٨ يناير سنة ١٩٠٩ تحت عنوان «مصر للمصريين» مقالة نقلتها عن إحدى الجرائد العربية التى تطبع فى الأستانة صدرتها بمقدمة توهم بها أن الغرض من نقلها هو الرد عليها فى أعدادها المستقبلة (ثم لخص المقالة).

وحيث إن ما جاء فى هذه المقالة موجها إلى الحضرة الخديوية أو مشارا به إليها يقع تحت أحكام المادة ١٥٦ عقوبات التى نصها.

«كل من عاب فى ذات ولى الأمر بإحدى الطرق المذكورة يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهرا أو بغرامة لا تتجاوز مائة جنيه مصرى».

وحيث من جهة أخرى إن الغرض من هذه المقالة تسوئة أعمال العائلة الخديوية وإظهار عدم صلاحيتها لتولى ملك الديار المصرية والطعن عليها وعلى حقوقها ودعوة الناس إلى خلع طاعتها والخروج عليها وهذا الأمر يعاقب بالمادة ١٥٠ عقوبات التى نصها:

«كل من تطاول على مسند الخديوية المصرية أو طعن فى نظام حقوق الوراثة فيها أو طعن فى حقوق الحضرة الخديوية وسلطتها. سواء كان ذلك بإحدى الطرق المتقدم ذكرها أو بواسطة إشهار رسم أو نقش أو تصوير أو رمز أو إباعة فى أى محل يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين أو بغرامة لا تتجاوز مائة جنيه مصرى».

شروط المادة ١٥٦: يشترط توفر ثلاثة شروط:

أولا: يلزم أن يكون هناك طعن والطعن تعريفه عام يدخل فيه القذف والسب وكل ما يهيج العواطف فهو أهم من القذف والسب ومجرد الاطلاع على المقالة السابقة الذكر يرى أن المقصود فى كثير من مواضعها هو الجناب العالى وأن الألفاظ التى استعملت هى من أخشن ألفاظ السباب والطعن.

ثانيا: أن يكون موجها لذات ولى الأمر، ومن يريد أن يدحض تهمة لا يكون رده بما ذكره عن كتاب عجائب الآثار للجبرتى المعروفة عداوته للعائلة المحمدية العلوية.

ثالثا: أن يكون بإحدى طرق النشر. والنقل فى مثل هذه الدعوى عن جريدة لا تطبع فى الديار المصرية ومعروفة من أفراد قلائل فالنقل عنها بنصر المطاعن وحرفيتها فى جريدة القطر المصرى يكاد يكون فى الحقيقة نشرا أصليا جديدا لاختلاف الوسط. ■

دفاع

أحمد لطفى السيد

* التهمة الأولى: الطعن على مسند الخديوية.

١ - يرجع التشريع المصرى فى هذا (المادة ١٥٠ عقوبات) إلى التشريع الفرنسى فى عهد الملكية أى أن الشارع المصرى الذى سن قانونه سنة ١٨٨٣ لم يشأ الأخذ بالقوانين الحديثة. فقد أخذ الشارع المصرى نصا من قانون ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ ونصها:

«كل من تطاول بإحدى الطرق المبينة من قانون ١٧ مايو سنة ١٨١٩ على منصب الملك أو نظام الوراثة فى العرش الملكى أو فى الحقوق التى نالها الملك من الأمة الفرنساوية أو فى سطوته الدستورية أو فى انتهاك حرمة شخص الملك يعاقب.

٢ - المراجع لنسخة القانون المصرى الفرنساوية يجد عبارةKhedivst تدل صراحة على أن غرض الشارع بمسند الخديوية لم يكن شخصا معينا وإنما أراد به ذلك الشىء الذى جعل به روحا وأساسا للحكومة المصرية فأراد حمايته فى شكله ونظامه من تطاول الأفراد - ولذلك يكون الغرض بالتطاول على مسند الخديوية هو كل ما من شأنه الطعن على شكل الحكومة الخديوية بتغيير شكلها وأساسها كطلب أن تكون جمهورية أو ملوكية أو إمبراطورية.

٣ - إذا تقرر ذلك ننظر إلى المقالة المطعون فيها فلا نجد فيها شيئا يتعلق بتغيير نظام الحكومة الحالية من خديوية إلى ملوكية أو جمهورية. وإذا لم توفق النيابة على ما قلنا فعليها أن ترشدنا للموضع الذى تشتبه فيه ونحن مستعدون للجواب.

التهمة الثانية: طعن فى حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية.

١ - يوجد فى هذا الموضوع خلاف بين القانون الفرنساوى والقانون المصرى. ولا شك فى أن المراد بتلك الحقوق ما ورد فى الفرمان الصادر لإسماعيل باشا فى ٨ يونيو ١٨٧٣ وهى:

أ - إدارة مصر من الوجهة المدنية المالية.

ب - سن القوانين واللوائح الداخلية

جـ - عمل وتجديد المعاهدات مع الدول الأجنبية ما دامت خاصة بالتجارة أو الجمارك أو العلاقات بالأجانب فى مصر

د - التصرف فى الأمور المالية الخاصة بالبلاد وعقد الديون باسم الحكومة المصرية.

هـ - زيادة أو تقليص عدد الجيش الشاهانى بالديار المصرية.

و - منح بعض الرتب والنياشين.

ز - ضرب النقود باسم السلطان.

هذا كله من حقوق الوراثة التى لا نبحث فيها الآن.

٢ - إذا تقرر ما قدمناه يجب أن نبحث فى مقالة العدل عما إذا كان يوجد فيها طعن فى الحقوق التى قدمنا بيانها.

إذا تصفحنا هذه المقالة فلا نجد فيها شيئا يؤخذ منه أن الكاتب يتكر على الحضرة الفخيمة الخديوية حقا من هذه الحقوق أو يناقش فى شىء من ذلك.

٣ - على أننا إذا فرضنا المستحيل وقلنا أن هذه المقالة تشتمل طعنا على الحقوق المذكورة أو واحدا منها فهل ذلك يكفى لتطبيق المادة (١٥٠).

كلا - وذلك لأن المادة المذكورة جاءت عبارتها هكذا (أو الطعن على حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية وسطوتها) ولا تقول أو سطوتها. وهذا يستفاد منه بلا جدال أنه لوجوب تطبيق هذه الفقرة يجب أن يقترن الطعن فى الحقوق بالطعن على سطوة الحضرة الخديوية. ومعنى الطعن على السطوة الخديوية هو الطعن على القوة والصولة الخديوية التى يخضع لها كل فرد من الأفراد فكل ما من شأنه تقليل هذه القوة أو الحط من قدرتها وصولتها أو عدم الاكتراث بها يعتبر طعنا على سطوة الحضرة الفخيمة الخديوية.

ولا شك أننا إذا تصفحنا مقالة العدل لا نجد بها شيئا يستفاد منه أن الكاتب لا يعبأ بقوة الخديوية المصرية وصولتها. على أن النيابة العمومية متفقة معنا فى ذلك لأنها لم ترفع دعواها فى هذا الموضوع إلا باعتبار أن المتهم تعدى على الحضرة الفخيمة الخديوية دون التعرض لسطوتها.

فسواء كان فى المقالة طعن فى الحقوق أو لم يكن، وسواء كان هذا الطعن مقترنا بالطعن على سطوة الخديوية أو لا فإن ما تتهمنا به النيابة العمومية لا يدخل تحت أحكام المادة(١٥٠) لقصر التهمة على الطعن فى الحقوق دون السطوة. ومن ثم يكون المتهم بريئا مما نسب إليه وأرادت النيابة معاقبته عليه بمقتضى المادة ١٥٠ المذكورة.

التهمة الثالثة: عاب فى حق ذات ولى الأمر وذلك بنشره مقالة تحت عنوان (مصر للمصريين) بنقلها عن جريدة العدل التركية.

إن مقالة العدل لا تشتمل على «العيب فى حق ذات ولى الأمر» المعاقب عليه بالمادة (١٥٦ عقوبات).

ولا نتناقش هنا مع النيابة فى عبارات المقالة وفيما إذا كان يستفاد منها العيب فى حق ذات ولى الأمر لأننا لا نعلق أهمية على هذه المناقشة بل ننظر إلى شىء واحد نعتبره جوهريا فى هذا الموضوع ألا وهو (من هو ولى الأمر) الذى أراده الشارع المصرى فى المادة ١٥٦ عقوبات.

لمعرفة المراد من عبارة (ولى الأمر) يجب أن نرجع لنص المادة ١٥٦ المذكورة فى نسخة القانون المصرى الفرنساوى فإننا نجد أنه يعبر عنها بلفظ Souverain وهذا معناه صاحب السلطة المطلقة والسيادة الكلية الذى تستمد منه كل قوة.

إن النيابة العمومية تريد أن تقول لنا أن المراد بعبارة (ولى الأمر) هو شخص أميرنا المحبوب. ونحن نخالفها فى هذا الرأى ونقول إن الشارع المصرى لم يرد بهذه العبارة سوى جلالة السلطان الأعظم، وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن الحقوق التى اسمو الخديو فى مصر لا تنطبق على ولاية الأمر بمعناها القانونى وذلك لأن هذه الحقوق من سلطة أخرى هى سلطة السلطان الأعظم وتعتبر الحضرة الفخيمة الخديوية نائبا عنه بالديار المصرية. أما كون هذه السلطة مستمدة من السلطان فهذا لا نزاع فيه لأن الأصل فيها هو الفرمانات الشاهانية التى خولت للخديوية حق الحكم بالديار المصرية. كما أنه لا يمكن هنا القول بأن حق الحكم للعائلة الخديوية أصبح حقا مكتسبا بتقرير حقوق الوراثة لها فى العرش الخديوى ومن ثم يعتبر كل خديو (ولى الأمر).

لأن هذا الاعتراض مدفوع بأن كل خديو لا يمكنه أن يقوم بالحكم فى الديار المصرية إلا بعد صدور الفرمان إليه الذى يعتبر بمثابة عقد توكيل له فى القيام بهذه المأمورية السامية.

٢ - يؤيد ذلك ما ورد فى ملحق معاهدة لوندرة الصادر فى ٣٠ مايو ١٨٤١ والذى يعتبر أساسا لحقوق العائلة الخديوية فى حكم الدولة المصرية من أنه إذا خالف المرحوم محمد على باشا الخديو الأول أو أحد أعقابه الشروط التى وضعت لحكم الوراثة فيجوز خلعه.

وبمقتضى نص هذه المعاهدة قد خلع الخديو الأسبق إسماعيل باشا فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ . فإذا كان لجلالة السلطان هذا الحق، أى حق مراقبة التوكيل الصادر منه فى إدارة الشئون المصرية وعند مخالفتها يمكنه أن يسترد هذه السلطة ويعطيها للغير فلا يمكن أن يقال بأن صاحب السيادة والسلطة الكلية فى الديار المصرية سواء. *



علي ماهر



أحمد لطفي السيد



حسن ساروي

العقاد والذات الملكية

عريضة الاتهام

* باسم صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر - محكمة جنايات مصر - المشكلة علنا تحت رياسة حضرة صاحب السعادة عبد العظيم راشد باشا وحضور حضرات صاحبي العزة مصطفى حنفي بك ويس أحمد بك المستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية ومحمود منصور بك رئيس النيابة العامة ومحمد أحمد السيد أفندي كاتب المحكمة.

أصدر الحكم الآتي:

في قضية النيابة العمومية نمرة ٤٢ سايرة ما يدين سنة ١٩٣٠ المقيدة بالجدول الكلي بنمرة ٩٩١ سنة ١٩٣٠ ضد.

١ - محمد فهمي الخضري أفندي عمره ٣٨ سنة وصناعته صاحب جريدة «المؤيد الجديد» وسكنه شارع الدواوين.

٢ - عباس محمود العقاد أفندي عمره ٤٢ سنة وصناعته عضو مجلس النواب وسكنه بمصر الجديدة.

وحضر للدفاع عن المتهم الأول حضرة وهيب دوس بك المحامي وعن المتهم الثاني حضرتا مكرم عبيد بك ومحمود سليمان غنام أفندي المحاميان بعد سماع الإحالة وطلبات النيابة العمومية وأقوال المتهمين وشهادة من حيث إن النيابة العمومية اتهمت المتهمين المذكورين بأنهما:

الأول: في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة «المؤيد الجديد» عاب علنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة بالأعداد: ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣٣، ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين: «الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة» و«الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها» و«رأي في الأزمة الحاضرة» و«الرجعيون والإنجليز المحليون» و«سيعدل الدستور ولكن كيف؟» و«الرجعية هي العدو الأكبر في الأزمة الدستورية الحاضرة» بالتعاقب تحوي عبارات العيب المذكورة.

والثاني: بصفته شريكا للمتهم الأول في الجريمة آنفة الذكر بأن اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها في الأعمال المسهلة والمتممة لها بأن أنشأ المقالات الواردة في الأعداد رقم ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣٣، ٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها وسلمها إليه لنشرها.

وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة وطلبت النيابة من حضرة قاضي الإحالة إحالتهما على محكمة الجنايات لمحاكمة الأول بالمادتين ١٤٨ و ١٥٦ من قانون العقوبات ومحاكمة الثاني بالمواد ١٤٨ و ١٥٦ و ٤٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ من القانون المذكور.

وحيث إن حضرة قاضي الإحالة قرر بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إحالة المتهمين المذكورين على هذه المحكمة لمحاكمتهما بالمواد سالفة الذكر.

وحيث إنه بجلسات ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ سمعت المحكمة هذه القضية على الوجه المشروح تفصيلا في محضر الجلسة.

ومن حيث إن المحكمة قد اطلعت على المقالات موضوع الاتهام في هذه الدعوى وترى أن تقف في ذكر الوقائع والأدلة عند الحد الذي يقتضيه القانون ويراه كافيا للفصل في التهمة المطروحة أمامها وأن تجتنب الإفاضة في ذلك لما يترتب على هذه الإفاضة من إعادة نشر صحيفة مخالفة لما يجب من الولاء العام نحو صاحب الجلالة الملك.

ومن حيث إنه يتبين من أقوال المتهمين بالتحقيقات وبالجلسة أن الأول منهما هو المدير المسؤول لجريدة «المؤيد» التي نشرت بها المقالات المرقومة بسببها هذه الدعوى وأنه يطلع على ما ينشر بالجريدة في أغلب الأحيان ويشرف على تحريرها وأن الثاني هو منشئ المقالات المذكورة وهو الذي قدمها للنشر.

ومن حيث إنه تبين للمحكمة من الاطلاع على المقالات سالفة الذكر أنه بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ أصدر العدد نمرة ١٩٥ في جريدة «المؤيد الجديد» وبه مقال تحت عنوان «الوزارة تعبث بالمصريين وهي آلة في يد المستعمرين» بإمضاء «أبو فصادة» تحدث فيها إلى القراء عن تلك الأزمة ونسبها لتدخل الإنجليز لإحداث الانقلاب الحاضر في مصر فكان هذا المقال فاتحة مساجلة اشترك فيها عباس أفندي محمود العقاد بعدة مقالات نشر أولها بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد ٢١ تحت عنوان «الوزارة البريطانية والأزمة الحاضرة» قال فيها:

«إنه لمناسبة المقال الذي نشره الكاتب الكبير «أبو فصادة» في مؤيد أمس وهو المقال المشار إليه أننا أعيد نشر فقرات من حديث في هذا الموضوع جرى بيني وبين مراسل «الأحرار السورية» منذ أكثر من شهر لأن هذه الفقرات تتضمن وجهة نظر شائعة في تصوير الحالة على ما هي عليه وكل ما يتضمن وجهة نظر كهذه خليق أن يعرف تفصيله في هذه البلاد فقلت لحضرة المراسل ردا على سؤاله «اعتقادي أن هذه الأزمة هي أزمة الرجعية قبل كل شيء، والرجعيون أعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لإلغاء الحياة النيابية أو لإبقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى» ثم قال بعد ذلك: «وكانوا يتوهمون أنهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم إلى البرلمان فتشطره شطرين، فإن نالت الأكثرية بقيت على تأييدهم، أي تأييد الرجعيين وأصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور، وإن نالت الأقلية تقدم مرشحون آخرون، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور، لأن كثرة الأحزاب في المجلس النيابي تنزع السلطة من المجلس وتضعها في أيدي الرجعيين» وقال فيها أيضا «ولو تم هذا التدبير لاستغنوا به عن مسخ الدستور، ولكنه لم يتم فهم يتجاوزن إلى الخطة الأخرى التي يحاولون تنفيذها اليوم».

ثم قال ردا على سؤال المراسل الذي ذكر فيه أنه لا يعتقد براءة الإنجليز في هذه المؤامرة: «وأؤكد أنه ليس للإنجليز ضلع في المؤامرة ولكنها بعد ظهورها كانت فرصة للوصول إلى مطالبهم» وقال «هذه خلاصة رأيي في حقيقة الأزمة منذ البداية وكلما مضى يوم بعد يوم زادتني الحوادث اقتناعا به، وأدلة محسوسة على صحته» ثم قال: «إن الإنجليز لم ينشئوا الأزمة لأن الأزمة نشأت قبل المفاوضة بل نشأت لإحباط المفاوضة والوصول من وراء ذلك إلى إلغاء الدستور» ثم قال: «فلا يسعني أن أعتقد أن كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وأن التوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية: هنالك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين».

وفي اليوم التالي أي في ١٠ سبتمبر عقب على المقال الأول بمقال آخر نشر في العدد رقم ٢٢ تحت عنوان «الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها» قال فيه: «أتستطيع الرجعية أن تظن ظنا أم تتوهم وهما أنها هي التي طلبت ذلك - يشير إلى الاستقلال - فكان، أو أنها كانت تطلبه على أي وجه من الوجوه فيكون؟ أتستطيع أن تذكر لنا كلمة واحدة قالتها في سبيل ذلك أو تدبيرا واحدا دبرته أو نية واحدة أظهرتها بأي نوع من أنواع الظهور؟ لا: إن الرجعية لا تستطيع أن تظن ذلك ظنا أو تتوهمه توهما، ولا تستطيع إلا أن تعرف ما يعرفه كل إنسان ولا يخفى على إنسان» في يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ظهر في ميدان المساجلة مجهول أمضى مقالا بحرف «ص» نشر في العدد رقم ٢٥ تحت عنوان «رأي في الأزمة الحاضرة» ذهب كاتبه إلى ما راد عباس أفندي العقاد من حيث الأزمة المنوه عنها فقال: أولا: إن الأزمة أزمة الرجعية، وعلل ذلك بقوله: «ولا تستغرب من الرجعيين في مصر الجرأة على تدبيرها لأنهم لم يطمئنوا قط إلى حكم الأمة» ثم قال: «أما دكتاتورية محمد باشا محمود فقد اعتمدت حقيقة كل الاعتماد على

تأييد اللورد لويد ولكن اللورد لويد لم يكن يستطيع وحده إجراء الانقلاب لولا أن ساعدته الرجعية بكل ما تملك من دسيسة وسلطان فلما عملت وزارة العمال على تبديل الحال في مصر سعت الرجعية في إنجلترا ليكون هذا التبديل في صالحها. فيحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا، فلما لم يفلح في هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية. أرادت من وزارة النحاس باشا أن يكون آلة الاعتداء على حقوق الأمة ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا فاستقالت حكيمة كريمة، وهنا لم يكن للرجعية بد من إحداث الانقلاب الحالي إلى أن قال: وأبلغ من كل ما تقدم أن بوادر الأزمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية أن تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين، واضطرت إلى تأجيل النظر في ذلك إلى ما بعد عودة الوفد الرسمي وأن الرجعيين كانوا يعملون لإحباط المفاوضة. فلا نعقل أن تكون الحكومة البريطانية قد اشتركت معهم في هذا التدبير».

وفي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٢٦ من جريدة المؤيد تحت عنوان: «الرجعيون والإنجليز المحليون» استهله بقوله «في الخطاب المفصل الذي أرسله إلينا صديقنا (ص) بيان واف للرأي القائل بأن الأزمة الحاضرة في مصر هي أزمة الرجعية قبل غيرها، وأن الانجليز لم يخلقوا الأزمة وإنما حاولوا ويحاولون أن يستفيدوا عنها بعد خلقها وهذا الرأي هو رأينا الذي لا تزيدنا الحوادث إلا اقتناعاً به ووثوقاً منه، ولا يدعونا إلى تقريره وتوكيده إلا أن يعرف المصريون الحالة على حقيقتها، ويعلموا أصول الدسيسة من أين تنجم وإلى أي غاية تسعى، فإنها - أي الرجعية - في سبيل الاستعداد لمسخ الدستور، تحتضن الأذناب الذين لا يستحقون في شريعة الوطنية والانسانية والأخلاق إلا النبذ والإهمال والتحقير. فتجني بذلك على ضمير الأمة جناية شديدة الفتك بعيدة القرار».

وبتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٣ و ٣٥ ورقم ٣٦ نشر عباس أفندي العقاد مقالين: الأول منهما تحت عنوان «سيعدل الدستور ولكن كيف» والآخر تحت عنوان «الرجعية هي العدو الأكبر في الأزمة الدستورية الحاضرة» نحا فيهما منحى المقالات السابقة.

ومن حيث إنه بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ قضت محكمة النقض والإبرام المصرية أن العيب في الذات الملكية قد يكون بطريق التعريض كما يكون تصريحا وأن للمحاكم أن تبحث موضوع المقال المطروح أمامها لاستظهار ما قد يكون فيه من الأمور المعاقب عليها، وأن ذلك يقتضي الذهاب في تأويل معانيه لتعيين من يكون قد أريد بالمطاعن وعملا بهذا المبدأ بحثت المحكمة المذكورة القضية التي كانت تنظرها وجاء في حكمها: إنه يتبين أن المقال يشمل العبارات المبينة في تقرير الاتهام، وهي في مدلولها تسند العيب إلى الذات الملكية التي تعينت من مرامي ألفاظه وعباراته. إلى حد يصعب صرفه إلى غير حضرة صاحب الجلالة. ولا عبرة إلى استناد محكمة الجنايات إلى ماضي المتهم تدليلا على حسن نيته، إن مجرد نشر عبارات مع العلم بمضمونها تقطع بسوء النية.

ومن حيث إنه مما تقدم يكون لهذه المحكمة الحق في إنزال العقاب بالمتهمين متى ثبت لديها أن المقالات موضوع المحاكمة تشمل عيبا في حق الذات الملكية سواء كان هذا العيب قد أسند إليها تصريحا أو تلميحا. وكما أن لها الحق أن تستنتج ذلك من مدلول العبارات ومرامي الألفاظ الواردة بالمقالات ولا يمنعها إذن من مؤاخذة المتهمين كون العيب لم يكن مسندا لحضرة صاحب الجلالة الملك تصريحا، وذلك بخلاف ما ذهب إليه الدفاع عن المتهم الثاني من قوله: أن العيب المعاقب عليه بالمادة ١٥٦ من قانون العقوبات المطلوب تطبيقها إنما يجب أن يكون إسناده مباشرة وصراحة للذات الملكية. فأما قوله «صراحة» فقد تبين مما تقدم أن التفسير الصحيح للمادة ١٥٦ هو ما ذهبت إليه محكمة النقض والإبرام بأن العيب لا يجب أن يكون موجها مباشرة لأنه موجه إلى الوزارة الحالية فهذا هو الموضوع المطلوب من المحكمة الفصل فيه. ※

دفاع

مكرم عبيد

※※ يا حضرات المستشارين:

لقد سمعتم مرافعة النيابة وتبينتم ما فيها من جهد - بل واجتهاد - في التدليل والتخريج والتأويل، ولو أنكم تفضلتم فألقيتم نظرة واحدة إلى خارج المحكمة حيث القوات تتوزع وتتجمع. وأخرى إلى قفص الاتهام في ذاته لاقتنعتم بأن القضية المعروضة على حضراتكم إن هي إلا مأساة ينفطر لها القلب، أكثر منها قضية ينسجم لها البيان.

ذلك هو الوضع الصحيح للقضية. فهي مأساة أمة تمثلت في مأساة فرد. ولكن النيابة رأت أن تتملص من الجوهر إلى المظهر فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هي أشبه الصور بالحق، وإن لم تكن من الحق في شيء. وفي ذلك خطر هو كل الخطر، فإن أخطر الباطل وأشده تضليلا ليس ما بينه وبين الحق هوة سحيقة. بل هو الذي ينفصله من الحق ظلاء خارجي أو قشرة رقيقة. لذلك أرى واجبا لزاما علي أن أعرض للمحكمة الصورة الحقيقية لهذه القضية. مجردة من كل طلاء، عارية من كل رياء. وأن أبرز ما خفي من عواملها وما ظهر. إذ بغير ذلك لا يتسنى لي أن أقوم بمهمة الدفاع فيها.

والواقع أن هذه القضية التي تدور في الظاهر بين النيابة والأستاذ العقاد هي في الحقيقة بين الرجعية والدستور، أو هي بالأحرى بين مبدأي التأخر والتقدم، أيا كان الشكل الذي قد يتخذه كل من هذين المبدأين أو الاسم الذي يتسمى به في مختلف الأزمنة والظروف، وما العقاد إلا خصم للرجعية عنيد، انهال عليها بضربات قتالة رأت ألا قبل لها بها فاعتزمت أن تنكل به قبل أن ينكل بها، ولما لم تقو على مجابهته وجها لوجه فرت إلى السدة الملكية تتعلق بركابها وتتمسح بأعتابها ولم تستح أن تتخذ منها ستارا لعيوبها فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب فيها.

ولكن: ما هي الرجعية التي عناها العقاد؟؟ هي كل فكرة أو هيئة أو شخص مسئول عن العبث بالدستور، الذي استماتت العقاد في الدفاع عنه يقضي بأن الملك غير مسئول وأن ذاته مصونة فلا يمكن أن ينصرف لفظ الرجعية إلى الذات الملكية لا موضوعا ولا قانونا.

يا حضرات المستشارين:

لو أن هذه القضية هي الوحيدة من نوعها لجاز أن يكون تصويرنا لها وتعليلنا لأسبابها محل ريبة وتشكك ولكن الدليل لا يعوزنا على أن الرجعية في صراعها الدائم مع خصومها طالما لجأت إلى مثل هذا السلاح المعيب وهو التحكك بالعرش وشخص الجالس عليه. من غير أن يكون للعرش أي شأن من قريب أو بعيد في الخصومة. وإليكم بعض الأمثلة على ما ذكرناه، وهي أمثلة رائعة لا يأتيها الباطل من أي ناحية من نواحيها:

منذ أمد بعيد ينيف على الألف وتسعمائة سنة، ظهر بين الناس رجل من رجال الله الأطهار وهو كلمة الله وروح منه، ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا لا يكاد يكون لجسمه غطاء ولا مأوى، حتى أنه كان يقول عن نفسه: «أن لطيور السماء أوكارها وليس لابن الإنسان مأوى» وكانت رسالته إلى الناس أن اعبدوا الله عبادة الروح والحق، وانبذوا من الدين تقاليد الرجعيين من رجاله. إذ هي ليست من الدين في شيء.

خصومة دينية كما ترون ولكن الرجعيين من رجال الدين لم يجدوا سبيلا للانتقام من خصمهم إلا أن ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش، ورغم قوله صراحة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فإنهم شكوه إلى الحاكم الروماني مدعين أنه طعن على قيصر، ولو أن لخصومه لسان النيابة المصرية لقالوا بالأمس ما تقوله هي اليوم «إنه عاب في الذات الملكية».

ألا ترون يا حضرات المستشارين كيف تلجأ الرجعية - حتى في المسائل الدينية البحتة التي لا شأن لها بالملك ولا بالملوك إلى الانتقام بالملكية؟ وهل لا ترون بأن الرجعية هي اليوم والأمس وإلى الأبد واحدة في تفكيرها وفي تدبيرها.


العقاد


مكرم عبيد

ساقوا المسيح عيسى إلى المحاكمة فأخذت الحاكم الروماني روعة من رنة صوته وجلال صمته، ولما تبينت له براءته من كل عيب أسقط في يده، ولم يدر ما عساه يفعل، ولعله أحس في النفس حسرة، أو خشي من الضمير ثورة فأمر بإحضار إناء من الماء وغسل يديه أمام الجميع ثم صاح قائلا: إني بريء من دم هذا البار. ولكن والأسفاه فإنه رغم مسئوليته وإعلان حياده التام: سلم المتهم البريء إلى خصومه من الرجعيين - وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين وأمر جنده من الرومان أن يرقبوا التنفيذ، فأحاطوا به مهددين مستهزئين.

يا حضرات المستشارين:

لم يكد يمضي على هذا الحادث الجليل بضع مئات من الأعوام حتى ارتفع من صحراء العرب صوت عذب ينذر الكافرين فتهلع النفوس لدويه، ويبشر المؤمنين فتتفتح القلوب لوحيه. بدأ الرسول الأمين بتبليغ رسالته إلى بني قومه فدعاهم إلى عبادة ربه، وتحطيم أصنامهم وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الأمانة والقناعة والوداعة أن يسندوا إليه مطمعا خفيا، أو يظنوا أنه كان يبغي من متاع الدنيا شيئا. وهو الذي كان يدعو باسم ربه إلى الآجلة دون العاجلة.. ولكن زعماء الجاهلية الأولى - والجاهلية هي الرجعية - اتهموه بالطعن على حكمتهم، والطموح إلى سلطانهم، وتمادى بهم الوهم إلى حد أن عمه أبا طالب فاتحه في ذلك ولوح له بالحكم والسلطان على أن يتنازل عن رسالته فما كان من النبي الكريم إلا أن قال له: «يا عم! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

إذن: يستخلص من هذين المثلين الرهيبين اللذين هما محل إيمان وإجماع أن الرجعية لا تتورع حتى في المسائل الدينية في التحكك بنظام الملك أو بشخص ولي الأمر، وذلك تحقيقا للنكاية لهم وإمعانا في الانتقام منهم. فكيف الأمر في قضية كقضيتنا هذه تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية؟ هل من عجب إذا كانت الرجعية السياسية أو الحكومية تنقم على الأستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادئ والنظم الدستورية فترميه بتهمة العيب في الذات الملكية.

أما رواية أكبر رأس في الدولة التي دستها النيابة في مرافعتها أمام قاضي الإحالة بأن قالت «ولكن المقالات قد حوت أكثر مما يظن وأبلغ في الإجراح، وهو المساس بأكبر رأس في الدولة تلك العبارة التي إذا قيلت لا يمكن أن تنصرف لأي شخص سوى جلالة الملك» فليسمح لي حضرة رئيس النيابة بأن دسه لهذه العبارة في مرافعته إنما هو استغلال غير نزيه من جهة وغير مبني على أي أساس من الحق أو الواقع من جهة أخرى.

فبفرض أن العبارة قيلت في مجلس النواب بالشكل الذي قيلت به فليس للنيابة قانونا أن تستعملها ضده كدليل أو بأي طريقة من الطرق، إذ ليس لها أن تحاكمه عليها طبقا لنص الدستور. هذا فضلا عن أن العبارة كما روتها النيابة ليست صحيحة وإني أتلو عليكم ما جاء في كوكب الشرق من مقال للعقاد في هذا الصدد ونشره الكوكب ١٩ يونيو ١٩٣٠.

«إن البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانون والدستور. فإن مصر دولة ملكية دستورية تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر، وتعد حماية الدستور لها فريضة لا تنسى، وواجبا أقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء».

وهذا صريح في أن العقاد لم يشر بتلك العبارة إلى جلالة الملك، بل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الدستور، وقد سبق أن ذكرنا أن شخص الملك غير مسئول عن مثل هذا الاعتداء، إذ المسئولية تقع على عاتق الوزراء.■

عريضة المعارضة للملك فاروق في ١٦ أكتوبر ١٩٥٠

■■ يا صاحب الجلالة

إن البلاد لتذكر لكم أياما سعيدة كنتم فيها الراعي الصالح والرشيد، وكانت تحف بكم أمة تلاقت عند عرشكم آمالها، والتفت حول شخصكم قلوبها، فما واتتها فرصة إلا دلت فيها على عميق الولاء والوفاء، وما العهد ببعيد بحادث القصاصين، وقد أنقذكم الله من مخاطره وهو أرحم الراحمين.

واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث، ومن أسف أنها كلما اتجهت إلى المعرش في محنتها، حيل بينه وبينها لا لسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا في الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون النصح وأساءوا التصرف، بل إن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائي الخاص بأسلحة جيشنا الباسل، حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم، كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور، وأن النظام النيابي قد أضحى حبرا على ورق منذ عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصدرت مراسيم يونيه سنة ١٩٥٠ التي قضت على حرية الرأي فيه وزيفت تكوين مجلسنا الأعلى، كما زيفت الانتخابات الأخيرة من قبل تكوين مجلس نوابنا.

ومن المحزن أنه ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد وخارجها أنباء هذه المساوئ وغيرها من الشائعات الذائعات، التي لا تتفق مع كرامة البلاد، حتى أصبحت سمعة الحكم المصري مضغة في الأفواه، وأمست صحافة العالم تصورنا في صورة شعب مهين، يسام الضيم فيسكت عليه، بل ولا يتنبه إليه، ويساق كما تساق الأنعام، والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلي مراجله، وما يمسكها إلا بقية من أمل يعتصم به الصابرون.

يا صاحب الجلالة

لقد كان حقا على حكومتكم أن تصارحكم بهذه الحقائق، ولكنها درجت في أكثر من مناسبة على التخلص من مسئوليتها الوزارية بدعوى «التوجيهات الملكية» وهو ما يخالف روح الدستور، وصدق الشعور، ولو أنها فطنت لأدركت أن الملك الدستوري يملك ولا يحكم، كما أنها توهمت أن في رضاء الحاشية ضمانا لبقائها في الحكم، وسترا لما افتضح من تصرفاتها، وما انغمست فيه من سيئاتها وهي لا تزال أشد حرصا على البقاء في الحكم وعلى مغانمه منها على نزاهته - ولهذا لم نر بدا من أن ننهض بهذا الواجب فنصارحكم بتلك الحقائق ابتغاء وجه الله والوطن، لا ابتغاء حكم ولا سلطان، وبرا بالقسم الذي أديناه أن نكون مخلصين للوطن والملك والدستور وقوانين البلاد. وما الإخلاص لهذه الشعائر السامية إلا إخلاص الأحرار الذي يوجب علينا التقدم بالنصيحة كلما اقتضاها الحال.

يا صاحب الجلالة

إن احتمال الشعب مهما يطل فهو لا بد منته إلى حد. وإنا لنخشى أن تقوم في البلاد فتنة لا تصيب الذين ظلموا وحدهم، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالي وسياسي وخلقي، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة، بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد.

لهذا كله، نرجو مخلصين أن تصحح الأوضاع الدستورية تصحيحا شاملا، وعاجلا، فترد الأمور إلى نصابها، وتعالج المساوئ التي تعانيها مصر على أساس وطيد من احترام الدستور، وطهارة الحكم، وسيادة القانون، بعد استبعاد من أساءوا إلى البلاد وسمعتها، ومن غضوا من قدر مصر وهيبتها، وهشوا فشلا سحيقا في استكمال حريتها ووحدتها ونهضتها، حتى بلغ بهم الفشل أن زلزلوا قواعد حكمها وأمنها وأهدروا فوق اهدار اقتصادها القومي، فاستفحل الغلاء إلى حد لم يسبق له مثيل، وحرموا الفقير قوته اليومي.

ولا ريب أنه ما من سبيل إلى اطمئنان أية أمة لحاضرها ومستقبلها إلا إذا اطمأنت لاستقامة حكمها، فيسير الحاكمون جميعا في طريق الأمانة على اختلاف صورها، متقين الله في وطنهم، ومتقين الوطن في سرهم وعلنهم.

والله تجلت قدرته هو الكفيل بأن يكلأ الوطن برعايته، فيسير شعب الوادي قدما إلى غايته.

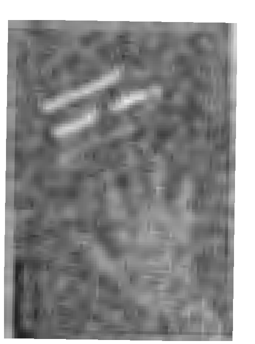
١٦ أكتوبر ١٩٥٠.■

الإمضاءات

إبراهيم عبد الهادي، محمد حسين هيكل، مكرم عبيد، محمد حافظ رمضان، عبد السلام الشاذلي، طه السباعي، مصطفى مرعي، عبد الرحمن الرافعي، إبراهيم دسوقي أباظة، أحمد عبد الغفار، علي عبد الرازق، رشوان محفوظ، حامد محمود، نجيب إسكندر، زكي ميخائيل بشارة، السيد سليم.

لغة السياسة و سياسة اللغة

عبد السلام المسدّي



** اللغة سلطة في ذاتها، والسياسة هي السلطة بذاتها ولذاتها. فأما اللغة فالإنسان يفعل بها الفعل على الناس، وكثيراً ما لا يكون واعياً بسلطتها ولا بخطرها. وأما السياسة فأصحابها لا يتصورون أنفسهم إلا وهم يفعلون الأفعال بالناس على الناس، وبعضهم يمارس اللغة وهو واع بقوتها إذ تشد أزر سلطته، وبعضهم لا يعي أن وزن سلطانه بوزن سلطة اللغة. وفي مسافة ما بين هؤلاء وأولئك، تزدهر الحياة أو يخبو وهجها.

السياسة هي السلطة الحاضرة، واللغة هي السلطة الغائبة، والذين يصوغون الأحلام الإنسانية يرون أن العالم كان يمكن أن يكون أسعد لو أن السياسة قلصت من حضورها في وعي أصحابها، وأن اللغة قلصت من غيابها عن جمهور الناس المحكومين بالسياسة.

منذ صباح التاريخ، يوم بدأ الإنسان يدون لمن بعده مآثره، كانت اللغة أداة أساسية من أدوات السياسة. لم تكن أهميتها تقل عن أهمية المال وأهمية الاحتماء بالعصبية. غير أن وزن اللغة في استواء أمر السياسة قد تطور بتطور آليات الإنسان في تواصله مع الإنسان، ثم تضخم عندما أصبحت المعلومة ملكاً مشاعاً بين الحكام والمحكومين.

إن ذلك التطور الذي آل إلى انتصاب اللغة سلطة داخل سلطة السياسة قد مر بمحطات كبرى، هي تلك المنعرجات التي آلت بالمعلومة إلى الملك المطلق المشاع: المحطة الأولى نشأة الصحافة، والثانية ظهور البث الإذاعي، والثالثة ظهور البث التلفزي والرابعة استحداث الإنترنت.. إنها كالمراحل الجنينية التي استوى فيها سلطان اللغة، وتم فيها الاعتراف لها بسلطانها. ومنذئذ سيكون من الغباء أن نعزل سلطة السياسة عن سلطة اللغة، وسيكون وجيهاً أن يسأل السائل وهو ينخرط في ميثاق قراءة الهم الإنساني: أيهما أكثر اقترافاً للإثم، سياسي يزهد في اللغة، أم لغوي يستهجن السياسة؟ وقد يبحر السؤال بصاحبه بعيداً: أيهما أحق بالكشف: لغوي يحترف تسويغ السياسة، أم سياسي يتجنى على اللغة؟

إن اللغة في الوجود أداة مطلقة، وهي في السياسة قيمة مقيدة، ولكنها في الإعلام وظيفة متحكمة. وتجري العادة بأن الناس يهتمون بالحدث السياسي دون أن ينتبهوا ملياً للصياغة التي نحكي بها تفاصيل الحدث، وبذلك تراهم يطابقون بين الحدث السياسي والخبر السياسي، فهم ينزلون الأول منزلة المدلول والثاني منزلة الدال. فلا يخطر بالذهن لديهم أن يسعوا إلى تشقيق هذا عن هذا. لكأن رسالة الإبلاغ واحدة لا تصدر إلا عن أداء واحد. أو كأنما الخبر هو الخبر مهما تنوعت صيغه أو تلونت تجلياته. ومن وراء ذلك كان الإخبار عن الحدث السياسي فعل في مطلق البراءة، بحيث لا تنحشر فيه مقاصد صانعه حين يصنعه.

عند بداية الوعي بوزن اللغة في صناعة الفعل السياسي، يتنابك سؤال ثم يغازلك بتقلباته كأنه ألوان من الطيف تتموج على صفيحة من المعدن المصقول والشمس بازغة عليه: أيهما أشد إغراء وأكثر إمتاعا: أن نبحث في السياسة من خلال اللغة، أم أن نبحث في اللغة من خلال السياسة؟ أو قل: أيهما أوقع في النفس وأيهما أجدر بإجلاء الحقائق في زمن دفن الحقائق: أن نعيد اكتشاف الحيثيات التي تصنع سلطة السياسة، أم نعيد اكتشاف اللغة كي نقر لها بالسلطة التي كانت محتجبة عنا؟

حين يصدق منا العزم على الانخراط في مغامرة الكشف الجديد ستتبدل أمامنا أشياء كثيرة، وستتغير شيئا فشيئا مقاييسنا في إرسال الأحكام الجاهزة على السياسة وعلى اللغة. والرحلة إلى مدارات الوعي الجديد لها جواز سفر وحيد، هو أن نمسك أنفاسنا كي لا نتعجل الحكم القاطع، وأن نجعل مرامنا الذي نتغياه إعادة ترتيب بيتنا الإدراكي، ولن يسلبنا ذلك شيئاً من إرادتنا في اتخاذ الموقف الملائم تجاه الأحداث حسب ميولنا أو حسب سلم القيم الذي نرتضيه. ولكن البحث في علاقة السياسة بسلطة اللغة يريدنا على أن نفصل فصلاً واعياً بين فهم أسرار العلاقة القائمة بين الإنسان ومراداته من الكلام، وفهم حيثيات الفعل السياسي قبل تزكيته أو إدانته.

ليس مألوفاً عندنا أن نبحث في الآليات المحركة للغة في مجال السياسة؛ لأننا لم نتشبع بعد بنواميس استراتيجيات الخطاب عامة وبقوانين استراتيجيات الخطاب السياسي تخصيصاً. فقد يدفعنا الحدث السياسي إلى الوقوف برهة على اللغة، وقد نستشهد ونحن نبحث في اللغة بقولة جاءت على لسان أحد السياسيين، ولكننا لم نعهد اتخاذ التقاطع بين الظاهرتين مجالاً للبحث والاستكشاف. كل ذلك غير متواتر، ولكن الأقل تواتراً عندنا هو أن يكون لأحدنا موقفه المعلن من السياسة وأحداثها، وأن يكون له سجله المحفوظ في ذاكرة الجمهور بكل مكونات الخطاب النضالي الملتزم بقضايا الأمة ومرجعيات هويتها، ثم يقدم على تعاطي الشأن السياسي، من حيث هو حدث ومن حيث هو لغة، بمنهج موضوعي يرمي من ورائه إلى إماطة اللثام عن المسكوت عنه؛ كي يتسنى الكشف عن النواميس الخفية المتحكمة في آليات التفكير عند الإنسان.

إن البحث في السياسة بتجرد منهجي، لاسيما عن طريق فنون تحليل الأقوال، يقتضي مصادرة مبدئية هي الحياد الفكري الضامن للتشخيص العلمي، ولكن الموضوعية في البحث اللغوي والدلالي لا تلغي وقوف الباحث على درجات السلم القيمي، بل كثيراً ما يكون الانتماء الأخلاقي والالتزام بمواثيق الحق الإنساني والانخراط في معايير العدل المطلق، هي التي تحفز الباحث على أن يرى في علاقة اللغة بالسياسة ما لا يراه غيره. ذلك أن الشائع بين الناس هو أن السياسي يهتم باللغة اهتماماً عارضاً، واللغوي يتابع القضايا السياسية بوصفه كائناً اجتماعياً أكثر مما هو ذو خصوصية معرفية.

نحن نرى إذاً كيف تعددت دوائر النظر كلما حاولنا إلقاء النور على الجسور الواصلة بين السياسة واللغة، وتتشعب أدوات الرصد والتحليل كلما خفيت علينا السلطة التي يكتسبها الخطاب. ومرد هذا الخفاء أن مفهوم السلطة يستحوذ عليه الحدث السياسي، فلا يخطر على بال الجمهور في الشائع من الأحوال أن يقيم اقتراناً بين اللغة وهي إبلاغ، واللغة وهي صانعة للفعل السياسي ومحققة لحيثيات إنتاجه. أما أن تتحول اللغة أحياناً فتمسي هي جوهر الحدث السياسي في ذاته ولذاته، فهذا مما لا يستوعبه الوعي العام إلا إذا انبرى الدارس اللغوي يبصره به.

بعد لحظة الوعي الأولى بسلطة اللغة في مجال السياسة يكفينا أن نقف عند الكلام السياسي على أنه نص يحكي صدى عالم كامل من المعاني، ويكفينا أن نستل من السياق كل عبارة صنعت دهشتنا في برهة، ثم غمرها سيل الأخبار وغطاها تعاقب الأحداث. سنرى بأنفسنا عجباً، وسنعيد اكتشاف التوالج المذهل بين كل الدوائر المرسومة أمامنا كالأطياف المتموجة.

إن لكل لغة من لغات البشر قوانين تنتظمها وتشد أوصالها بحبل متين لا تراه العيون المجردة، كالأسلاك المعدنية التي تتخلل الإسمنت المسلح، وتصبح تلك القوانين أعرافاً يتخاطب بها أفراد المجموعة المنتسبون إليها بشكل أصلي أو بشكل طارئ، وداخل تلك القوانين العامة قوانين أقل منها عموماً، تجعل للكلام الأدبي ترتيباته الخاصة، وللكلام القانوني حيثياته، وللكلام العلمي قواعده أيضاً. وتجعل للكلام السياسي ضوابطه وقوانينه بحسب تصور المتكلم للمعايير الشائعة بين أهل ذلك الحقل الشاسع الفسيح، الذي لا يخرج من تحت سقفه كائن مهما كان. فمن جهل تلك الضوابط والقوانين تحدث في السياسة وهو غافل عن أسرار لغة السياسة حتى ولو كان ماسكاً بزمام القرار، ومتربعاً على كرسي المناصب، فيأتي خطابه السياسي كخطاب الهواة في لعبة السياسة. ومن علم تلك الضوابط والقوانين وخبرها تحدث في السياسة وهو واع بأسرار لغتها، ماسك بأزمتها، حتى ولو لم يكن يوماً متبوئاً لمنصب القرار، فيكون إذا تحدث في السياسة قادراً على أداء الخطاب، صانعاً لأنموذج الاحتراف.

صفحات من:
السياسة وسلطة اللغة
د. عبد السلام المسدّي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية - ٢٠٠٧

لا يقوم أمر السياسة ولا يهون موردها إلا إذا أزرها المال وعضدها السلاح، وتلك حقيقة قديمة غدت من بداهة العقول. أما الآن فقوة المال وقوة الأعتاد في حاجة إلى سلاح الخطابة وجزء من مأساة الجماعة أن اللغة كلما ظن أهلها أنها فصيحة بنفسها، بليغة بذاتها، ازدادوا زهداً في علم صناعة الخطاب وفي علم تفكيك الخطاب، فيزداد بعدئذ ابتعادهم على الركب في ملحمة التسابق الكوني على كسب معركة الخطاب.

هل وراء الحدث السياسي الواحد حقيقة تاريخية واحدة تتسلط عليها رؤى متعددة، أم أن الرؤية السياسية للحدث الواحد تنم عن حقائق متعددة ثم إلى أي مدى تساهم اللغة في صناعة التخييل حتى نرى الحقيقة متعددة حينما تكون حقيقة واحدة، أو نتأول الرؤى المتعددة على أنها مظاهر لا تنوى وراءها إلا حقيقة واحدة؟

عندما غزا العراق الكويت في (٢/٨/١٩٩٠) اجتمع في القاهرة وزراء الخارجية العرب مساء ذلك اليوم، إذ صادف أن كانوا يشاركون في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي، وصدر عنهم ما صدر، ثم تعين أن تلتئم في القاهرة قمة عربية: فانعقدت بعد أسبوع واحد. وكان كل شيء قد تم توظيفه: عربياً ودولياً، وحين وفد القادة إلى القاهرة كان الحرج قد بلغ ذروته أمام ذلك الوضع الاستثنائي الرهيب، فأغلب القادة أدركوا أن اللجوء إلى قوة عربية أو قوة إسلامية لتحرير الكويت، بدل القوة الدولية، لن ينفع كثيراً، بل قد يكرس أمراً واقعاً، ولكن الانضمام إلى تلك القوة الدولية كان خياراً موجعاً لن تتقبله الشعوب العربية باطمئنان كامل. في تلك اللحظة التي مثلت قمة التمزق أمام أصعب المعادلات: إما أن يكرس الاحتلال أو يقبل التحالف، طلع الرئيس السوري يومئذ (حافظ الأسد) بقولة يروي الأمين العام للجامعة العربية ساعتها (الشاذلي القليبي) في كتابه: (الشرق والغرب ص ٨١-٨٢) أنها أسعدت الجميع فتبنوها، وكانت لهم كحبل النجاة الذي يخرجهم من مأزق الحرج. لقد قال: (إن القوات السورية ستأتي لا لضرب العراق وإنما لحماية المملكة العربية السعودية).

هنا يقف الباحث الذي همه أن يرصد أفق العلاقة بين الحدث السياسي في ذاته والحدث اللغوي من حيث هو أحد التجليات الممكنة، فالأمين العام لجامعة الدول العربية يقول متحدثاً عن (حافظ الأسد) (إنه وجد الصيغة الملائمة التي يمكن أن تصون الشرف) فنحن أمام (صيغة) عثر عليها واحد من القادة العرب ولم يعثر عليها الآخرون فتلقفوها وسعدوا بها. إن المسألة، على بساطتها الظاهرة، متعددة الأبعاد بالغة التركيب، إنه القول السياسي قبالة الفعل السياسي، كأنهما حقيقتان اثنتان، كل واحدة مستقلة بذاتها ومستقلة بأثرها، بل كأنهما تتأسسان على انفصام جوهري.

إن اللغة هنا تشتغل خارج دائرة الوقائع السياسية المتعينة: فلا أحد بلغه أن المملكة السعودية قد استنجدت بأي قوة عربية لحماية أراضيها، ثم إن اعتزام الجيش العراقي الامتداد في غزوه إلى الأراضي السعودية افتراض روجه الأمريكان وقدموه على وجه اليقين، زاعمين أن ما لديهم من صور الأقمار الصناعية يؤيد طرحهم، ولكننا نعلم يقيناً أن (حافظ الأسد) كان يريد الولاء لدول الخليج أكثر مما كان يسعى إلى التقرب من الولايات المتحدة. وبعد هذا وذاك كيف نغفل عن طاقة اللغة في صنع التغييب: فالقادة العرب اجتمعوا في قمة القاهرة لغرض محدد لا هو ضرب العراق، ولا هو حماية السعودية، وإنما هو تحرير الكويت، فهذا هو العنصر الجوهري الذي غاب عن قولة (حافظ الأسد) التي ابتهج بها كل الذين انضموا إلى التحالف الدولي.

لك إذاً أن تتساءل: كيف يسير الكون؟ وهل التاريخ تحكمه الوقائع أم تحكمه الأفكار التي يصوغها الإنسان باللغة عن الوقائع؟ هو سؤال طرحه (هيجل) من قبل ولكنه خلص منه إلى الموازنة بين جدل التاريخ وجدل الفكر، ولم يكن من همه أن يبحث في اللغة من حيث هي لغة، ولا في اللغة إذ تؤثر تأثيراً إجرائياً فاعلاً في صنع الحدث أو في تغيير مجرى الوقائع. إننا هنا لا نضرب المثل السياسي في نية إرسال حكم معياري يمتدح القولة السياسية لأنها حمت ماء الوجه وصانت الشرف على حد عبارة الأمين العام لجامعة الدول العربية، ولا في نية إرسال حكم يستهجن تلك القولة لأنها انبنت على التسويغ عبر صيغة تخايل جزءاً من حقيقة الواقع في ضرب من تناظر المرايا إذا تقابلت أو تعاكست. إننا لا نصنع سلماً معيارياً لسببين اثنين، أولهما أن مرمانا الجوهري هو إثبات أن اللغة، في لحظة ما، تصبح هي بحد ذاتها سلطة، أما الثاني فهو ادعى للاعتبار وأعرق في غيابات التأمل الفكري المحض: فمن له أن يجزم بأن الحقيقة هي في هذا الشق من التأول دون ذاك؟ إن الحقيقة كينونة مغمورة غائبة ولا تحضر إلا إذا استدعاها الفكر، فترجيح هذا الوجه على ذاك هو شيء يصنعه الاستدعاء ويسمه الصوت المنادي لأنه ليس معطى محايثاً للحقيقة ولا هو معطى يتكشف طوعاً أو طبعاً.

إن القول السياسي لا يذعن إلى آليات القيمة إلا إذا كان إخباراً عن حقيقة عينية تنضوي تحت فحوص الإثبات، عندئذ فقط ينصاع علناً إلى الحكم إذ يدخل تحت طائلة الصدق أو الكذب: كالإخبار عن عدد الجيوش، أو عن عدد القتلى، أو عن حجم المبادلات التجارية، أو عن قيمة الصفقات وأرقام الصادرات والواردات. أما القول السياسي الذي يتحمل بالتقدير الظني أو بالتفويض الاعتباري فهو مستظل بسحابة النسبية المطلقة. القول الأول هو قول عن حقيقة الواقع المعيش، والقول الثاني هو قول عن تقديرنا نحن لذلك الواقع المعيش. في الأول تقف وظيفة اللغة عند حدود وصف الواقع كما هو فتقدم لنا عنه صورة فوتوغرافية، وفي القول الثاني ترسم اللغة لوحة نحاول نحن من خلالها أن نستشف صورة الواقع. ليس لواحد في الدنيا، كائناً من كان، أن يجزم على وجه اليقين القاطع بأن (حافظ الأسد) لم يكن صادقاً حين أرسل قولته التي أسلفنا، بل لا أحد بوسعه أن يقطع بأن القادة الذين تلقفوها لم يستشعروا بأن (حافظ الأسد) قد أحسن التعبير عن قناعاتهم الحميمة، مثلما يحصل للإنسان عندما يترجم له الشاعر المبدع والفنان الماهر عن خلجاته الذاتية، فيحس بأن المبدعين أفصح منه لساناً في تعبيرهم عن نفسه.

ولكن الأقوال السياسية تتفاوت من حيث توافرت على القرائن الشاهدة على صدقها أو الشاهدة على مجانبتها الحقيقة، والأمر كله معلق على مدى اقتران القول بالطاقة الإخبارية، ولكنه معلق أيضاً بحيثيات المكان. ففي علم الإبلاغ يقول اللسانيون إن قولك (وصل القطار في أوانه) لا يمثل خبراً، بينما قولك (إن القطار قد وصل بعد أوانه) يمثل خبراً. غير أن هذا الأنموذج من الأمثلة ينطبق على ما هو مألوف في المجتمعات الصناعية المتطورة، ومما لا شك فيه أن المعادلة ستنقلب لو تحدثنا عن مواقيت القطارات في جل بلدان العالم النامي، فقولنا فيه (إن القطار قد وصل المحطة في التوقيت المحدد له) سيكون هو الخبر فعلاً: لأنه هو الاستثناء وتخلفه عن موقته هو المتواتر.

السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحدة بدا لك الآخر، فإن لم يتكشف لك بوجهه فاعلم أنه ثاو وراء قرينه. وليس من قول في السياسة إلا خلفه فعل سياسي لأن القائمين على أمور العباد لا ينشدون أشعاراً وهم يسوسون، ولا يطمحون إلى صنع الجمال وهم يحكمون. وما من فعل سياسي إلا وهو ينتج بالضرورة خطاباً. فأما هو خطاب الحاكم فهو ما عتئذ امتداح وزهو وتبرير، وأما هو خطاب المحكوم فهو تظلم وارتياد إلى الأفضل. كان الفعل في السياسة هو الذي يجر اللغة إليه جراً، فهي أبد الدهر محكومة به. ولكن الوضع قد تغير، وتوشك الأدوار أن تنقلب فيه أحياناً، والسبب أن سياسة أمور الناس داخل الأوطان قد كانت هي الأصل وهي المبتدأ، وتأتي بعدها سياسة الروابط بين الوطن وسائر الأوطان في الأرض المعمورة. ثم حصل الانقلاب على مدار العقود، فأصبحت سياسة الوطن محكومة بشبكة العلاقات المعقدة القائمة بينه وبين سائر الأوطان.

إن الوقوف على الجسر الواصل بين الفعل السياسي والقول اللغوي الذي انبثق منه قد يمثل لحظة ممتعة لكل من يستهويهم سرد الأخبار، أو يعويهم إنعاش ذاكرة الأحداث، ولكنه سيمثل لحظة غنية لمن يستدرجهم كشف الأسباب التي تقبع خلف الوقائع التاريخية، ولمن يستهدهم إماطة اللثام عما سكتت عنه وكالات الأنباء أو غيبته نشرات الأخبار أو خاتلته افتتاحية الصحف. تفكيك الخطاب عدسة مجهرية عالية الجودة تحضننا أن نستطيع كيف تجري معاملات السياسة، وكيف يحيك أهل الشأن والقرار نسيج الأحداث. قد نكون ممن يحملون هموم السياسة، ويعشقون استكشاف الباطن من خلال الظاهر، ويسلمون بأن المصرح به في عالم السياسة شيء نزير إذا ما قيس بالمخفي منها سواء ما انحجب بنفسه أم ما غيبه الحاجبون، وقد نكون من الذين أرقهم إلقاء السؤال حتى تملكهم الهوس، فأصبحوا مولعين بإسقاط الأقنعة التي يصطنعها الإعلام في عصر الخطاب الكوني الموغل في المكر والمباهي بالدهاء، أو ربما نكون شغوفين بفك الشفرة التي بها يلعب صناع القرار الدولي بعقول الأفراد والجماعات. في كل تلك الاحتمالات سيكون ملاذنا الوحيد هو اللجوء إلى علم تفكيك الخطاب، فهو الكاشف لما تواري من أسرار.

في (٦/٦/١٩٨٢) اجتاحت جيوش إسرائيل لبنان، وكان (أرييل شارون) يومئذ هو مهندس عملية الاجتياح. كانت إسرائيل تستهدف خطى القيادات الفلسطينية، لأنها

عرفت أن الشرعية التاريخية لا تغتصب اغتصابا، فراحت تحاول النيل من شرعية المؤسسة الفلسطينية الرمزية، ثم استبدت بالجنوب اللبناني واصطنعت هناك جيشا حليفا، فانبثقت منظومة المقاومة، وكانت من أشد المنظومات وأعتاها، لم يفلح تفوق السلاح الجوى في خضد شوكتها، وكان مكشوفا للعالم كافة أن الجيش الإسرائيلي وحلفاءه يتكبدون خسارات غير مقدرة، حتى انتهى بهم الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع وإخلاء الجنوب اللبناني (٢٤/٥/٢٠٠٠). عندئذ برز توظيف اللغة عبر آلية المخاتلة اللفظية بما يروغ على دلالات الحقيقة. كان الخطاب الإسرائيلي ـ السياسي والإعلامي ـ ومن ورائه خطاب الكتل الضاغطة في العالم الغربي يعلن أن إسرائيل قد قررت الانسحاب من جنوب لبنان، ورددت كثير من أجهزة الإعلام العربية عبارة (الانسحاب) بمختلف صيغها الاشتقاقية: الاسمية منها والفعلية. وبدا ذلك كالانخراط اللاواعي في لعبة اللغة، أو كالوقوع الأعشى في فخ آليات الخطاب المخاتل. فانبرى القائمون على أمر المقاومة والذين حملوا لواء تحرير الجنوب طيلة عقدين يصححون اللغة باللغة: أن الإسرائيليين لم يخرجوا وإنما أطردوا، وأن ما اصطلحوا عليه بالانسحاب إنما هو الهروب.

اللغة ذات كينونة سياسية، لكل سلطة فيها سلطة مضادة، وكثيرا ما يتكتم المنهزم عن هزيمته العسكرية فيطلق على عملية سحب جيوشه عبارة إعادة الانتشار. ولكن مطاطية اللغة تقف عند اشتدادها الأقصى قبل أن يتمزق الحبل الموتور، فموسوعات التوثيق السياسي ـ على إيغالها في الانحياز تحت كتل الضغط ـ كانت محمولة على الإقرار: (اجتاز آخر الجنود الإسرائيليين الحدود اللبنانية فارين قبل الموعد الذي أعلنوا عنه بخمسة أسابيع، وهكذا خرجوا من المستنقع الذي صنعوه لأنفسهم في ذلك الذي سموه بالشريط الأمني في جنوب لبنان) على حد ما جاء في (كرونيك ٢٠٠٠ ـ ص ٤٦) ولا أحد بوسعه أن يفترض أي ذرة من تعاطف تلك الموسوعة مع العرب وقضاياهم.

ليست المسألة شكلية، وليست تمرينا لغويا بصيغ تعبيرية متنوعة، إنها ترتد إلى جوهر الفعل السياسي. فهل مغادرة الغزاة جنوب لبنان إنجاز إسرائيلي أم إنجاز عربي؟ وهل هو ـ بالتالي ـ انسحاب أم طرد وإرغام؟ القضية في علاقة الفعل السياسي بالفعل اللغوي تعود إلى أن الكلام لا يحمل فقط رسالة دلالية، وإنما هو يشي بالموقع الذي يتخذه صانع الكلام من تلك الدلالة التي يتضمنها الخطاب. فكأن القول يدل بدلالتين: الأولى هي معانيه كما لو أنها قيلت مطلقة دون قائلها، والثانية هي تلك المعاني من حيث ركبها قائلها ضربا مخصوصا من التركيب. لنقل متوسلين برقائق المعرفة الحديثة: إن اللغة تدل بما

لغة السياسة و سياسة اللغة

السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر. فإن لم يتكشف لك بوجهه فاعلم أنه ثاو وراء قرينه، وليس من قول في السياسة إلا خلفه فعل سياسي

هي كلام وتدل بما هي علامات وقرائن وإشارات: لا يحلوها إلا الميثاق التواصلي بين متكلم ومتكلم إليه.

في الأسابيع الأواخر من العام ٢٠٠٣ تكاثرت ظاهرة في صفوف العساكر الإسرائيليين كانت فيما سبق تبرز بين الفينة والأخرى بشكل فردي منعزل، هي أن بعضهم تمرد على الأوامر ورفض المشاركة في حملات المداهمة والاقتحام التي تخلع فيها أبواب أبناء الأرض الفلسطينية وتدك ديارهم دكا. فأما الإعلام الغربي فنقل الخبر في حذر واقتصاد. وأما الإعلام العربي ففي مجمله تلقف الخبر بصوره وابتهج وهلل. إلا أن إحدى فضائياته ـ وهي المنار ـ قفزت إلى الوجه المضاد وكادت تستنكر الترحاب العربي، وقدمت الرؤية الأخرى: أن هؤلاء العساكر ما هم إلا جزء من منظومة قمعية استعمارية تريد الاستيطان بأرخص الأثمان، وأن موقفهم شاهد على جبنهم وعلى بسالة المقاومة الفلسطينية.

وتتساءل وأنت في الجوهر الأكمل من التزامك المطلق بالقضية: أي التأويلين أكشف للحقيقة؟ أما منبع سؤالك فهو ذلك المنعرج الدقيق الذي تقف فيه اللغة أسيرة بين فوهة الحدث كما هو، وفك الحدث كما يريد الإنسان أن يتصوره، وكما يريد أن يحمل الآخرين على تصوره. ولا شك أن الحدث قد هز مواقع السياسيين القائمين على خيار العنف حتى الإبادة، لذلك أتاحوا للعساكر الرافضين أن ينظموا ـ على غير ما جرت به العادة ـ مظاهرة يوم (١٦/١/٢٠٠٤): ليعلنوا فيها شعارهم وهو (شجاعة الرفض) ويردوا بذلك على تهمة الجبن والانخذال.. إننا هنا أمام آلية البدائل التي تتيح تأول اللغة بحرية، ولكنها لا تتيح أي حرية لتغيير الحدث. فمأزق الفعل السياسي يقابله انفراج واسع في زاوية الفعل اللغوي، لذلك يلتجأ الفكر إلى سلطة اللغة عسى أن تعيد التوازن بين الفعلين. (فجاك شيراك) حين كان يعارض الخيار الأمريكي وقد اشتعلت الحرب على العراق، رفع شعارا يريد به أن يعود الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة وكان نصه (قوة المنطق لا منطق القوة).

إن هذا الوصف هو الأصدق على ما يصنعه الكيان الإسرائيلي، منذ اغتصب الحق حتى غدا ذلك منه عرفا متكررا، وطبيعي أن يرسل خاطرد اللغوي ينتج من الصور ما حلا له، فهو يعرض في كل منعرج حاسم الحل المنقوص الذي يؤدي قبوله إلى تكريس قاعدة التنازل على الحق، ثم يشيع بأن العرب قد فوتوا على أنفسهم فرصة ينعتها بالتاريخية، وهكذا يأتي القول المسبوك ليجسم سلطة اللغة على الأذهان. فقد قال آبا إيبان قولا غدا كالشاهد على أقلام المغتصبين وعلى أقلام المغرورين بأقوال المغتصبين. قال (إن الفلسطينيين لم تفتهم فرصة أبدا لتفويت الفرص) وهو ما عادت إليه الأقلام ترددة بعد اندحار مشروع جنيف في خواتم عام ٢٠٠٣ (مجلة سطور، ع٨٧ ص٤).

مضى زمن كان وجيها فيه الجدل بين قائلين بأن اللغة إن هي إلا أداة للتفكير ثم أداة للتعبير، وقائلين بأنها هي التفكير من حيث إنها العقل إذ يفكر.. مضى ذلك الزمن لأن نظرة ولو عجلى في مسيرة الفكر الإنساني، منذ تجددت فلسفاته الحديثة ومنذ تعاقبت الرؤى التفسيرية أو التأويلية لعلاقة الإنسان بالكون الخارجي، تطلعنا على سلك خفي لاحم مداره التسليم بأنه لا شيء يدرك إلا باللغة. ولا شيء يدرك إلا من خلال اللغة، إذا: لا شيء يدرك خارج سلطة اللغة. ولكن الجديد الأجد هو أن تصريف المسألة بهذا الصوغ لم يعد أحد يحمله على أنه من فقاقيع نرجسية العلم اللغوي، ونكاد نجزم ـ بعد طول استبصار وامتداد الأناة ـ أن السبب الذي من أجله وبفضله زالت عن العلم اللغوي تهمة التسلط وجريرة الاستحواذ هو استسلام حقلين عملاقين لسلطتها: حقل العلوم الحاسوبية وحقل العلوم السياسية، رغم أن هذا التسليم قد تم إذعانا للاعتراف بسلطان الآلة اللغوية. ولكن العاقل لا يمكنه أن يقر لموضوع العلم بالسلطة ثم ينكر على علم الموضوع سلطته. فالجميع على يقين اليوم بقوة سلاح اللغة: بل بجبروت توظيف الإنسان لها، وعلى يقين بتحكمها المطلق في التواصل والمعرفة. وليس بوسع الجميع إلا التسليم ـ ولو على وجه المصادرة ـ بسلطة العلم اللغوي لأن موضوعه اللغة.

إن البلاغة الجديدة تعلن لك عن نفسها في اللحظة التي تعلن فيها أنت عن التسليم بانحسار سلطة المصرح به مقابل تضخم سلطة المسكوت عنه. وإن أبواب الإدراك الجديد لآليات السياسة الجديدة تتفتح لك واسعة فسيحة: حتى تتقن مهارة القراءة الجديدة فتعرف كيف يتم تسريب القناعات، وحقن الولاءات، وتهيئة النفوس باختراق أسوارها شيئا فشيئا. إن اللغة بصورها التعبيرية الفاتنة لهي ألين المطايا لإنجاز الامتلاء في غياهب اللاشعور، وهنا هو فاتحة الوعي الجديد بدلالة عديد العبارات التي يحملها الناس محمل الكلام الأيديولوجي الخاوي من المقاصد المتعينة، بينما تقوم في حقيقتها مقام المصطلحات المدققة المضبوطة: التوجيه النفسي، والتحكم الإدراكي، والغزو الذهني.. إنها حقائق وليست من الأوهام في شيء، ذلك شيء تزير من ملحمة فائضة، هو قطرة تبللنا عند الوعي بها والحال أن أنهارا منها تغمرنا صباح مساء فلا نشعر بابتلال لأننا غافلون عنها.

كيف يتم إنتاج الخطاب السياسي وكيف يتم استقباله؟

هو سؤال يرتد إلى مسألة المدارك الذهنية واختلاف مستويات التعامل معها. إن الظاهرة الإدراكية ملازمة للكلام التداولي في كثير من لحظات استعمال الإنسان للغة، وهي ملازمة أكثر للكلام الأدبي لأنه خصيصة من خصائص شعرية اللغة. لكن الذي بدا لنا: ثم ما ارتسخ حتى غدا قناعة حميمة على طول التردد واطراد الحيرة هو أن خير ما يجسم هذا البعد الإدراكي بين أبعاد الظاهرة اللغوية ـ أيا كان نمط اللسان الذي تتشخص به ـ إنما هو القول السياسي. في الأغلبية الغالبة من الأحيان عندما نكون حيال القول السياسي ولاسيما في لحظة مباشرته الأولى أو في لحظة إنشائه والإصداح به، نبحث عن المعنى فنكتشف أنه لا يوجد في البناء النحوي للكلام، ولا في دلالة الألفاظ المعجمية، ولا يوجد في السياق التركيبي بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة، ولا هو موجود في المقام التداولي باعتبار الروابط العالقة بين المتكلم والسامعين، ولكنه يوجد خارج الحدث اللغوي التواصلي تماما. وسنقول ـ بشكل مبدئي وعام ـ إنه يوجد مبثوثا بين شاشة الأحداث الجارية وخزانة الوقائع الماضية، فهو مزروع على أرض الذاكرة السياسية المتحركة، إنه يثوى بين

حقيقة تاريخية مضت وحقيقة تريد أن تنشأ.

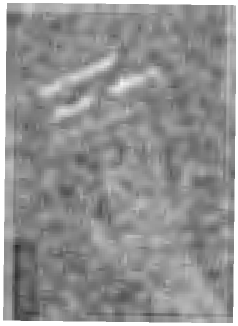
ليلة (١/١٢/١٩٩٩) اجتمع في مدينة سياتول الأمريكية رؤساء ١٣٧ بلداً، فيما سمي بقمة المنظمة العالمية للتجارة، التي بعثت في لقاء وزراء التجارة من ١٢٠ دولة في مراكش في (١٥/٤/١٩٩٤)، وبدأت تشتغل فعلياً في أول عام ١٩٩٥ فخلفت ما كان يعرف بالجات التي هي الاتفاقية العامة على التعريفات الجمركية والتجارة، والتي يعود تأسيسها إلى عام ١٩٤٧، وتعود بداية اشتغالها إلى أول عام ١٩٤٨. وكانت اتفاقيات الجات كالنسي المنسي منذ ذلك العهد إلى أن تم تبنيها من طرف ١١٧ دولة في جنيف بتاريخ (١٥/١٢/١٩٩٣)، والعالم كله قد بدأ يترسم حركاته على إيقاع النظام العالمي الجديد كما بلوره الرئيس (بيل كلينتون) على مدى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٢، عند حملته الانتخابية قبل أن يدخل البيت الأبيض.

في سياتول، كانت النخوة بالغة بالأمريكيين ذروتها. وكانوا يستعدون لاحتفاء عظيم يكرس على مدى الأيام الأولى في آخر شهر من ١٩٩٩ تفوقهم في صنع القرار وانفرادهم في الإمساك بعنان الشأن الدولي. وكان الزهو كثيفاً لأن قائمة الدول المترشحة للالتحاق بالمنظمة العالمية للتجارة قد بلغت يومها ٣١ دولة، ولأن المنظمة قد سبق لها أن عقدت قمتين مرتا بسلام تام، الأولى في سنغافورة (٩/١٢/١٩٩٦) والثانية في جنيف (١٨/٥/١٩٩٨).. وكانت المفاجأة التي لم تقرأ لها الإدارة الأمريكية أي حساب ولم تحدس بها أجهزة الاستخبار من حولها: الانتفاضة الشاملة التي طوق فيها خمسون ألف متظاهر مدينة سياتول ومقر لقاء القمة. وعمت الفوضى في ذلك اليوم عواصم أخرى ولاسيما لندن حيث أعلنت حالة الطوارئ فعلياً في سياتول.

في لحظة الغضب الجماهيري تلك، خرج (بيل كلينتون) ليقول للمتظاهرين قولة مختصرة. قال لهم (قد فهمتكم)، ومن ثم عمدت أجهزة الإعلام، ولاسيما الفرنسية منها، أن تكرر في نشرات أخبارها، على مدى الأيام، تلك الجملة بإيقاعها عندما يترجمها المترجمون إلى لغة وكالاتهم.. إنها جملة من أبسط ما يفوه به أي متكلم في الدنيا عند أي لحظة من لحظات التداول (قد فهمتكم) ولكنها هنا قول سياسي، فاه به رجل سياسي، في لحظة هي من أعسر ما يعرفه العمل السياسي، ولذلك فهي قول يشف عن ساعة امتحان عويص، لاسيما أن كل العالم مشرئب بأعناقه إلى ذلك الحدث، وإلى الأسلوب الذي سيتوسل به القطب المتفرد لمعالجة الصدمة القصوى.

إذا أخذنا هذا القول على ظاهره فقد لا يعني شيئاً مهماً لأنه لا يعدو أن يكون كلاماً صادراً عن قائد ارتبك فحاق، فأفلت من قبضته زمام أمره فنفاد بما قد يسترضي جميع الغاضبين، وهذا نهاية ما يفيدنا به القول مهما قلّبناه على وجوهه التركيبية النحوية، والدلالية المعجمية، والسياقية النصية، والمقامية التداولية. أما إذا أردنا البحث عن المعنى في ذلك البعد الإدراكي، والذي هو كامن في مستوى ما فوق السياق، أو هو ثاو فيما وراء المقام، فسنعثر عليه ضمن حيثيات قرائنية أخرى هي تلك التي منها يتكون العرف السياسي، وبها يتم تأثيث معمار الذاكرة السياسية الجماعية. وما لم ننتبه إلى تلك الواجهة الخلفية أو لم يكن لنا التهيؤ الثقافي لاستيعابها، فسنظل خارج دائرة المعنى من حيث هو سياج المقاصد. وسيظل الفهم ملتبساً باللافهم التباساً فظيعاً، وفظاعته وافدة من أن كلا الطرفين على يقين قاطع بأنه هو الفاهم، وأطرف ما في شاهدنا هذا الذي نسوقه أنه دائر على مسألة الفهم (قد فهمتكم).

من المفيد أن نعرج هنا على خصيصة جزئية تتصل بهذه الكلمة الواردة على صيغة الفعل: فهم، يفهم. إنه فعل يتعدى في اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى مفعول متنوع يمكن أن يكون موضوعاً للإدراك المجرد، ويمكن أن يكون ذاتاً آدمية. فتقول فهمت الشخص، وعلى هذا الباب جاءت القولة (قد فهمتكم) أما في العربية الفصيحة فلم يرد في الاستعمال الأثيل أن هذا الفعل يتعلق بالذوات، إذ لم يكن وارداً أن يقال فهمت فلاناً، وإنما الفصيح: فهمت الشيء، وفهمت عن فلان، وأفهمت فلاناً وفهّمته الأمر. من جديد ينبري السؤال حاداً ملحاحاً: كيف يتدفق الإدراك في مسافة ما بين اللغة والسياسة؟ بل كيف يختبئ المعنى خارج اللحظة التي قيل فيها، ففي يوم من الأيام، كانت الثورة الجزائرية في أوجها بعد مضي أربع سنوات على اندلاعها في (١/١١/١٩٥٤)، وكان الفرنسيون متعلقين جميعاً بوهمهم، وهو أن الجزائر قطعة من وطنهم الفرنسي، وكان التصدع قد طال مؤسسات الدولة حتى تعطلت، وكان العسكريون في الجزائر يستنجدون بالوطن الأم ويستغيثون (بشارل دي غول) أن ينقذهم وأن ينقذ (الجزائر الفرنسية) حسب ندائهم، وكان جل الفرنسيين يهيمون بالرجل المنقذ، وفي يوم (١٣/٥/١٩٥٨) اندلعت ثورة كبرى بين صفوف الفرنسيين في الجزائر وحرب التحرير في أوج انتصارها، رتب (دي غول) بيته سريعاً، وسافر إلى الجزائر يوم (٤/٦/١٩٥٨) وخرج إلى كل الجموع وأطلق خطابه الذي هو، في قناعة الجميع، موجه إلى الفرنسيين المستنجدين به بين مدنيين وعسكريين. ورفع (دي غول) من أعلى المبنى المهيأ له كالمنصة يده اليمنى وفتح ما بين الإبهام والوسطى مجسماً الحرف اللاتيني الذي هو الحرف الأول من كلمة الانتصار، والذي غدا رمزاً في كل لحظات النضال وفي كل ساعات المواجهة، وقال قولته الشهيرة (قد فهمتكم) فغدت مثلاً منقوشاً على دفاتر السياسة الكونية، صفق له الجميع وكان العسكريون أول



ليست المسألة شكلية، وليست تمريناً لغوياً بصيغ تعبيرية متنوعة. إنها ترتد إلى جوهر الفعل السياسي. فهل مغادرة الغزاة جنوب لبنان إنجاز إسرائيلي أم إنجاز عربي؟

المبتهجين، ثم عاد وسيطر على الموقف وهيأ محادثات إيفيون وحصلت الجزائر على استقلالها في (٣/٧/١٩٦٢) فما معنى: قد فهمتكم؟

كلمات القول واضحة وتركيبه النحوي من أبسط التراكيب، فهل يكمن المعنى في سياق النص؟ أبداً. وها هو السياق: (لقد فهمتكم، إني على علم بما قد جرى هنا، وإني أتبين ما كنتم تنوون فعله، وأرى أن الطريق الذي فتحتموه في الجزائر هو طريق التجديد والإخاء). فهل يكمن المعنى في العلاقة التداولية بين المتكلم وسامعيه؟ قطعاً لا. فما كان (دي غول) عازماً على انجازه مناقض لما كان السامعون ينتظرونه ويشرئبون إليه. فهل تناقض صاحب القول فوعد ثم أخلف وعده؟ أيضاً لا، فكلامه كما أوردناه بسياقه لم يتضمن أي التزام بمقاصد الفرنسيين من عسكريين ومدنيين.

إن المعنى واقع خارج حدود القول، وخارج حدود الزمن الذي قيل فيه، إنه كامن في الزمن القادم، أي في اللحظة التي ستحل بعد أربع سنوات. وحين خاطب (بيل كلينتون) جموع الثائرين على العولمة وعلى رمزها الاقتصادي الأكبر: المنظمة العالمية للتجارة، فقال لهم: قد فهمتكم، كان متعيناً ألا يؤخذ القول على معناه التداولي المألوف وإنما يؤخذ على دلالته فوق المقامية. والدليل أن (بيل كلينتون) بعد أن أرسل جملته تلك خاطب جموع المشاركين في القمة وقال: «إن دخول هؤلاء الغاضبين خارج القاعة إنما سيعمق الحوار، وسيعين على اقتناع الناس بجدوى سياسة المنظمة العالمية للتجارة»، فردد بذلك القالب الديغولي المنقوش في الذاكرة الإنسانية. وكان يعني أنه سيفعل مع المحتجين المتظاهرين ما فعله (دي غول) مع العسكريين الفرنسيين في الجزائر.

قولة (دي غول) أصبحت إذا تجري مجرى الأمثال، بل غدت مرجعاً يضمنه أحفاد الديغولية في كلامهم بنخوة تكاد تتكشف من وراء الخطاب، (فجاك شيراك)، عندما حقق انتصاره الباهر في تجديد فترته الرئاسية بعد أن هزم (لوبان) الذي أزاح في الجولة الأولى (جوسبان)، صرح مساء (٥/٥/٢٠٠٢) فقال: (لقد أصغيت إلى الفرنسيات والفرنسيين وفهمت ما أرادوا أن يقولوه لي) وكان فوز (شيراك) قد تحقق بنسبة ٨٢ بالمائة.

وعندما قالها (دي غول)، كان المعنى مسرجاً إلى الزمن القادم، ولما قال (كلينتون) للمتظاهرين في سياتول ضد العولمة: (قد فهمتكم) كان المعنى ساكناً في الذي مضى من الوقائع. ولكن كلا المعنيين واقع في خزانة الذاكرة التاريخية المجسمة للبعد الرابع من أبعاد الكلام. إن عملية التلقي اللغوي لئن احتاجت دوماً إلى وعي ذهني مصحوب بوعي نفسي وإلى تيقظ فكري يساعد على جمع القرائن وتثبيت الحيثيات فإن السمة الإدراكية، تلك التي تحتاج إلى إعداد وإلى تجهيز أدوات الفهم بجنب عناصر المعنى من خارج نص القول، تتفاوت كثافتها بين الكلام التداولي والكلام الأدبي والكلام السياسي، بل إنها في كثير من الأحيان تكون عنصراً حافزاً يجعل للغة وقعاً آخر على السامع ما كان لها أن تحققه لولا تلك الشحنة الإدراكية.

ونظل الدلالة السياسية للخطاب اللغوي مرصودة بالأحداث كما هي وكما كانت ثم كما ستكون، فقد كان للمنظمة العالمية للتجارة موعد في مؤتمرها الرابع جرى في الدوحة في (١٠/١١/٢٠٠١) وتجدد الموعد مع الثائرين الرافضين، ثم كان لها موعد في مؤتمرها الخامس إذ انعقد في كانكون بالمكسيك فازداد لهيب الاعتراض اشتعالاً، وظلت قولة (قد فهمتكم) استفراغاً جاء على لسان (بيل كلينتون) بعد أن جاءت على لسان صاحبها (شارل دي غول) إنجازاً من إنجازات السياسة.

لقد تحولت عبارة (دي

غول) إلى «لازمة» سياسية يلجأ إليها الخطاب كلما اشتد به الحرج، ولكنها غدت طيعة للاستعمال المضلل وقد يستنجد بها السياسي للتعتيم على رتابة الموقف لديه. فحين نشر تقرير اللجنة المحايدة المكلفة بالتحقيق في حيثيات شن الولايات المتحدة الحرب على العراق، كانت الخلاصة صريحة، ومدارها أن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي تسببت في الأخطاء التقديرية التي جعلت الإدارة الأمريكية تجزم بوجود أسلحة التدمير. عندئذ أدلى نائب رئيس الوكالة في (٢٠٠٤/٧/٩) بتصريح ختمه قائلا: (بإيجاز أقول لكم: لقد فهمنا) وبديهي أن أكبر علماء شرح النصوص سيعجز عن تفسير دلالة تلك العبارة، ولا أحد يجازف بتحديد المعنى المراد على وجه اليقين القاطع.

إن الذي يعنينا، نحن هنا، هو استكشاف هذا التناسل السلالي الذي ولدته عبارة الرئيس الفرنسي، فكل شيء في اللغة يتكرر، ولا شيء من الوقائع بمستعاد. لقد كان (دي غول) فصيحا يرتجل فن الخطاب، وكان الفرنسيون يعشقون الصهار بلاغته في صميم الفعل السياسي؛ لأنه كان الرمز الإنساني الأعظم في تشييد صرح المقاومة: مقاومة الغازي الدخيل. ولما قضى يوم (١١/٩/ ١٩٧٠) خاطب الرئيس الفرنسي يومئذ (جورج بومبيدو) شعبه فقال: (أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون، إن فرنسا قد أصبحت أرملة، (شارل دي غول) قد مات). ولم يكن بين الفرنسيين رجل أقدر على صوغ البيان من (بومبيدو) الحامل لشهادة التبريز والمتخصص في علم النحو، مع مشهد البلاغة السياسية. نحن بحضرة نص مغاير لطبيعة النصوص كما كنا نعهدها، نحن بحضرة ما قد نسميه (النص. الومضة) إذ هو بمثابة اللوحة الخاطفة المستقلة بنفسها، هو (النص. اللقطة) عماده الصورة الفنية الآسرة التي تعبر بنا من حقل المجاز الغنائي: حيث يصفق المستمع لفصاحة الخطيب المصقع، أو يرسل آهاته، أو يطلق زفرات في قالب تكبيرات وتهليلات، إلى حقل الاستيعاب الذهني والتركيز الإدراكي. إن الصناعة اللغوية هي أس من أسس المعمار الذي تشيد عليه استراتيجية الخطاب السياسي، ويعلو به صرح الفعل الإجرائي، لأنها الجسر الذي تتهيأ عليه آليات التخييل.

إنه النص اللماح ذو الومضة النافذة عبر الصورة التشبيهية الرشيقة. ولك أن تبحر في الكشف عن المخفيات الدلالية، ثم تتساءل: أين مكمنها؟ وكيف صارت عند أهل الذكر يقينية، والحال أنها عند النظر اللغوي البسيط افتراضية تماما؟ وما الذي تضيفه الصورة إذا ما قيست إلى الكلام الذي يخلو من الصورة؟ ثم منذ متى تتعطل أداة التواصل باللغة امتثالا لحيثيات المرجع الواقع خارج سياق اللغة؟ إن السؤال في غاية البداهة، وفي غاية الغرابة معا: كيف تنتج اللغة؟ ولكن السؤال ينحل إلى الصيغة الأخرى:

إننا هنا أمام آلية البدائل التي تتيح تأول اللغة بحرية، ولكنها لا تتيح أي حرية لتغيير الحدث. فمأزق الفعل السياسي يقابله انفراج واسع في زاوية الفعل اللغوي

كيف ينتج الإنسان اللغة؟ وهذه الصيغة هي نفسها تتضمن شقين اثنين: كيف ينتج الإنسان اللغة حين يتكلمها وكيف ينتجها حين يتلقاها فيفهمها؟ وبما أن اللغة ليست إلا وسيلة لإيصال شيء يقال له المعاني، أو الأفكار، أو الدلالات، فإن كل الأسئلة السياسية تجتمع في صيغة واحدة دقيقة: كيف يدرك الإنسان المعنى؟ وهل المعنى السياسي وديعة نأخذها كما نأخذ أي معنى مجسم ملقى أمامنا؟ أم هو وديعة جاهزة، ولكنها مخفية نبحث عنها، قليلاً أو كثيراً، كي نعثر عليها ثم نلتقطها من مخبئها؟ أم شيء نساهم نحن في صنعه وفي إنتاجه فيتحتم في كل الأحوال أن نتساءل: أين يكمن المعنى؟

إذا أمعنا في رحلة الاستكشاف كي نحاصر أنموذج العلاقة القائمة بين الفعل اللغوي والفعل السياسي وقفنا على حالات قصوى، تنفصم فيها مطاطية الإدراك بحكم تشظي معايير التأويل. إن اللغة ساعتئذ تمسي آلة لإنتاج اللامعنى، ثم إنها، تحت وطأة السلطة السياسية، تتفكك إلى دلالات سريالية خالصة، فينتج الحدث الموغل في انتهاك الأعراف. فيما مضى كان الاديب ينزل في موسكو ضيفا على اتحاد الكتاب، وكان يوضع عن ذمته مرافق يقوم بوظيفة الإرشاد السياحي فضلا عن الملازمة المتعينة. وجرت العادة أن يأخذ المرافق ضيوفه إلى أحد المعالم العجيبة: هو صرح مشيد في تركيبة معمارية غريبة جمع بين طراز تقليدي موروث عن القرون الماضية وطراز معاصر كان سائداً بعد انطلاق الثورة البلشفية.

يقف المرافق بضيوفه أمام الصرح المعماري شارحا هذه التركيبة التي يفمرها النشاز أمام أعين السذج والفطنين على حد سواء، فيقول: لقد تقرر بناء هذا المعلم في عهد (ستالين)، ورفع إليه الخبراء نماذج معمارية عديدة كي يختار واحداً منها، ثم أعاد مجموع النماذج إلى المسؤولين عن تنفيذ القرار، فإذا بأحد الملفات قد كتب عليه (ستالين): (نعم) وإذا بملف آخر قد خط عليه عبارة: (هذا) وحار القوم في أمرهم، وأدركوا أن ستالين أعجب بأحد النماذج حين تصفحه، فزكاه، ثم أعجب بأنموذج آخر حين وصل إليه وقلبه، فزكاه، وآثره على الأول، ولكنه نسي أن يلغي من السالف إشارة التزكية، ولم تكن لديهم قرينة تثبت أيهما السابق وأيهما اللاحق، وليس لأحد يومئذ، كائنا من كان، أن يراجع (ستالين) أو يستفسره فيما خط بيده، فالمصير واحد مطلق، فقرر القوم أن يشيدوا المعمار مزجاً بين الأنموذجين على تباين طرازيهما.

هي ذي عطالة اللغة في تصادمهما مع مقتضيات السياق وحيثيات إنتاج الدلالة. ولنعد إلى السؤال: أين مكمن المعنى؟ وكيف يتم إنتاجه؟ وما محددات خصائصه؟ فالالتباس في الدلالة حافز على استفتاء القرائن لدفعه، والقرائن إن لم يهبها لنا سياق التركيب فإن مقام التداول هو الذي يتجدنا بها. ولكن سلطة السياسة حين تستبد بالمقام تلغي كل وجود شرعي لعملية التواصل إفهاماً وتفهماً، وعند انتفاء التواصل تنخرم ميكانيزمات الإدراك. فليست اللغة هي المقموعة تحت سلطات السياسة؛ لأن لفظة (نعم) ولفظة (هذا) مصونتان بسلامة دلالتيهما، ولكن المقموع هو الفعل اللغوي: إذ تتعطل وظيفته الإخبارية الإيصالية. على الوجه المقابل يحدث أن يتعطل الموقف السياسي فتنبثق اللغة ناسجة خطابها في ضرب من الخيال كأنه الخيال الشعري، فعلاقة الفعل اللغوي بالفعل السياسي، إذا ما توسلنا بثنائية البلاغيين، هي علاقة خبر وليست علاقة إنشاء، ولكن الإحساس بالعجز حيال استبداد السياسة بسلطة الحق كما تراه يفضي إلى تعطل آلة الإبلاغ وإلى انخرام عقد التواصل.

(وليام بلوم) موظف سابق في الإدارة الأمريكية، عندما شاعت عبارة الدول الخارجة عن القانون، التي اختصرت بعد ذلك في عبارة الدول المارقة، أصدر كتابه الذي يحمل العبارة نفسها ليتحدث عن سياسة الولايات المتحدة بالذات على مدى عقود متوالية منذ الحرب العالمية الثانية.

وفي نهاية توطئة الكتاب قال كلاما اختاره الناشر ليحلي به الوجه الخلفي من الغلاف، قال: (لو كنت رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، لأنهيت في بضعة أيام الهجومات الإرهابية عليها بشكل حاسم: أبدأ بتقديم اعتذاراتي إلى الملايين من الذين ذهبوا ضحايا الإمبريالية الأمريكية، وإلى كل الأرامل، وإلى الأيتام، وإلى الذين عذبوا، والذين آل بهم الأمر إلى التعاسة. ثم أعلن على مشارق الأرض ومغاربها بأن التدخلات الأمريكية في العالم قد ولت نهائياً، وأعلم إسرائيل بأنها لم تعد الولاية الواحدة والخمسين من الولايات المتحدة وإنما هي ابتداء من ذلك اليوم بلد أجنبي بكل ما تحمله العبارة من غرابة. وبعد ذلك أقلص الميزانية العسكرية بنسبة ٩٠٪ كي أخصص الفائض من ذلك إلى جبر أضرار الضحايا، وسيكون في ذلك ما يكفي وزيادة. ذلك ما سأصنعه في الأيام الثلاثة الأولى، أما في اليوم الرابع فأعلم أني سأقتل).

كلمة (لو) التي استهل بها (وليام بلوم) كلامه هي، في أعراف اللغويين النحاة، أداة شرط يسمونها (حرف امتناع لامتناع)، ويعنون بذلك أنها تعلق الجواب على الشرط، والجواب ممتنع لامتناع الشرط، بمعنى أنها تقول شيئا مستحيلا لأنه مشروط بشيء مستحيل. وصاحب القول يعرف كل هذا، ولكنه يستنجد بهذا الخطاب الافتراضي لأن اليأس قد تملكه من فرط إصرار السياسة على دوس الأخلاق، ولأنه أيضا قد اقتنع بأن القرار الأمريكي أصبح رهينة بيد كتل الضغط التي أنشأتها صناعة الأسلحة.

إن اللغة هي نواة المركزية الجديدة للكون، وللظواهر التي في الكون، ولإدراك الوجود المتعين في الكون، ولتفسير علاقة الإنسان بالوجود في الكون. إنها مركز الفعل الذي يتحول فيه الإنسان من واقع الإدراك والتأمل إلى ساحة تغيير ما يتأمل فيه. ولكن اللغة هي أيضا مركز الفعل السياسي، وإن السياسة هي تتويج للفعل اللغوي قبل الإنجاز وبعده. ولكن هل يعد كل فعل لغوي الفعل السياسي الفاعل؟ وهل يعد مرسى السؤال اللغة المطلقة أم الكلام المتعين؟ وهل القول على عموم دلالته بحيث يشمل كل مستويات الأداء أم أنه على الخصوص، يتحدد بتحويل القول السياسي إلى فن قولي؟

ها نحن وجها لوجه، وفي اللحظة الواحدة، بحضرة ضيفين وافدين كأنهما بالأصل متعاجمان: فن السياسة وفن الكلام، هما: القول السياسي والقول الإبداعي.. بل هما: صورة الفعل السياسي وصورة الفعل الأدبي، ولم لا يكونان في مختبر الصناعة المعرفية والاحتراف اللساني علم السياسة وعلم الكلام. فإن صح أن يكونا كذلك، فليكونا علم السياسة من خلال علم الكلام وعلم الكلام من خلال علم السياسة.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتتشكر الناشرين والكتاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

شخصيات لها تاريخ

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢١٥صفحة



أكثر من ثلاثين شخصية تتعدد اهتماماتها وميادين عطائها، وتتفاوت مشاعر المؤلف تجاهها من الحب الشديد والاحترام والتقدير، إلى الازدراء والرفض الإنساني والأخلاقي. هناك بالطبع من حظي بأقصى درجات التبجيل والتقدير والاعتراف بالدور في حياة المؤلف والناس، مثلاً: أحمد بهاء الدين، فتحي رضوان، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، جمال حمدان، عصمت سيف الدولة، جورج أورويل، وحين يقيم عهود الجمهورية الثلاثة في مصر وقادتها، يبدو انحيازه الذي لا يخفيه إلى جمال عبدالناصر برغم مؤاخذاته المؤكدة على نظام حكمه والذي عبر عنه في أكثر من موضع، يعكس الرئيس السادات الذي يدين جلال أمين سياساته، خصوصاً على الصعيد الاقتصادي والتوجهات الاجتماعية، ويبرهن على ذلك بموقفه مما أشيع عن فساد شقيقه «عصمت» الذي أكده القضاء، حيث انطلق الأخ ينهب ويضرب بسهمه في اتجاهات عدة، دون أن يجد ذلك صدى لدى الرئيس السادات سوى أن ما يقال عن أخيه ليس سوى حقد وحسد. وتحت عنوان الرئيس مبارك والديمقراطية، يتحدث المؤلف عن لقاء الرئيس بالمثقفين في معرض الكتاب: هذا اللقاء السنوي الذي يفترض أن يجري فيه حواراً مفتوحاً بين الطرفين، لكن منظم الندوة، رئيس هيئة الكتاب حين قرأ بين من يطلبون السؤال اسم المؤلف تجاهله. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حضر فيها لقاء من هذا النوع، وهو موقف يدلك - برأي المؤلف - على معنى ديمقراطية مبارك وحدودها.

وسينال عثمان أحمد عثمان، المقاول الذي بدأ مسيرة صعوده في عهد عبدالناصر وواصل تألقه في عهد السادات بعضاً من سهام المؤلف، فقد كان فهمه لمعاني الوطنية والانتماء والإيمان والعمل والإخلاص والثروة أقرب إلى فهم السادات منه إلى عبدالناصر، وقد كان الأخير يفهم هذه المعاني في أبعادها وأطرها الاجتماعية، أما السادات فقد فهمها بمنطق فردي، بما تضيف إليه شخصياً وما تحققه له من منفعة ذاتية.

وحظي لطفي الخولي بقدر من سخط الكاتب بسبب مسلكه «الانتهازي» الذي أهدر طاقاته الإبداعية جلها... «نعم لقد كان لطفي الخولي بدون شك رجلاً ذكياً وجريئاً، ولكنه للأسف استخدم ذكاءه وجرأته في مواقف كثيرة من مواقفه، مما يتعارض مع مصلحة أمته».

وبالقدر نفسه من النقد يواجه المؤلف تصرفات الدكتور أحمد زويل السياسية وتصريحاته من نوع: العلم لا وطن له، لا سياسة في العلم ولا علم في السياسة.

ويكتب المؤلف فصلين رائعين عن ليلى مراد وتحية كاريوكا، أما الأولى فقد اعتزلت الدنيا والفن ولم يكن عمرها بعد قد تجاوز السابعة والثلاثين، وبحسب المؤلف، فقد «تركتنا أربعين عاما نظن أن الوقت لا يمر، حتى ماتت فاكتشفنا أن أعمارنا قفزت أربعين عاماً في يوم واحد»، أما تحية كاريوكا فهي سيرة ومسيرة مصر لمدة ثمانين عاما. يقول جلال أمين في ختام مقاله عن تحية كاريوكا: لا أعتقد أنه كان من الممكن ولا من المتصور أن تتجه تحية كاريوكا إلى التحجب والتدين الشديد في الثلاثينيات أو الأربعينيات، بالضبط كما أن مصر لم يكن من الممكن أن ترتدي الحجاب في الثلاثينيات أو الأربعينيات.

كان هذا متصوراً فقط في الثمانينيات والتسعينيات، فيما يتعلق بمصر وتحية كاريوكا على السواء.

الأصول التاريخية لمؤسسات الدولة والمرافق العامة

فتحي حافظ الحديدي

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧، ١٢٥صفحة



يتناول الكتاب تاريخ مؤسسات الدولة والمرافق العامة في العاصمة المصرية، هو مبحث نادر لم يتطرق إليه كثيرون من قبل، ويكشف المؤلف عديداً من الطرائف في تتبعه لتاريخ مؤسسات الدولة، منها أن بعضاً من وزارات الدولة في بداياتها كانت تشغل مكاناً يعادل حالياً قسماً أو إدارة بالمفهوم الحالي، فقد كانت سراي مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز في عصر الخديو توفيق تشمل وزارة المعارف العمومية، وزارة الأشغال العمومية، وزارة الأوقاف، دار الكتب، المدرسة الخديوية وغيرها، وحين أنشئت وزارة المواصلات ظلت لأكثر من عام في جناح بفندق سميراميس بايجار يومي. وبدأت أول كلية تجارة تتبع جامعة القاهرة في حجرة واحدة شغلتها الفرقة الأولى، وزادت إلى حجرة ثانية في السنة التالية. كما أن رئاسة مجلس الوزراء كان مقرها في ضيافة وزارة كانت تختلف باختلاف رئيس مجلس الوزراء من ١٨٧٨ وحتى يناير ١٩٢٢ حينما استقلت بمقر خاص بها.

والملاحظ أن الوزارات كانت تنتقل إلى مدينة الإسكندرية في الفترة من مايو إلى سبتمبر من كل عام لتكون بجوار الخديو ثم السلطان ثم الملك، واستمر ذلك من ١٨٩٤ حتى يوليو ١٩٥٢، ويشير المؤلف إلى أن النظارات كانت تقضي أشهر الصيف في سراي رأس التين، ومنذ صيف ١٩٠٩، أصبح مقر النظارات في سراي زيزينيا بحي سان ستيفانو، وفي السنوات السابقة مباشرة على ١٩٥٢، كان مقر الوزارات قصر بولكلي، الذي شهد مقابلة حاسمة بين عدد من ضباط يوليو ١٩٥٢ والملك، حيث وجهوا إليه إنذارا حاسما بأن يغادر مصر قبل الظهر.

تاريخ عشرات المؤسسات الحكومية والأهلية، تعليمية وصحافية وتجارية ومالية وسياسية واقتصادية ورياضية وفنية وصناعية، يتابعها المؤلف من موقع إلى آخر داخل القطر المصري.

القبيلة الضائعة

إبراهيم محمود

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ٤١١ صفحة



الأكراد هم ضحايا تقسيم جغرافي وظلم تاريخي مديد، فقد وجدوا أنفسهم في دوائر صراع لا قبل لهم بها، مطاردين ومنبوذين، في تركيا كما في العراق وإيران وسوريا، هم فعلاً كما يشير العنوان «قبيلة ضائعة»، والمؤلف - كردي الأصل - يعيش خلف صورة الكردي في الأدبيات العربية وعنها بدءاً من النسب وانتهاء بالأوضاع التي وجد الأكراد أنفسهم عليها، وهكذا يحدثنا عن الكردي في نسبه العربي والفارسي والتوراتي، ثم في سياقه التاريخي الشعري، وكذلك عن الإسلام الكردي ودورهم السياسي والعروبي، ويضيف المؤلف من تناولوا وضع الكرد في تصنيفات ثلاثة:

أولهم: أولئك الذين تشددوا في ممارسة نقد الكرد بوصفهم مقلقي الأمن العربي وأكثر المساهمين في بلبلة الأوضاع العربية وإضعاف الصف العربي، وباعتبارهم غرباء عن الجغرافيا العربية والوعي العربي التاريخي.

وثانيهم: أولئك المعتدلون في طروحاتهم وأفكارهم وطريقة التعامل مع الوجود الكردي في المنطقة، إذ يعتبرونهم طيفا من الأطياف، أو طرفا من أطراف المشكلة العربية وليس سببا لها.

ثم هناك من يسعون في أروقة السلطة، خصوصاً في سوريا إلى تجييش الوعي الشعبي المبتذل، ومعاضدة السلطة الراغبة في قمع الأكراد لأسباب خاصة، ويقدم المؤلف أسماء عديدة لأصحاب كل تيار ممن يتناولون الشأن الكردي بالكتابة والتعليق.

فاروق ملك مصر
حياة لاهية وموت مأساوي

وليم ستادين

ترجمة: أحمد هريدي

القاهرة: دار التحرير للنشر، ٢٠٠٧، ٣٨٣صفحة



ولد فاروق في ١٩٢٠، وتوج ملكاً على مصر في ١٩٣٦، وفي عام ١٩٥٢ أجبر على التنازل عن العرش، وفي ١٩٦٥ مات، وبرغم حياته السريعة تلك فإن صحف التابلويد الأجنبية حفلت بقدر هائل من حملات التشويه التي قادتها ضده، فهو زير نساء، مقامر، عبقري، مصاب بهوس السرقة، وحين أراد المؤلف أن يبحث في حقائق الملك الذي أفل نجمه، لم يجد مذكرات أو وثائق يمكن الاطمئنان إليها بثقة، فبدأ بحثه عمن صاحبوا الملك من الحسناوات والرفاق في تيهه الأوروبي، ويبدأ بعلاقته بمغنية الأوبرا الإيطالية «إرما كابيسي» والتي كانت علاقته بها سبباً في طلب زوجته ناريمان الطلاق، وقد كانت إرما صغيرة جداً، كاتبة من باقة، لكن ما أغدقه عليها فاروق من هدايا ومجوهرات جعلها تقبل أن تبقى معه، بل وتصحبه في رحلات طويلة عبر أوروبا، دون أن يتخلى الملك عن محظياته الأخريات وعن السهر يومياً في الملاهي الليلية ولعب القمار حتى الساعات الأولى من الصباح

ذيل المقريزى فى تخطيط القاهرة



ذيل المقريزى
للأديب الفاضل عبدالحميد بك نافع
تحقيق دكتور خالد عزب ومحمد السيد حمدى
صدر عن الدار العربية للكتاب ٢٠٠٧

يعد كتاب ذيل خطط المقريزى للأديب الفاضل عبد الحميد بك نافع، تحقيق دكتور خالد عزب ومحمد السيد حمدى، والصادر عن الدار العربية للكتاب، إضافة جديدة لسلسلة كتب الخطط المصرية التى تتناول تخطيط مدينة القاهرة وتطورها عبر عصور مختلفة أو خلال فترة زمنية محددة.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عدة فصول. يدور الفصل الأول حول القاهرة وأجناس أهاليها ودياناتهم، ويدور الفصل الثانى حول ما بالقاهرة من الأثمان، والشوارع والدروب والحارات والعطف، ويدور الفصل الثالث حول ما بأثمان القاهرة المعزية من الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا والمشاهد والأضرحة والأسبلة والمكاتب، ويدور الفصل الرابع حول ذكر مدارس واسبتاليات وفابريقات القاهرة وإقليمها، ويدور الفصل الخامس حول ذكر الفابريقات المعبر عنها بالورش، ويدور الفصل السادس حول ذكر دور القاهرة العظيمة المسماة بالسرايات والقصور والكوشك وما بالضواحى من ذلك، ويدور الفصل السابع حول ذكر منتزهات القاهرة المسماة بالجناين والبرك والغيطان.

ولعل مؤرخى الخطط لم يأتوا تقريبا بجديد بعد المقريزى، فعلى سبيل المثال جاء كتاب ابن أبى سرور البكرى والمعروف بـ «قطف الأزهار فى الخطط والآثار» ملخصا لخطط المقريزى مع إضافات يسيرة جدت بعد المقريزى. ومن هنا تبرز أهمية كتاب «ذيل المقريزى» لعبد الحميد بك نافع، فهو يستكمل ما جاء به كل من المقريزى وابن أبى سرور البكرى، وما أورده جومار فى كتابه «وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل» والذى نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه د.أيمن فؤاد سيد. وقبل أن يضع على باشا مبارك خططه، لذا فقد جاءت كتابات المؤلف مركزة على فترة النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى، أو ما يصطلح على تسميتها بـ «عصر النهضة فى مصر» تلك النهضة التى قادها محمد على باشا وبلغت ذروتها فى عهد الخديو إسماعيل، وكان لها أكبر الأثر فى نقل مصر من دولة تتخبط فى ظلمات الحكم العثمانى بما فرضه عليها من انغلاق وتخلف إلى دولة تتطلع بفخر إلى الرقى والتحضر والأخذ بأسباب التقدم الحديث، وهى النهضة التى انعكس أثرها على مدينة القاهرة فتطورت خططها وأحياؤها، وازدانت شوارعها بالعمائر الضخمة من مدارس واسبتاليات وورش وفابريقات وسرايات وحدائق. أفاض المؤلف فى وصفها وذكر مآثرها. كما أن القسم الأول من الكتاب يقدم إضافة جديدة فى ذكر ما احتوت عليه خزائن الكتب بالمساجد من الكتب والمجلدات. كما احتوى الكتاب على إشارة واضحة إلى قيام محمد على باشا بإنشاء كتبخانة بحى الحسين (قبل كتبخانة على باشا مبارك).

ولعل ما أورده المؤلف من إضافات تقودنا حتماً إلى إعادة تاريخ بعض المنشآت، على نحو قصر عابدين والذى كان الرأى السائد حوله أن بناءه بدأ بعد أن تولى الخديو إسماعيل حكم مصر، لكن ما كشف عنه هذا الكتاب يشير إلى أن بناءه بدأ فى عهد سعيد باشا، ومع وفاة أحمد باشا رفعت وريث العرش، وصعود إسماعيل عوضا عنه، تغيرت خطط إسماعيل ونظرته إلى هذا القصر، والذى أعاد هدمه وبناءه مع توليه حكم مصر.

وقد اعتمد مؤلف الكتاب بشكل واضح على كتابات المؤرخ الكبير تقى الدين أحمد بن على المقريزى وخاصة كتاب «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» المعروف بـ «الخطط المقريزية» وذلك عند الحديث عن آثار الأقدمين، والشيخ حسن بن حسين المعروف بابن الطولونى الحنفى صاحب كتاب النزهة السنية فى أخبار الخلفا والملوك المصرية، ومؤلفات الإمام عبد الرحمن السيوطى ومنها كتابه المعروف بـ «كوكب الروضة فى تاريخ النيل وجزيرة الروضة»، ومؤلفات الإمام عبد الوهاب الشعرانى، وكتاب «قطف الأزهار من الخطط والآثار» لابن أبى سرور البكرى، وأحد مؤلفات المؤرخ أبى عمر الكندى عند الإشارة لمقياس النيل، كما اعتمد المؤلف على بعض الروايات السمعية من بعض من لهم دراية بعلم التاريخ وخاصة عند نسبته القصر العينى إلى المؤرخ بدر الدين العينى، يضاف إلى ذلك ما أورده الكاتب من أشعار لشعراء مثل ابن الصايغ وابن خضير والقاضى عبد الخالق ابن عون الأخميمى وجمال الدين على بن ظافر الحداد والشيخ حسن العطار والشيخ رفاعة الطهطاوى والسيد أحمد البقلى، مما يدل على سعة علم المؤلف وحبه للشعر ونظمه إياه، فقد وردت فى الكتاب بعض الأبيات الشعرية المنسوبة للمؤلف.

وقد قام المحققان بالتحقيق فيما ورد فى الكتاب من معلومات وخاصة أسماء الشخصيات وأسماء الشوارع والمنشآت القائمة أو ما اندثر منها وما ورد من معلومات أكدتها الأبحاث العلمية الحديثة وأوردها المؤلف.

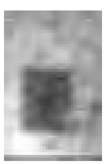
يحدثنا المؤلف أيضا عن عشرات العلاقات النسائية الأخرى التى أقامها فاروق، خصوصاً بعدما فترت العلاقة بينه وبين الملكة فريدة، وبين من أحبته اليهودية أورين التى اختار لها اسماً إسلامياً ومعلماً ليدرس لها القرآن، وتؤكد أورين أن علاقتها بفاروق ظلت بريئة دوماً. ويشير إلى أن سبب رغبة فاروق إقامة علاقة مع يهودية هو تشبهه بوالده الملك فؤاد الذى أقام علاقة مع رئيسة الجالية اليهودية فى مصر «سوارس»، وقد أخبره أبوه أن النساء اليهوديات هن الأفضل، وأورين هى التى قالت إن فاروق مريض بداء السرقة، وقد تدخل كريم ثابت، السكرتير الصحفى لفاروق الموالى للأمريكيين فهو الذى قطع ما بينها وبين فاروق حين أتى إليه بسكرتيرة إنجليزية حسناء ضبطتها فى فراشه.

أحب فاروق أيضاً الأديبة الإنجليزية الفاتنة باربارا سكيلتون، وفى كثير من هذه العلاقات تلوح دائماً إشاعات عن ضغوط مخابراتية من جهات عديدة، ثمة قصص أخرى جمعها المؤلف لا يمكن التحقق من صدقها عن موت فاروق بالسم على يد المخابرات المصرية، أو أن الملك عبدالعزيز دعا فاروق إلى السعودية وتعهد بإعادته إلى العرش خلال ستة أشهر، وعشرات الحكايات الأخرى التى وردت فى كتب سابقة عن الملك، فضلاً عن النهايات المؤلمة لأفراد العائلة.

❊

أرض معزولة بالنوم

ناظم السيد
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧،
٧٢صفحة



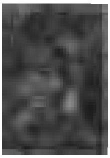
يضم هذا الكتاب نحو ٥٠ مقطوعة من قصيدة النثر لمؤلف صدرت له من قبل مجموعتان هما: «برتقالة مقشرة من الداخل» و«العين الأخيرة».. من أجواء الكتاب:

يسقط من الشرفة إلى القبر المجاور. هذه المرة أيضاً لم يمت بكابوس. يستيقظ حاراً كالمطارات. نافورة الماء تنحت فى صعودها تماثيل سريعة. المأساة بلا أهل. يدق بأسنانه على الأبواب. يعتقد هكذا: أصابع النخلة وذراعها الطويلة. منذ فقد حاجبيه فى معركة، باتت عيناه مكشوفتين أكثر للسماء للمهزومين الذين يتعرفون إلى الأرض.

❊

حارة المجدلى

حسن فتح الباب
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧،
١٧٠صفحة



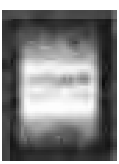
حارة المجدلى هى إحدى الحارات الشعبية المجهولة فى حى شبرا، وهى التى نشأ بها المؤلف، ويعتبرها المنبع الذى تنبثق منه وترتد إليه كل واقعة فى هذه السيرة التى صاغها صاحبها شعراً، نزوعاً إلى موهبته وطريقته الأثيرة فى التعبير عن نفسه، لتكمل ما كتبه حول سيرته من قبل فى كتابه «أسعى الوجوه بأسمائها» والذى يتضمن سيرة حياة المؤلف منذ انخراطه فى سلك الشرطة ومعاناته فى الوظيفة، وقد كان النثر هو الغالب فى هذا العمل. أما فى هذا الكتاب فيقدم سيرته من خلال قصائد شعرية، أكثر من ثلاثين قصيدة. من أجواء السيرة الشعرية:

فى غرفة البيت الصغير الفقير
صنعت قلال باسمات الثغور
مشعشعات الماء بالنعناع
وكلما هب نسيم الشمال
رفت على قلوبنا الأحلام.

❊

الفاتيكان والإسلام

محمد عمارة
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧،
١٤٣صفحة



يأتى هذا الكتاب رداً على الافتراءات التى نطق بها بابا الفاتيكان فى إحدى محاضراته، واصفاً الإيمان الإسلامى بأنه وثنى أعمى، والقرآن الكريم بأنه تعليمات أوامر اللئام، والرسول الكريم بأنه لم يأت إلا بكل ما هو سيئ وشرير، وبرأى المؤلف فإن هذه الافتراءات ليست مجرد سقطات فكرية، وإنما جزء من العداء الغربى التاريخى للإسلام، والذى يحشد فيه الغرب الاستعمارى مؤسساته الدينية والسياسية والإعلامية لتشويه صورة الإسلام والإعلان عن حرب صليبية جديدة، لأن الإسلام هو الذى حرر الشرق من القهر الحضارى الرومانى الذى دام عشرة قرون، مارست فيه الفاتيكان أبشع

صور الاضطهاد الديني ضد النصرانية الشرقية، وقد حررت الفتوحات الإسلامية الشرق. لذلك بدأ عداء الغرب للإسلام واستمر حتى اليوم في محاولة لاختطاف الشرق من الإسلام، عبر الحروب الصليبية وغزو نابليون بونابرت لمصر ثم الاستعمار الغربي في صورة الحديثة.

ويشير المؤلف إلى التحالف بين الكنيسة الكاثوليكية الغربية مع المشروع الإمبريالي الغربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم استخدام أمريكا سلاح الدين بضراوة ووضوح في أعقاب الانتصار الحاسم للمعسكر الرأسمالي على المعسكر الاشتراكي والقضاء على الشيوعية وتفتيت دول الكتلة الشرقية. وقد نجحت الإمبريالية الأمريكية -بحسب المؤلف- في ضم الكنيسة الكاثوليكية في الحرب ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتي، وكان دور البابا يوحنا بولس الثاني مشهوراً في هذا الإطار. كما نجحت في توظيف الإسلام لتحقيق مصالحها، كما جرى في حلف بغداد ١٩٥٥ ثم الجهاد في أفغانستان ضد السوفييت.

وأعلنت الإمبريالية الأمريكية بوضوح في أعقاب سقوط الشيوعية في العقد الأخير من القرن العشرين أنها اتخذت الإسلام عدواً بدلاً من العدو الشيوعي، فحل الخطر الأخضر محل الخطر الأحمر.

وإلى جانب نص المحاضرة كما ألقاها «بنديكت»، يستعين المؤلف بما كتبه مستشرقون ومثقفون غربيون حول عظمة الرسالة المحمدية وتأكيدها أن القرآن ليس نتاج عبقرية بشرية وإنما هو وحي من عند الله، فضلاً عن كتابات أخرى تؤكد حذف عديد من النصوص في العهد القديم، والاختلافات الواضحة بين النسخ المتاحة من الكتاب المقدس والتي يتداولها الناس.

※

الغريبـــــة

مليكة أوفقير

بيروت: التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٤٦صفحة



حكت مليكة تجربتها الأسطورية وأسرتها في سجون ملك المغرب السابق الحسن الثاني في كتابها «السجينة»، عشرون عاماً أمضوها خلف الجدران المصمتة على خلفية انقلاب فاشل ضد الملك، شارك فيه الأب، الجنرال محمد أوفقير رجل المغرب القوي الذي كان وزيراً للدفاع ورئيساً لأركان الجيش وقت الانقلاب ١٩٧٢، أعدم أوفقير واقتيدت أسرته بكاملها إلى أحد السجون الرهيبة بالصحراء المغربية حيث بقوا فيها لمدة عشرين عاماً حتى استطاعوا الهرب بحيلة أسطورية: حفروا نفقاً في جدار السجن بالملاعق المعدنية وأغطية علب الصفيح، وحين اكتشف أمرهم كانت قضيتهم قد تحولت إلى قضية دولية تتناولها وسائل الإعلام العالمية بدهشة واستنكار، ليبقوا سنوات خمساً في أحد القصور رهن التحفظ، وبعدها كان قرار الرحيل إلى فرنسا.

في هذا الكتاب تستكمل مليكة ما بدأته في السجينة، فتحكي عن عالم جديد بدأت التعرف عليه بعد أن بلغت الأربعين، هي التي دخلت السجن وقد جاوزت بالكاد الثامنة عشرة، كان عليها أن تعيد اكتشاف العالم، وأن تصوغ علاقات جديدة معه. شبابها الذي أُهدر وأنوثتها التي تغلفها مشاعر ضبابية، تتبدى هنا في سردها لعلاقات عاطفية سعت إليها مدفوعة بشحنات مكبوتة من الرغبة والخوف المتوقع من عذراء جاوزت الأربعين، دون أن تمارس الحب مرة واحدة. وحين التقت زوجها «إيريك» كان عليه أن يتحمل توتراتها وسوء فهمها وخشيتها كنتيجة منطقية لسنوات السجن الطوال، وقد نجح إيريك كما تشير مليكة في أكثر من موضع بالكتاب، في أن يهدئ من مخاوفها ويقودها تدريجياً إلى الطبيعة والاتساق مع العالم من حولها.

مخاوف مليكة حاصرتها منذ البداية، ودمغت علاقتها بالآخرين من حولها خصوصاً في الشهور الأولى لحياتها في باريس، وكان عليها أن تعيد اكتشاف ذاتها وأن تحافظ على قدر أكبر من العدوانية لتواجه به تجاهل الآخرين وربما صداميتهم غير المبررة - من وجهة نظرها - تجاهها، ولم يكن سوى الحب طوق نجاة للخروج من هذه الحلقة الجهنمية، واكتشاف فضاءات الحرية في باريس دون خوف.

تحكي مليكة أيضاً عن محنتها حيث تأكدت من عقمها، لن تصبح أماً أبداً، وهو ما دفعها إلى تبني طفل يعيش معها إلى اليوم بوصفه ابنها، برغم أنها منذ البداية جعلت من نفسها أماً لنوال، ابنة شقيقتها الصغرى المصابة بالصرع، والتي لم يكن بوسعها أن ترعى ابنتها.

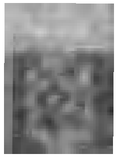
ثمة تجارب أخرى تحكي عنها مليكة متبدي فيها رؤيتها لبلادها اليوم، خصوصاً مع الصعود المتنامي للاتجاهات الأصولية في المغرب كما في أكثر من بلد عربي. باختصار هذه هي حياة «السجينة» بعد الانعتاق. فهل حلقت حقاً في فضاءات الحرية، أم كبلتها قيود سجن أكبر.

※

العلاقات المصرية الأمريكية

محمد عبد الوهاب سيد أحمد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٦٥٠صفحة



ما هي حقيقة العلاقة التي جمعت بين ضباط ثورة يوليو ١٩٥٢ وأمريكا؟

في الإجابة عن السؤال، جنح البعض إلى اعتبار ثورة يوليو أمريكية (هكذا)، طعناً في الضباط الصغار وفي نظام يوليو كله، ووصف الثورة بأنها أمريكية إنما كان يعني أن الأمريكان ساهموا بدرجة ما في إنجاحها، بالضغط على أطراف دولية أخرى وربما بالتخطيط أيضاً.

الحقيقة المؤكدة أن ثمة اتصالات جرت بين بعض الضباط الأحرار ومسئولين في السفارة الأمريكية، خصوصاً بعدما سرت شائعة مفادها أن القوات البريطانية تستعد للزحف نحو القاهرة للقضاء على الثورة، وكانت طمأنة الأمريكان وكسب ودهم أو على الأقل تحييدهم هدفاً أساسياً لضمان نجاح الحركة. ومن جهتهم فقد فعل الأمريكان كل ما بوسعهم لضمان نجاح الضباط في انقلابهم ومنع البريطانيين من اتخاذ أية إجراءات مضادة، وقد حرص الضباط من جانبهم على التأكيد للأمريكان، أن انقلابهم لا صلة له بالعناصر الشيوعية أو الإخوان المسلمين، وأنهم حريصون على معاداة الشيوعية، بل والتعاون مع الأمريكان لمواجهة الزحف الشيوعي في المنطقة. وقد بالغ النظام الجديد في تأكيد عدائه هذا، حين ضرب بشدة أحداث الشغب التي أثارها عمال كفر الدوار في أغسطس ١٩٥٢م، وأعدم فيها العاملين خميس والبقري، برغم أن مظاهرات العمال كانت ضد إدارة الشركة وليست ضد الثورة وأهدافها.

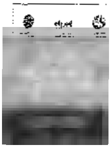
بدا إذن أن ثمة مصالح مشتركة بين الطرفين: يكسب الضباط الأمريكان فيضمنون نجاح حركتهم، ويساند الأمريكان الضباط فيجعلون منهم رأس حربة في مواجهة النفوذ السوفيتي، ولكي تحقق أمريكا أهدافها، أيدت حل الأحزاب، خصوصاً أن الوفد جاهر مرات عديدة بعدائه للنفوذ الأمريكي في المنطقة، وكان من مصلحة أمريكا أن تتعامل مع حفنة من الضباط، بدلاً من التعامل مع حزب له أغلبية كاسحة وقدرة على تعبئة الجماهير ضد أهدافها الإمبريالية في المنطقة، وقد قدمت أمريكا أسلحة بنحو مليون دولار للنظام الجديد لتدعيم مركزه ضد القوى المناهضة له، خصوصاً أنه كان هناك تأكيد مستمر من الضباط أنهم ليست لديهم النية لمحاربة إسرائيل، وأن هذه الأسلحة ستتوجه لتدعيم النظام في الداخل. وبحسب المؤلف فإنه خلال العامين الأولين من حكم النظام العسكري، وصل التعاون والتنسيق بين الأمريكيين والمصريين لمناهضة الشيوعية إلى ذروته، وحتى حين اتخذ النظام الجديد خطواته الخاصة بتحديد الملكيات الزراعية، فقد أيده الأمريكان بل استعجلوا اتخاذ الخطوة رغبة منهم في تصفية النظام القديم وزيادة شعبية النظام الجديد بين الأغلبية الساحقة من الشعب المصري.

لكن شهر العسل بين الجانبين لم يستمر طويلاً، إذ بدت أهداف الأمريكان متناقضة: فهم يريدون من النظام الجديد أن يناوئ الشيوعية ويصفي النظام القديم، ويسعون في الوقت نفسه إلى حشره، ضمن ملف دفاع مشترك عن منطقة الشرق الأوسط، إضافة إلى الرضوخ لمشروع سلام مع إسرائيل بشروط الأخيرة، وكانت هذه نقطة فاصلة بين الطرفين.

※

التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٠٨٦ صفحة



يحلل الكتاب التطورات في سنة ٢٠٠٦ في كل من مجالات الأمن والصراعات، والإنفاق العسكري والأسلحة، وحظر الانتشار والحد من الأسلحة ونزع السلاح، وهو يحوي بين دفتيه قضايا مميزة يذكر منها: الصراعات المسلحة الرئيسية، والعنف الجماعي الذي يتجاوز التعريف المعتاد للصراع المسلح، وحفظ السلام، والمسألة الديمقراطية لأجهزة الاستخبارات، والطاقة والأمن، والإنفاق العسكري في العالم، وإنتاج الأسلحة، وعمليات نقل الأسلحة على المستوى العالمي، والتوجه إلى إبرام معاهدة بشأن تجارة الأسلحة، وخفض المخاطر الأمنية بالحد من حيازة مواد مدنية واستخدامها، وقرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٠ وحظر انتشار الأسلحة النووية من طريق تشريع دولي، والتفجيرات النووية ١٩٤٥ - ٢٠٠٦، والمواد الانشطارية المخزونة والمنتجة وكيفية التخلص منها، والتطورات في مضمار الأسلحة الكيمائية والبيولوجية وسبل الحد منها، ووضع ضوابط لعمليات النقل الدولية ذات الصلة بالأمن.

※

الودعاء من الأول إلى الرابع



كتاب الودعاء

جمال مقار

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٧

٣٠٣ صفحات

هذه سيرة الودعاء.. من وديع الأول إلى وديع الرابع.. يحكيها وديع الثالث في قسمين.. الأول منها يمهد للثاني الذي هو بحث في الجذور وبذور التكوين الأولى.

نتعرف في القسم الأول على وديع الثاني.. موظف بائس ينتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى.. يعاني تاريخيا من السرحان والتحليق في آفاق ماورائية تجعله مفتقدا للتواصل مع الآخرين في أحيان كثيرة.. وهو ما يجعلهم يتصورونه أبله.. فيما يوقن هو أنه عبقري.. ينظر دائما أبعد وأعمق مما يذهب إليه الآخرون.. وهو أمر لاتراه زوجته سلوى أو «سوتي» كما يحلو له أن يناديها.. وقد تأكد بنفسه من تقييمها له حين وقع على كراسة مذكراتها التي دونت فيها بعضا من إخفاقاته العديدة.. والتي كان ينزلق إليها بحماس منقطع النظير.. ومنها قصته مع تربية الأرانب ورحلة الاستجمام المجانية التي أوهمه بها نصابون محترفون.

ونعرف من كلام الراوي - وديع الثالث - كيف أن ما جمع بينه وبين زوجته كان هو التنافر الشديد.. قطبان متضادان.. يرى هو نصف الكوب ممتلئا وتراه هي فارغا.. لكن تنافرهما هو الذي قرب بينهما إلى حد الوله.. وأثمر زواجهما «زهرة» و«وديع الرابع».

يبدأ وديع الثالث بحثه عما يحقق أحلامه وينقله من فئته البائسة (موظف) إلى فئة أعلى.. ولأنه يهوى الأمس.. قرر أن يعمل في جريدة تهتم بالتاريخ والمذكرات والذكريات.. يكتب عن الأشياء القديمة والأحداث الكبرى التي وقعت في أزمنة بعيدة.. كما لو كان مراسل الجريدة من مواقع أحداثها.. وتختمر في ذهنه فكرة عبقرية.. البحث عن جذوره هو التي لم يكن يعلم عنها شيئا.. فيرحل إلى عزبة نخلة بالصعيد.. الوطن الأول للودعاء.. الذي أقاموا فيه حين أجبروا على ترك أرضهم بسبب انفلاتات وديع الأول.. وهو أيضا المكان الذي شهد فناءهم عن بكرة أبيهم - فيما عدا أبيه طبعا - حين حصدتهم الكوليرا قبل خمسين أو ستين عاما، كما أخبره شاعر الربابة العجوز «خريش حنيش عبد الله نخلة».. الوحيد الذي بقى من هذا السلسال اللعين.. والذي حفظ على تقاسيم ربابته الرحلة المقدسة للودعاء بنهايتها الحزينة الفاجعة.. والتي تقلب فيها وديع الأول بين أحوال شتى.. فهو المتمرد القاتل الهارب.. ثم هو الحائر التائب الخائف الصامت.

وسنتعرف من خلال مايرويه خريش حنيش على «خوصة» سيدة الودعاء.. ثم «حنينة» الفلاحة النشطة الولود التي تزوجها وديع الأول عقب وفاة زوجته الأولى «هنية».. ثم «نمرة» زوجته الثالثة التي كان مجيئها إيذانا بانحطاط امبراطورية وديع الأول وغياب شمس الحياة عنه وعن بيته.. وستكون «نمرة» سببا في تفكك أوصال العائلة.. فقد قيد «وديع الثاني» إلى الجهادية.. وانتهى الأمر بإخوته وديعة وبشرى ونجيب في دار عمهم رياض.. حتى داهمت الكوليرا الجميع فلم ينج سوى وديع الثاني.. الذي يروى لنا وديع الثالث بعضا من سيرته العطرة في الجيش المصري.. منذ التحاقه به جنديا مميزا ترقى استثنائيا لذكائه وطاعته وانضباطه.. وحتى هروبه من «طوكر» في السودان بمساعدة جندي مصري آخر يدعى «كرم».. وكان وديع الثاني قد ألقي به في السجن ظلما لرفضه إساءة من ضابط إنجليزي.

وحين ينتهي شاعر الربابة العجوز خريش حنيش من سرد حكاية الودعاء.. يكون قد اقترب من نهايته هو.. فيغسلونه ويدفنونه بالنخيلة حسب وصيته.. ويعود «وديع الثالث» إلى القاهرة.. حاملا لـ «سلوته» كنزا صغيرا منحه إياه حنيش هو تحويشة عمره.. وللأستاذ «ناظم كاظم» رئيس التحرير سبقا صحفيا جديدا هو حكاية الودعاء.

جمال مقار الذي صدرت له من قبل خمس روايات ومجموعتان قصصيتان.. نفس روائي طازج.. يمزج الأسطوري بالتاريخي بالتخيل في براعة قادرة.. وبلا ادعاء.. يجذبك إلى عالم حقيقي وغرائبي معا.. ولديه حس ساخر محبب.. وانشغال بالهم العام يودعه ببساطة بين السطور.

عماد الغزالي

نحو ثقافة مغايرة

جابر عصفور

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧.

١٤٥ صفحة



يضم الكتاب مقالات نشرها المؤلف في صحف مصرية وعربية تنظمها أربعة أقسام: ملاحظات تحليلية: مقدمات ومراجعات، مؤتمرات وملتقيات، إضاءات أدبية.

ويوقن المؤلف أننا بحاجة إلى ثقافة مغايرة، ثقافة بديلة عن تلك التي تشيع الإقصاء ورفض الآخر والظلامية، إيمانا منه بدور الثقافة في المجتمع، واتساقا مع ما أثبتته تجارب أمم عديدة من أنه لا تنمية صناعية أو اقتصادية ما لم تسندها ثقافة تدعمها وتدفع بها إلى الأمام.

ويلاحظ المؤلف أن رغبة الفكر العربي في تأمل متغيرات ثقافته العربية لا تنبثق على نحو تلقائي أو عشوائي، وإنما تنبثق مقترنة بمثير خارجي ودوافع عديدة: تتجلى في كثرة المتغيرات المتلاحقة والتأثيرات الجذرية الناتجة عنها، الفاعلة في أدوات الثقافة وعلاقاتها. وهو ما يعني أن السؤال عن التغيير هو الوجه الآخر للسؤال عن المستقبل، كلاهما تجسيد لآلية دفاعية وتعبير عنها. وكلاهما محاولة لاستباق اللحظة الحاضرة في قسوتها الحدية قبل أن تفر في زحمة الأزمنة المتداخلة أو المتضادة: ويشير الدكتور عصفور إلى أن تاريخنا الثقافي كله شاهد على ذلك. ابتداء من اللحظة التي دقت فيها مدافع نابليون حصون الإسكندرية، وانتهاء باللحظة التي لاتزال نعيش رعبها منذ أن هطلت صواريخ توما كروز على الدفاعات العراقية.

وكانت المحصلة في كثير من الشواهد، أن صيغت تمثيلات المشروع الجديد للنهوض على أساس من اتباع النموذج الليبرالي الأوروبي والدخول معه في علاقة التلميذ النجيب بالأستاذ النابغة الوحيد. ولم يمنع هذا المشروع الجديد من صياغة حلم للاستقلال عن الأصل المتقدم، لكن في موازاته وبأدوات إنتاجه المعرفية وعلاقاته الثقافية التي تتأسس على مبدأ المركزية وهي العلاقات التي سرعان ما أنتجت الثنائية المتعارضة بين قلب الشرق الفنان وعقل الغرب العالم.

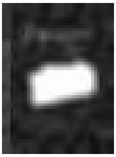
وفي إطار هذا التحليل يشير المؤلف إلى تجارب عدد كبير من الرواد المصريين والعرب، فضلا عن جهود عدد من المشايخ المستنيرين لإقامة دولة مدنية من أمثال رفاعة الطهطاوي والأفغاني والكواكبي ومحمد عبده وعلي عبدالرازق.

*

القاعدة وأخواتها

كميل الطويل

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٧ ٤١٢ صفحة



لم يعد العالم بعد حرب أمريكا على الإرهاب في أعقاب سبتمبر ٢٠٠١، كما كان قبلها، لكن الملاحظة اللافتة أنه بعد ٦ سنوات من حرب أمريكا على الإرهاب، وبرغم ما حققه الأمريكان من انتصارات هنا وهناك، فإن تحقيق نصر حاسم على ما تدعوه أمريكا بالإرهاب مازال فكرة بعيدة تماما. فقد أعادت حركة طالبان استعادة أنفاسها، وفرضت سيطرتها على مناطق واسعة في جنوب البلاد وجنوبها الشرقي، وفي العراق غرس الأمريكيين في مستنقع لا يعرفون كيف يمكنهم الخروج منه، يستنزف طاقاتهم ويشوه صورتهم إلى حد الإذلال.

أما تنظيم القاعدة، المستهدف الأول من حرب أمريكا على الإرهاب، فيبدو اليوم المستفيد الأول من غرق الأمريكيين في أوحال أفغانستان والعراق، حيث نجحت إلى حد كبير في امتصاص الضربات التي تلقتها وأعادت تنظيم صفوفها في مراكز انتشارها، وتحولت القاعدة إلى «قواعد»: القاعدة الأم في أفغانستان وباكستان، وقاعدة في بلاد الرافدين، وقاعدة في جزيرة العرب، وفي أوروبا والمغرب، وربما ظهرت قاعدات أخرى في الشام أو بلاد حوض النيل.

كانت أمريكا تحارب قاعدة واحدة، الآن تحارب قواعد، تناثرت شظايا القاعدة في أنحاء الكرة الأرضية، وصارت الحرب بينها وبين أمريكا وحلفائها عالمية، وقد ساهم غباء الإدارة الأمريكية وعنجهيتها في تحويل حربها ضد الإرهاب كما وصفته في البداية إلى حرب ضد الإسلام والمسلمين، كما حاول تنظيم القاعدة أن يوحي منذ البداية، وهو ما أسهم في ضخ دماء جديدة في تنظيم القاعدة الأصلي بزعامة أسامة بن لادن.

وهذا الكتاب يحكي قصة التحول في فكر الجهاديين، وبحسب المؤلف فلم يكن ممكنًا أن يروى تاريخ القاعدة بمعزل عن تاريخ أخواتها من جماعات الجهاد الأخرى التي نشأ غالبيتها في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات القرن الماضي، ولأن أخوات القاعدة كُثر، فإن الكتاب يكتفي بتناول جماعة الجهاد في مصر، والجماعة

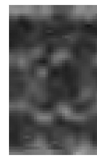
الإسلامية المسلحة في الجزائر، والجماعة الإسلامية المقاتلة في ليبيا، وكل منها نشأ في بيئة الأفغان العرب، أي في خضم الحرب في أفغانستان ضد الوجود السوفيتي. كما أنها جميعًا مارست الجهاد المسلح ضد أنظمة الحكم في بلادها بهدف إسقاطها.

٭

تيارات الفكر الإسلامي

محمد عمارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٥٠ صفحات



طبعة جديدة من كتاب تزداد الحاجة إليه اليوم أكثر من أي وقت آخر في واقع عربي وإسلامي يزداد فرقة وتفتتًا بفعل ضربات خارجية متواصلة ومعاول هدم داخلية متواطئة أو غير مدركة لمصالحها في أحسن الظروف.

يعرض المؤلف للجذور التاريخية لنشأة هذه التيارات الفكرية وأثرها في واقع الأمة الإسلامية على كافة الأصعدة، وخصوصًا الصعيدين السياسي والثقافي، وهي: الشيعة، الخوارج، المرجئة، الزيدية، السلفية، الأشعرية، المعتزلة، المهدية، السنوسية، الجامعة الإسلامية، الوهابية.

ويرى المؤلف فإن أبرز مدارس التفطية وأكثرها أصالة وتأثيرا هي تلك التي أخذت تبني الحاضر وتتصور المستقبل امتدادًا متطورًا لأكثر الصفحات إشراقًا وتقدمًا وعقلانية في تراثنا الحضاري العريق، بينما ظلت مدارس التقليد والنقل والتغريب هوامش، لعبت دور المنير والمنبه والحافز، لكنها لم تحصل على شرف الانتماء إلى الكيان العقلي الذي يمثل القسمات الأصلية والمميزة لأمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات.

ويميز المؤلف بين عديد من التصورات حول كيفية تحقيق النهضة وإنقاذ الأمة من كبوتها، إذ يرى البعض أن السلف الصالح لأمتنا هم سلف عصورها المظلمة، يوم تراجعت عن الخلق والإضافة والإبداع اكتفاء بتقديس النصوص، وأغلقت باب الاجتهاد، ومن ثم يدعو هذا البعض إلى صب الحاضر والمستقبل في قوالب الماضي التي صنعها هذا السلف، ظنًا منه أن هذه القوالب هي الدين الثابت الحاكم المنزل من عند الله. ويرى بعض آخر أن عزة الأمة وازدهارها الحضاري لن يتحقق إلا بإبداع عقلانيتها، واتخاذها موقفًا وسطًا، هو العدل الذي يرفض التطرف وينأى عن المغالاة والانحراف.

فعقلانية الأمة لم ترفض الوحي ولم تتنكر للنص المأثور كما كانت عقلانية اليونان، كما أنها لم تتعبد في النص المأثور، إنما وازنت بين العقل والنقل، ووفقت بين الحكمة والشريعة، ولجأت إلى التأويل عندما لاح التعارض بين ظواهر النصوص وبراهين العقول.

وقد رفضت عروبة الأمة الشعوبية التي أنكرت على العرب دورهم الرائد في الدولة وفي الدين، كما رفضت عصبية العرب الجاهلية التي أرادت تأسيس العروبة على العرق والجنس والاستعلاء، ولم ينحرف بها مذهبها في طبيعة السلطة نحو الكهانة التي تجعل الدين والدولة أمرًا واحدًا، ولا نحو العلمانية التي تفصل وتقطع ما بين الدين والدولة من صلات.

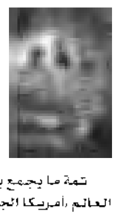
بهذه الرؤية يدعونا المؤلف إلى قراءة تيارات الفكر الإسلامي كما عددها وتبين أثرها.

٭

قراصنة أمريكا الجنوبية

طارق علي

بيروت: شركة المطبوعات للنشر، ٢٠٠٧، ٢٦٠ صفحة



ثمة ما يجمع بين هذه المنطقة من العالم (أمريكا الجنوبية) ومنطقتنا منطقة الشرق الأوسط: نسبة الفقر المرتفعة، الإحساس الواقعي بالتبعية وبالتغلغل الأمريكي الذي يستهدف نهب الثروة وابتزاز الشعوب، وربما لهذا السبب نشعر هنا بالفخر حين يجابه كاسترو الأمريكان، ويتحداهم شافيز في خطب علنية، ويعلن دي لاسيلفا حرصه على استقرار واستقلال قرار بلاده، بل وتهب رياح الأمل فتنعش طموحات ذوي الاتجاهات اليسارية في بلادنا الذين أحبطوا حين ولى اليسار وتفتتت المنظومة الشيوعية على الأرض وفي كتابات المنظرين.

وهذا الكتاب يتحدث عن حالة الغليان التي تسود هذه المنطقة من العالم وتقترب بها في لحظات كثيرة من حافة الخطر والمواجهة، ويتناول معاناة شعوبها التي يعيش معظمها تحت خط الفقر، فيما ثرواتها تنهب من قبل أمريكا وقادة فاسدين متواطئين مع هذا المشروع للسيطرة على العالم.

يضم الكتاب ستة فصول: عصر التعمية، الأبخرة الإمبريالية، الثور والحمير الماكرة، بوليفيا من جديد، ملاحظات من مفكرة هافانا، حيوات سيمون بوليفار، إضافة إلى عدة ملاحق تتضمن خطبًا وكلمات في مناسبات مختلفة لزعماء هذه المنطقة.

٭

قاموس الأدب العربي الحديث

حمدي السكوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٥٤٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب معلومات في شكل مقالات مختصرة عن المبدعين والمفكرين العرب في العصر الحديث، من موريتانيا إلى عمان، منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى عام ٢٠٠٦، بالإضافة إلى مداخل للكتب المهمة والمجلات الثقافية والأدبية الفاعلة، والجمعيات والمدارس الأدبية التي كان لها دور في تطوير بعض الفنون الأدبية، والمكتبات ذات الأهمية والتاريخ في الوطن العربي، وكذلك المجالس والصالونات الأدبية والمقاهي الثقافية.

والكتاب يضم ما يقرب من ألف مدخل تدور حول: المبدعين العرب في مجالات الشعر والرواية والمسرح والقصة، الأحياء منهم والراحلين، ومن يكتبون بالعربية أو بالفرنسية أو بالإنجليزية، النقاد العرب الحاليين والراحلين، إضافة إلى مفكرين قدموا إسهامات مهمة في مسيرة الثقافة العربية الحديثة من أمثال الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وقاسم أمين وبشر فارس وفرح أنطون ولطفي السيد وهدى شعراوي وصفية زغلول ونبوية موسى وسيزا نبراوي ودرية شفيق وغيرهم.

وأيضًا تحدث عن كبار العلماء والفنانين والمهتمين بالفكر الفلسفي والصحفيين الراحلين من أمثال: علي مصطفى مشرفة ومحمد كامل حسين وأحمد مستجير ومحمود مختار وحسن فتحي ومصطفى عبدالرازق وعبدالرحمن بدوي وزكي نجيب محمود ومحمد التابعي وفكري أباظة ومصطفى وعلى أمين وأحمد بهاء الدين وغيرهم.

فضلاً عن كبار المسرحيين والسينمائيين والموسيقيين مثل يوسف وهبي ونجيب الريحاني وزكي طليمات وسيد درويش وبديع خيري وأمينة رزق وأم كلثوم.

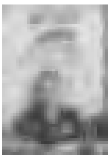
وخصصت باقي المداخل للكتب المهمة مثل (تخليص الإبريز) للطهطاوي، و(الخطط التوفيقية) لعلي مبارك، و(تحرير المرأة) لقاسم أمين، و(الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق، و(الاستشراق) لإدوارد سعيد، والعشرات من دواوين الشعر والروايات والمسرحيات ومجموعات القصص وغيرها.

٭

رحلتي

تقديم: فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٩٥ صفحة



أودع الموسيقار الراحل محمد عبدالوهاب هذه الأوراق لدى زوجته السيدة نهلة القدسي، وأوصاها أن تسلمها بعد رحيله للشاعر الكبير فاروق جويدة، الذي كان قريبًا من الموسيقار الكبير طيلة ربع قرن حتى وفاته.

وما تضمنته هذه الأوراق ليس ذكريات بالمعنى المتعارف عليه، هي شذرات ورؤى وآراء وملاحظات في موضوعات عديدة، تولى فاروق جويدة تصنيفها وتبويبها لتقدم لنا في مجملها صورة عن رحلة عبدالوهاب: مع الفن، مع الناس، مع المرأة والحب، مع السياسة، مع الحياة، وهي تحتوي على آراء شديدة الجرأة لم تكن معهودة في الموسيقار الراحل، الذي عرف عنه أنه كان مجاملاً لأبعد الحدود، لكنه هنا يبدي آراء في زملائه وتلاميذه من الموسيقيين، وربما يكون مفاجئًا لكثير من القراء، هذا التقدير الكبير الذي يحمله عبدالوهاب للسنباطي، برغم ما أشيع عن احتدام حدة التنافس بينهما، وكذلك تقديره الكامل لإبداع الموسيقار سيد مكاوي، إذ يعتقد عبدالوهاب أن ما أبدعه الشيخ سيد هو ما سيبقى من كل الملحنين، ونلاحظ كذلك أنه لم يحمل كثيرا من التقدير لإبداع بليغ حمدي الذي رأى فيه تاجرًا في الفن وإن لم يكن تاجرًا في الحياة، بعكس كمال الطويل الذي رأى أنه تاجر في الحياة وليس تاجرًا في الفن، أما الموجي فهو عقلية رياضية متغلغة، وهو ما تبدى في كثير من ألحانه. ولعبدالوهاب آراء كذلك في عديد من مطربي هذا الزمن، وكذلك سياسييه وكتّابه وصحفييه وشعرائه، يبديها بلا مواربة، فضلاً عن كم من المأثورات التي ابتدعها والتي تكشف عن غرامه بالكلمة الحلوة المهذبة.

٭

مشروع حوار



فايز سارة

* كثيراً ما جرى تأكيد، أن المشروع الثقافي في العالم العربي هو مشروع الدولة. واستند التأكيد إلى نوعين من التجارب، كان الأول منها تجربة البلدان التي اختطت تجارب شمولية، حيث أناطت بنفسها كل المسئوليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي تجربة قاربت فيها تجارب الأنظمة الشمولية التي كانت تحكم البلدان الشيوعية كما في الاتحاد السوفيتي السابق والصين الشعبية وما بينهما من ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا وفيتنام ومنغوليا، وكان النموذج العربي المقارب حاضراً في مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الجنوبي وغيرها من بلدان، أحدثت هيئات ومؤسسات ثقافية وإدارية مهمتها رسم وتنفيذ سياسة نشر وطباعة وتوزيع وتداول الكتب والمواد الثقافية بما فيها الكتب الفكرية والعلمية، والتي في إطارها مضت تجارب كثيرة كان منها تجربة وزارة الثقافة السورية وخاصة مديرية التأليف والنشر، التي انصب اهتمامها في نشر وترجمة وطباعة وتوزيع الكتب بموضوعاتها المختلفة.

والنوع الثاني من تجارب الدولة للمشروع الثقافي العربي، كرسته تجربة قلة من الدول العربية النفطية، التي تقدمت - ولو من موقع مختلف للتجربة السابقة - للقيام بعبء مشروع ثقافي عام متعدد المجالات في ميدان التأليف والطباعة والنشر والترجمة، وكانت المعالم الأكثر وضوحاً في التجربة الكويتية، التي مثلتها تجربة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بإنجازاته الثقافية المتنوعة والمميزة، وهي تجربة سعت بلدان عربية نفطية أخرى إلى محاكاتها مثل قطر والبحرين وعمان وسط مستويات أقل من نجاحات التجربة الكويتية.

وبغض النظر عن اختلاف التجربتين في تولي الدولة مسئولية المشروع الثقافي العربي، فقد راوح المشروع في كل الحالات في الحدود المعرفية والثقافية، أكثر مما ذهب في الاتجاهات الفكرية والسياسية، التي قد لا تتوافق أو أنها تتعارض مع فلسفة النظام السياسي إلا في حالات محدودة ونادرة، كما في حال قيام وزارة الثقافة السورية بنشر عدد من أمهات الكتب الماركسية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي تحت تأثير عوامل معينة، لكن أغلب منشوراتها ذهبت في اتجاهات معرفية وثقافية، كما في مشروع المدن السورية وفي سلاسل الروايات والقصص والكتب الاقتصادية، وقريباً من هذا الاتجاه جاءت تجربة ناتج النشر للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت من سلسلة عالم المعرفة إلى سلسلة المسرح.

وإذا كان ثمة بلدان عربية، خرجت بتجاربها في المشروع الثقافي العربي عن النموذجين السابقين في قيام الدول بأعباء ذلك المشروع، فإن هذا الخروج، كان جزئياً، وغالباً ما استند إلى عجز الدولة المالي وربما السياسي في ملء الفضاء الذي يوجبه المشروع الثقافي، مما فرض مستويات من التدخل تقوم به الدولة وأجهزتها في رسم حدود المشروع الثقافي وتحديد مساراته ومحتوياته، ومحاولة أخذ حيز في بعض هوامشه سواء من باب إثبات الموجودية، أو بهدف رسم توجيهات أو رسائل ثقافية للمشتغلين في المشروع الثقافي من مؤسسات وأفراد للالتزام بها أو السير في ركابها.

ربما كان لبنان، هو البلد العربي الوحيد الذي امتلك لأسباب متعددة فرصة الحضور المحدود للدولة في المشروع الثقافي، تاركاً هذا المشروع ولا سيما في ميدان التأليف والطباعة والنشر والتوزيع في يد القطاع الخاص بمؤسساته وأفراده، وكان التفرد اللبناني الثاني في موضوع المشروع الثقافي هو غياب الرقابة المسبقة بشكل كامل، وهو أمر قائم في أغلب البلدان العربية، والأقل فيها هو ما يجعل القضاء صاحب القرار في حظر التداول، وفي المجال الأخير، فإن لبنان صاحب الموقع الأفضل في التعاطي مع تداول المنتج الثقافي ولاسيما مع الكتاب. وقد جعلت الخصائص اللبنانية، لبنان بلد الكتاب العربي الأول بلا منافس في التأليف والترجمة والنشر والتداول.

لقد تركت التجربة اللبنانية أمام دور النشر الكثيرة والمختلفة فرص رسم وتنفيذ مشروعاتها في ميدان النشر، وقد ظهر كثير من هذه المشروعات، لكن الغلبة فيها كانت للمشروعات الثقافية والمعرفية والعلمية المتقاربة مع حدود المشروع العربي العام على نحو ما هو عليه مشروعات دار رياض الريس ودار الساقي ودار العلم للملايين، وقلة قليلة من تلك المشروعات تجاوز تلك المشاريع للذهاب نحو مشروع فكري سياسي له أهمية راهنة على نحو ما ذهبت دار الفكر بدمشق توأم وشريكة دار الفكر المعاصر ببيروت في مشروعها القائم «حوارات لقرن جديد».

ولا يستمد مشروع دار الفكر أهميته من محتواه الفكري والسياسي المتفرد فقط، بل من حيثيات طبيعته الأخرى، التي يؤشر إليها اسمه «حوارات لقرن جديد».. إذ هو مشروع حوار بين متخصصين من باحثين وعلماء وكتاب، وهو بالمعنى المحدد المشروع الأول من نوعه في العالم العربي، وقد ولدت هذه الأسبقية على قاعدة الحاجة لا على قاعدة التجريب، الأمر الذي تؤكده محتويات المشروع، سواء من ناحية الموضوعات المطروحة، أو من ناحية الأسماء المشاركة، أو من الطريقة التي اتبعت في التعامل مع موضوعات المشروع، والأهم في ميزات المشروع سخونة وراهنية موضوعاته، التي لا شك أن أغلبها يندرج في أول اهتمامات الرأي العام العربي والإسلامي وجزء كبير من الرأي العام في العالم.

لقد فتح إطلاق المشروع في العام ١٩٩٨ الباب للتفكير في مختلف الموضوعات التي تهم القارئ والمواطن في مختلف البلدان العربية، وهكذا صارت كل الموضوعات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على أجندة المشروع، وقد تكرس هذا التنوع في المنتج الذي صدر عن المشروع وقد تجاوز حتى الآن الأربعين كتاباً من مختلف الاختصاصات، كان منها في الفكر والسياسة «إشكاليات الخطاب العربي المعاصر»، و«مستقبل الحوار الإسلامي - المسيحي»، و«الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل»، و«مستقبل الحركات الإسلامية»، وفي الاقتصاد صدرت مؤلفات «الخصخصة آفاقها وأبعادها»، و«الاقتصاد الإسلامي: علم أم وهم»، و«الربا والفائدة دراسة اقتصادية مقارنة»، وفي موضوعات المجتمع «المجتمع الأهلي ودوره في بناء الديمقراطية»، و«أزمة الأقليات في الوطن العربي»، و«حقوق الإنسان في الوطن العربي»، وفي الموضوعات الثقافية «المسألة الثقافية في العالم العربي - الإسلامي»، و«مستقبل

حوارات لقرن جديد
«سلسلة»
دار الفكر - دمشق، ٩٨ - ٢٠٠٧

ربما كان لبنان، هو البلد العربي الوحيد الذي امتلك لأسباب متعددة فرصة الحضور المحدود للدولة في المشروع الثقافي، تاركاً هذا المشروع ولا سيما في ميدان التأليف والطباعة والنشر والتوزيع في يد القطاع الخاص بمؤسساته وأفراده

العلاقة بين المثقف والسلطة، و«جذور أزمة المثقف في الوطن العربي»، وفي الموضوعات الإسلامية «تجديد الفقه الإسلامي»، و«إشكالية تجديد أصول الفقه الإسلامي»، و«الاجتهاد: النص، الواقع، المصلحة»، و«الإسلام والعصر»، وفي قضايا المرأة: «المرأة والدين والأخلاق»، و«المرأة والجندر».

لقد تضمن المشروع كثيراً من الموضوعات سواء في العناوين الأساسية أو تفاصيلها، وهو أمر سوف يستمر في الإصدارات التي لا تزال تتوالى في إطار المشروع، وقريباً من هذا التطور في الموضوعات، يجري مسار المفكرين والباحثين والكتاب المشاركين في المشروع، وقد بلغ عددهم العشرات من أهم الأسماء العربية، بينهم رضوان السيد، وبرهان غليون، ولؤي صافي، وخليل أحمد خليل، ومحمد وقيدي، وعبدالوهاب المسيري، وطيب تيزيني، وميلاد حنا، وسعيد يقطين، وفيصل دراج، وأحميدة النيفر، ونوال السعداوي، وشيرين شكري.

ويتوزع هؤلاء على مختلف التخصصات العلمية والمعرفية، وهم ينتمون إلى مشارب فكرية وسياسية مختلفة، كذلك الأمر بالنسبة إلى انتماءاتهم إلى ديانات وطوائف متعددة، وإلى بلدان مختلفة بينها بلدان عربية وأخرى إسلامية، وقد انضم إلى المشاركين رجال دين مسيحيون من غير العرب، جاء في طليعتهم الإيطالي الأب موريس بورمانس الذي شارك أحميدة النيفر في حوارية مستقبل الحوار الإسلامي ـ المسيحي.

إن تميز المشروع يتجاوز موضوعاته والمشاركين فيه إلى طريقة العمل فيه، وهي طريقة محدثة، إذا نظرنا إليها في عمومية المشروع لا في خصوصية موضوع واحد من موضوعاته، ففي آليات عمل كل حوارية، يجري تحديد الموضوع عبر اتصالات أولية مع مجموعة من المختصين، قبل أن يتم اختيار بعضهم للمشاركة، ثم يكلفون كتابة البحث المحدد، ويجري تبادل الأبحاث بعد إنجازها، لكتابة تعليقات متبادلة على البحث الأول، والتبسيط في شرح طريقة العمل يتجاوز كثيراً من العقبات والمشاكل، التي تعترض إنجاز كل واحدة من الحواريات.

قائمة الإصدارات الحوارية

الإسلام والعصر: تحديات وآفاق. تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي ود. طيب تيزيني (١٩٩٨).

الديمقراطية بين العلمانية والإسلام. تأليف: د. عبدالرزاق عيد ود. محمد عبدالجبار (١٩٩٩).

الخصخصة: آفاقها وأبعادها. تأليف: د. رياض الأبرش ود. نبيل مرزوق (١٩٩٩).

ما العولمة؟. تأليف: د. حسن حنفي، ود. صادق العظم (١٩٩٩).

ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. تأليف: د. برهان غليون ود. سمير أمين (١٩٩٩)

تجديد الفقه الإسلامي. تأليف: د. وهبة الزحيلي ود. جمال الدين عطية (٢٠٠٠).

الاجتهاد: النص ـ الواقع ـ المصلحة. تأليف: د. أحمد الريسوني وأ. محمد جمال باروت (٢٠٠٠).

الاقتصاد الإسلامي: علم أم وهم؟. تأليف: د. غسان محمود إبراهيم ود. منذر القحف (٢٠٠٠).

الإيمان والتقدم العلمي. تأليف: د. هاني رزق ود. خالص جلبي (٢٠٠٠)

العلمانية تحت المجهر. تأليف: د. عبدالوهاب المسيري ود. عزيز العظمة (٢٠٠٠).

المرأة والدين والأخلاق. تأليف: د. نوال السعداوي ود. هبة رءوف عزت (٢٠٠٠).

أزمة الفكر السياسي العربي. تأليف: د. رضوان السيد ود. عبدالإله بلقزيز (٢٠٠٠).

المسألة الثقافية في العالم العربي الإسلامي. تأليف: د. رضوان السيد ود. أحمد برقاوي (٢٠٠١).

الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل. تأليف: زكي ميلاد وتركي الربيعو (٢٠٠١).

الربا والفائدة: دراسة اقتصادية مقارنة. تأليف: د. رفيق المصري ود. رياض الأبرش (٢٠٠١).

إشكاليات الخطاب العربي المعاصر. تأليف: د. كمال عبداللطيف ود. نصر محمد عارف (٢٠٠١).

آفاق فلسفة عربية معاصرة. تأليف: د. أبويعرب المرزوقي ود. الطيب تيزيني (٢٠٠١).

نحن والآخر. تأليف: د. غرايغوار منصور مرشو وأ. سيد الحسيني (٢٠٠١).

آفاق الإبداع ومرجعيته في عصر المعلوماتية. تأليف: د. حسام الخطيب ود. رمضان بسطاويسي (٢٠٠١).

مستقبل العلاقة بين المثقف والسلطة. تأليف: د. خليل أحمد خليل ود. محمد علي الكبيسي (٢٠٠١).

مستقبل إسرائيل. تأليف: د. السيد ولد أباه وأ. منير شفيق (٢٠٠١).

لماذا أخفقت النهضة العربية. تأليف: د. محمد وقيدي ود. احميدة النيفر (٢٠٠٢).

التحليل النفسي: ماضيه ومستقبله. تأليف: د. حسين عبدالقادر ود. محمد أحمد النابلسي (٢٠٠٢).

جذور أزمة المثقف في الوطن العربي. تأليف: د. أحمد موصللي ود. لؤي صافي (٢٠٠٢).

المرأة والجندر. تأليف: د. أميمة أبوبكر ود. شيرين شكري (٢٠٠٢).

الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن. تأليف: د. أمل يازجي ود. محمد عزيز شكري (٢٠٠٢).

أزمة الأقليات في الوطن العربي. تأليف: د. حيدر إبراهيم ود. ميلاد حنا (٢٠٠٢).

حقوق الإنسان في الوطن العربي. تأليف: د. أحمد الرشيدي ود. عدنان السيد حسين (٢٠٠٢).

النظر والعمل والمأزق الحضاري. تأليف: د. حسن حنفي ود. أبويعرب المرزوقي (٢٠٠٢).

المجتمع الأهلي ودوره في بناء الديمقراطية. تأليف: أ. عبدالغفار شكر ود. محمد مورو (٢٠٠٢).

الحداثة وما بعد الحداثة. تأليف: د. عبدالوهاب المسيري ود. فتحي التريكي (٢٠٠٣).

آفاق نقد عربي معاصر. تأليف: د. سعيد يقطين ود. فيصل دراج (٢٠٠٣).

المجتمع المدني وأبعاده الفكرية. تأليف: د. الحبيب الجنحاني ود. سيف الدين إسماعيل (٢٠٠٣).

النظام السياسي في الإسلام. تأليف: د. برهان غليون ود. محمد سليم العوا (٢٠٠٣).

نقد ثقافي أم نقد أدبي. تأليف: د. عبدالله الغذامي ود. عبدالنبي اصطيف (٢٠٠٤).

خطاب الحداثة. تأليف: د. جمال شحيد ود. وليد قصاب (٢٠٠٥).

مستقبل الحركات الإسلامية بعد ١١ أيلول. تأليف: د. رفعت السيد أحمد ود. عمر الشوبكي (٢٠٠٥).

مستقبل الحوار الإسلامي ـ المسيحي. تأليف: د. احميدة النيفر والأب موريس بورمانس (٢٠٠٥).

عوائق التحول الديمقراطي في الوطن العربي. تأليف: د. سعيد بنسعيد العلوي ود. سيد ولد أباه (٢٠٠٦).

إشكالية تجديد أصول الفقه. تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي ود. أبو يعرب المرزوقي (٢٠٠٦).

آفاق علم الاجتماع عربي معاصر. تأليف د. عبدالقادر عرابي ود. أبو بكر باقادر (٢٠٠٦).

أزمة التعليم الديني في العالم الإسلامي. تأليف: د. خالد الصمدي ود. عبدالرحمن حللي (٢٠٠٧).

الأسطورة والسياسة. تأليف: د. فاضل الربيعي وتركي علي الربيعو (٢٠٠٧).

مستقبل الإسلام. تأليف: د. عبدالمجيد الشرفي ود. مراد هوفمان (٢٠٠٧).

وإضافة إلى ما سبق، فإن سخونة وراهنية موضوعات المشروع هي بين أهم ميزاته، ففي الوقت الحاضر، هنالك عدد من القضايا التي تشغل بال العالم، ويتوقف على تطورها مصير المنطقة العربية والإسلامية ومصير العالم كله، ومن ذلك موضوع الإرهاب، والعلاقات بين الدول والشعوب والثقافات، ومستقبل إسرائيل والصراع معها، ومستقبل الحركات الإسلامية، والعولمة، وكلها موضوعات في صلب اهتمامات الدوائر الدبلوماسية ومراكز البحث والدراسات في العالم، وهي موضع اهتمام الحكومات والجماعات السياسية وأوساط الرأي العام، كما أن ثمة موضوعات لها أهمية خاصة على الصعيد العربي ـ الإسلامي ومنها موضوعات حقوق الإنسان، والأقليات والمجتمع المدني والمجتمع الأهلي، والتحول الديمقراطي، والعلمانية والنظام السياسي في الإسلام، وموضوعات أخرى يثار حولها كثير من الأسئلة في العالمين العربي والإسلامي.

وميزة موضوعات المشروع، أنها تطرح وجهات نظر وتحليلات مختلفة بالاستناد إلى معطيات ووقائع معرفية وعملية، ثم تدخل وجهات النظر تلك في عملية حوار، يكمل فيها المختصون وجهات نظرهم، ويجاوزها للرد على وجهات النظر المقابلة في موضوع الحوارية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار اختلاف تجارب المشاركين وتنوع معارفهم وخبراتهم، فإن محتوى الحوارية، يفترض أوسع تغطية معرفية وتحليلية، يعقبها سجال بين المشاركين، الأمر الذي يفترض وصول الموضوع إلى مستوى أعلى من معالجة القضية المطروحة.

إن التفاصيل المحيطة بالمشروع الذي تتوالى حلقات إنجازاته متجاوزة الأربعين كتاباً، تكشف عن عمق فكرته وريادتها في إطار العمل الثقافي العربي، وهي فكرة تطلبت جهوداً متواصلة في الإعداد والمتابعة على خطوط متعددة ومتشابكة، كما احتاج المشروع إلى تمويل ضخم، سعت دار الفكر بكل طاقتها وقدراتها المادية والبشرية إلى استمرار المشروع وإنجاحه، وقد عكست هذه الإرادة والقدرة روح الرغبة في فتح ذهن القراء ومساعدة الجمهور في التعرف على القضايا المطروحة والتفاعل معها من بوابة المعرفة والإدراك لما يجري حولنا من أحداث وتطورات. ※

The Thing About Life Is That One Day You'll Be Dead

جوهر الحيـــاة هـو أنك ستموت يوماً

by David Shields
Knopf, , 2008, 256 pp.,
$14.37



«تبلغ السبعين فيتضاعف خطر وفاتك كل ثمانية أعوام، وبحلول العقد التاسع من العمر، لا تفوح منك أية رائحة مميزة... فأنت في سبيلك إلى الاختفاء، «يقارب حجم مخ الإنسان البالغ من العمر ٩٠ عاماً مخ طفل في الثالثة من عمره، وهكذا وهكذا! قد يصيب وصف ديفيد شيلدز للاضمحلال وضعف الشيخوخة القارئ الحساس تجاه سنه بالارتباك إلا أن كتاب جوهر الحياة هو أنك ستموت يوما يتمكن من تجاوز العواطف الجياشة بمزج التاريخ الشخصي بمعلومات بيولوجية لا لبس فيها حول كل مرحلة من مراحل الحياة ليخلق بذلك «سيرة ذاتية للجسد» تسعى إلى الإحاطة بمغزى الموت وكذا الحياة. تتداخل معلومات شيلدز الصريحة - والمنذرة بالسوء في الغالب - في تجربته الشخصية كأب في الواحد والخمسين مصاب بألم متنام في الظهر. يقابل شيلدز ميوله الكئيبة بمشهد متحد لوالده ذي السابعة والتسعين، رجل خاض معركة منحة طويلة الأمد مع أمراض الزمن. (لو حدث وصدقه القارئ، سوف يجد حياته العاطفية في سن السبعين مذهلة بحق.)

إن شيلدز يتطلع إلى قوس الحياة الإنسانية بغية التصالح مع فكرة الفناء وقد رتب كتابه في أربع مراحل: الطفولة؛ المراهقة والنضوج؛ الكهولة والعجز؛ الموت. وبه يورد فصولاً قصيرة موجزة تتخللها في نوادر شخصية (تصور العديد منها زوجته وابنته المراهقة) وحقائق علمية تهم القارئ. يمتزج هذا الكتاب بملحوظات الكثير من الفلاسفة من سيسرو وسوفيكليس إلى لورين باكال وودي آلان (لا رغبة لي في تحقيق الخلود من خلال أعمالي، أريد أن أحقق الخلود من خلال «عدم الموت») سوف يجد القارئ هذا الكتاب مدهشا: فهو عناق للحالة الإنسانية يشدد على الحياة عندما تصير إخفاقات وزلات لا مفر منها «مثيرة، و«محررة، وليست نذرا قاسية بالنهاية.

❋

Things I've Learned From Women Who've Dumped Me

أشياء تعلمتها من النساء اللاتي هجرنني

by Ben Karlin
Grand Central Publishing,
2008, 240 pp., $14.39



كانت مجلة نيو يورك تعلم جيداً عما تتحدث عنه حينما صرحته «لو كنت قد ضحكت خلال العشرة أعوام الماضية، فبن كارلين هو المسئول». كارلين محرر سابق بجريدة ذي أونيون ومنتج منفذ سابق في كل من برنامجي ذا ديلي شو ويز جون ستيوارت وذا كولبير ريبورت؛ شارك أيضا في تأليف كتاب أمريكا (الكتاب): دليل المواطن إلى الكسل الديمقراطي. أما آخر مشاريعه فهو تجميع ٢١٢ صفحة تحوي دروسا نافذة مغرقة في الفكاهة عن الحياة ضمن كتاب يحمل أفضل عنوان في عام ٢٠٠٨. وقد استقى تلك الدروس من سلسلة من الكتاب والكوميديين المشهورين.

تستهل أم بن الكتاب بجملة «أظن أن ابني لقطة»، لكن واصل القراءة لكي تستمتع بمساهمات قصيرة من نيك هورنباي وبروس جيي فريدمان وأندي ريكتر («الفتيات لا تتقربن من الصبية ذوي المؤخرات السمينة») وستيفين كولبير («القلب مخاطرة خانقة») وجيسون ناش («لا تدخل مسابقة كاريوكي بالقرب من كلية سميث؛ فسوف تخسرها أمام السحاقيات») ودان سافيدج («أنا رجل شاذ») وديفيد ريس («انقلب قبل أن تتورط عاطفيا»). ينقسم الكتاب إلى فصول موجزة تشتمل على حقائق وشهادات واكتشافات عن نساء هربن أو للأسف لم تتسن للرجال الفرصة لواعدتهن أبدا. تزود بعض المقالات بالنصائح مثل خطة مريرة وضعها بوب أودينكيرك ويتحدث فيها عن السنة التاسعة، إذ يشرح لماذا تصبح السنة التاسعة سنة مثالية كي يدرك المرء أنه ينخرط في علاقة فاشلة. وعلى الجانب الآخر يؤكد كارلين أن الرجال يشتركون في شيء واحد، ألا وهو افتقارهم إلى القدرة على الفهم وتمسكهم بمعلومات مختلفة عن النساء. وهكذا يزخر الكتاب برؤى عن طريقة عمل عقل الرجل الحديث. سوف ينفي القراء من الجنسين هذه المقتطفات مثيرة للاهتمام بغض النظر عن حالتهم الاجتماعية.

❋

The Life of the Skies

حياة السماوات

by Jonathan Rosen
Farrar, Straus and Giroux,
2008, 336 pp., $14.40



يتأمل روزين - روائي ومدير تحرير مجلة نيكستبوك - في هذا الكتاب البليغ في حقيقة أن التكنولوجيا تمكننا من الحفاظ على الحياة البرية وفي نفس الوقت تساهم في زوالها. فهو يصرح في نبرات توحي بالتفجع أن عند اكتشافه عادة مراقبة الطيور لم يلبث أن يدرك أن الطبيعة باتت شيئا مضمحلا على حد قول روبرت فروست في قصيدته «الطائر الفران». بجيل ناظريه في كل اتجاه - من مستنقعات لويزيانا إلى الصحراء الإسرائيلية - فترتطم عيناه بالمفارقات: إننا نحاول الحفاظ على الطبيعة وفي نفس الوقت ندمرها. يفضي روزين بأن السيارات والقطارات والطائرات مكنتنا من العثور على طيور أمريكا بيد أن هذه الاختراعات تسببت في تعريضها للأخطار. يقول روزين إن الطيور تجيبك بالغناء بل تصيح في وجوهنا ردا على ما نفعله بها؛ وهو يعترف بأن هذا هو السر في اكتسابه عادة مراقبة الطيور. فالعديد من الطيور في سبيلها الآن إلى الانقراض إلى الأبد.

يثب فكر روزين الشامل برشاقة من قضايا الطبيعة إلى التاريخ والشعر، وثمة تأملات رقيقة موشاة بالتعليقات اللاذعة («تجميع الطيور» كلمتان تشيران في الحقيقة إلى «قتلها»). لا يعدم كتاب حياة السماوات من جمال، جمال ينبع من كونه مرثاة للحالة الإنسانية في وقت صارت فيه البرية حالة من الماضي. إنه ليس مجرد كتاب عن الطيور، فهو سبر عميق قد لا يتوقعه القارئ لحياة الطيور من خلال عدسة التاريخ والأدب والفقدان - عملية حب لعالم منقرض لا يزال مع ذلك مغريا. وهكذا يمتع الكتاب القارئ من أول صفحة؛ فروزين يكتب ببصيرة وذكاء وعاطفة مذهلة، والقصة التي يرويها هنا من أفضل أنواع الملاحم الطبيعية، رحلة في العراء تنتهي بتمجيد الجمال والمغامرة الموجودين فينا جميعاً.

❋

Beautiful Boy: A Father's Journey Through His Son's Meth Addiction

صبي جميل، رحلة أب عبر إدمان ابنه على الميثامفيتامين

by David Sheff
Houghton Mifflin, 2008, 336
pp., $14.40



يحكي شيف تجربة تترع بالألم في مقالة كتبها ذات يوم في نيو يورك تايمز. حول شيف تلك المقالة إلى كتاب يؤرخ لسقوط ابنه السريع في دائرة الإدمان وتأثير هذا الإدمان عليه وعلى أسرته. يبدأ نيك، مراهق ألمعي ذكي، في تجربة مواد تغير كيمياء المزاج والدماغ وهو في السابعة عشرة. وخلال أشهر يتحول الاستخدام إلى إساءة استخدام ثم تتحول إساءة الاستخدام إلى إدمان. وبحلول الوقت الذي علم فيه شيف بإدمان ابنه، كان نيك غارقاً حتى أذنيه في الميثامفيتامين، منشط قوي فعال. وفي حين يصارع ابنه للتخلص من الإدمان، تنخرط زوجته الثانية وطفلاه الصغيران في الدراما اليائسة. ينتقل شيف - بوصفه أبا لمدمن - من مرحلة الإنكار إلى التقبل ثم المقاومة. كان المؤلف بالفعل صحفياً ذا مكانة محترمة حين بدأت هذه القصة المؤلمة في التكشف. وقد خدمه هوسه بالتفاصيل على المستوى الشخصي والمهني؛ إذ يتضمن الكتاب حقائق سليمة يمكن الاعتماد عليها حول مادة الميثامفيتامين وما تنزله من فوضى بحيوات الأفراد والعائلات والمجتمعات المدينية منها والريفية.

إن رحلة شيف طويلة تفيض بالعذاب لكنه لا يعفي نفسه أو الآخرين من التدقيق المهني الصارم؛ فهو لم يجد من يعفيه من آلام - وأفراح - مشاهدة حبيب يكافح الإدمان ثم يتغلب عليه. وهنا يصور الكتاب تصويراً لا مداراة فيه مشاعر الخيانة والأسى وما يلح على أهل المدمن من أسئلة مخيفة. يواجه

الكثيرون الإدمان بقسم الكتمان غير أن ديفيد شيف يعري جروحاً شخصية كي يؤكد على أنه مرض ولا بد أن يعالجه المجتمع على هذا النحو. والأهم من هذا وذاك أن رحلته تزود من يجدون أنفسهم في نفس هذا الموقف بسلعة قد لا يفقدونها قط: الأمل. إن الشفاء الحقيقي يخلق - وبمقدوره أن يصير - جائزة في حد ذاته: بين يدي القارئ كتاب أمين معين يأتيه في وقت ملائم من تفشي وباء الميثامفيتامين.

※

In Defense of Food: An Eater's Manifesto

دفاعاً عن الطعام: بيان رجل أكول

by Michael Pollan

Penguin Press HC. , 2008.

256 pp., $13.17



يتعقب بولان في بحثه المقنع معضلة أكل اللحوم والنباتات خطاً مباشراً بين تصنيع مخزون الطعام وتفسخ البيئة. أما كتابه الجديد فيستكمل ما انتهى عنده الكتاب السابق. يحلل كتاب دفاعاً عن الطعام السؤال التالي: ما هو المفيد أكله صحياً؟ الطعام هو الشيء الوحيد الذي يكرد الأمريكيون أن يحبوه وقد اتضح أنه الشيء الوحيد الذي يحبون كراهيته. لقد حل ما يجب تناوله محل ما نود تناوله، وعند هذه النقطة من الجوع والتردد يتوقف بولان ليطرح سؤالاً لا يستهان به: أين الطعام في طعامنا؟ وعليه يرد بولان بإجابات واضحة كل الوضوح ليعاوننا نحن أكلة اللحوم والنباتات على اجتياز ألغام التغذية. ألغام أصبحت تجسد ثقافتنا عن الطعام. إن هذا الكتاب بيان قوي الحجة دقيق البحث أنيق اللغة يختصر المسافات ليصل إلى مبدأ عام بسيط بساطة مضللة: «تناول الطعام بلا إفراط لكن أكثر من النباتات».

إلا أن بولان يقول شارحاً إن «الطعام» في دولة تحركها ماكينة تسويق تقدر باثنين وثلاثين مليار دولار كلمة محملة بالأرباح يتعامل معها الناس تعاملهم مع الكاس المقدس: يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء. يدحض القسم الأول منه سلطة متنمري الحمية الغذائية ليشير إلى التقاء المصالح بين صناع الطعام المصالح ووكالات الإعلان وعلماء التغذية - عصبة سرية أفضت نصائحها الغذائية إلى انشغال غير صحي بالمرة بالتغذية والحمية والأكل الصحي. يحلل القسم الثاني الحمية الغربية ليشكك في - ضمن العديد من المقدمات الأخرى - أن الدهون تفضي إلى الأمراض المزمنة. يتمتع بولان ككاتب بحدة ذهن رائعة. وهو لا يخطب في العامة: الحق أنه نادراً ما يخطب مفضلاً أن يترك الحقائق تتحدث عن نفسها.

※

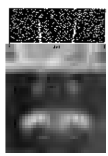
The Telephone Gambit: Chasing Alexander Graham Bell's Secret

مناورة الهاتف: مطاردة سر ألكسندر جرام بيل

by Seth Shulman

Norton, 2008, pp256 .W .W

$16,47



هل ينال صاحب الحق دائماً الفضل في اختراع عظيم؟ من هو المسئول عن اختراع المصباح الكهربائي؟ توماس إديسون أم الإنجليزي جوزيف سوان؟ هل ابتكر آل جور أم عبقري آخر الإنترنت؟ هل استولى ألكسندر جرام بيل من الايشا جراي على فكرة أساسية تكمن وراء اختراع الهاتف؟ لقد ألهبت مثل تلك الأسئلة الجدل بين مؤرخي التكنولوجيا والمدافعين عن العبقري المهمل.

يتفحص شولمان عن كثب السباق لابتكار أول هاتف ليكشف النقاب عن مفاجآت محتملة في كتابه مناورة الهاتف. فعلى الرغم من أن التاريخ العلمي قد اعترف بألكسندر جرام بيل باعتباره مخترع الهاتف (مع أن منافسه المخترع إلاينا جراي طالب باللقب ذاته في نفس اليوم الذي قدم فيه بيل طلباً للحصول على براءة الاختراع). يزود شولمان القارئ بدليل محير يشكك في أن كفة الميزان قد مالت عن عمد لصالح ألكسندر. لم يتعمد صحفي العلوم شولمان معالجة مناظرة بيل-جراي إلا أنه وقع على اكتشاف جعل التحدي لا يقاوم. فبينما كان يقرأ مفكرة كتبها بيل في عامي ١٨٧٥-٧٦، مفكرة أتاحتها مكتبة الكونجرس على الإنترنت في صورة رقمية، لاحظ شولمان قفزة إلهام غريبة بعد ثغرة تتكون من ١٢ يوماً في الداخل، ثغرة تزامنت مع رحلة فجائية إلى واشنطون العاصمة. فهل تورط المخترع المبجل في سرقة بحث جراي؟ أم أن هذه الاتهامات مجرد مشاعر ضغينة خلفتها معركة قضائية محمومة؟ معركة مشحونة بالجدل والمؤامرة والحيل جعلت شولمان يحيك دراما خليقة برواية شفرة دافنشي عن واحد من أبرز اختراعات العصر الحديث.

※

The Audacity of Hope: Thoughts on Reclaiming the American Dream

جرأة الأمل: أفكار حول استعادة الحلم الأمريكي

by Barack Obama

Three Rivers Press, 2007,

384 pp., $8.32



يلقي سيناتور إلينوي الديمقراطي الضوء على معضلات السياسة السائدة بمنتهى البراعة في هذا البيان جهوري النبرة. ينتقد أوباما (مؤلف كتاب أحلام من أبي) بقسوة الحركة الحزبية المنشقة (وبخاصة في الجانب الجمهوري) ليدعو إلى سياسة مركزية تعتمد على القيم الأمريكية العريضة. ينتهج منهجاً ليبرالياً لا ينقصه الحرص وهو في ذلك نموذج له: إذ تخالجه الشكوك في الحكومة الكبيرة وخفض الجمهوريين للضرائب لمصلحة الأغنياء وخصخصة الضمان الاجتماعي: يقف موقف المؤيد لناصري حق المرأة في الإجهاض لكنه يكن احتراماً لمؤيدي الاحتفاظ بالجنين: يدعم الدين لكنه لا يؤيد فرضه على الآخرين وهكذا تقترب سياسته من سياسة هيلاري كلينتون عدا كونها فاترة. ومن خلال الكتاب يتعرف القارئ على سياسته التي ترتكز على اعتماد رصيد للضرائب موجه للفقراء ومجموعة من البرامج المحدودة التي تتعاطى مع كل شيء بدءاً من إعادة تدريب العمالة إلى حمل المراهقات وبرنامج للرعاية الصحية لا يختلف عن اقتراحات هيلاري كلينتون. أما فيما يخص العراق، فهو يؤيد انسحاباً مستقبلياً يتم على مراحل. قد تبدو مواقفه متناقضة أحياناً: إذ يدعم التجارة الحرة وفي نفس الوقت يستنكر آثارها على العمال الأمريكيين. يأمل باراك في نهاية الكتاب في توجيه المزيد من الدعم للتعليم والعلم وتجديد الطاقة ليخرج الاقتصاد من عثرة العولمة. إن أوباما يكتب ببصيرة نافذة مصحوبة بملاحظات مباشرة عن السياسة والتنازلات المفروضة على السياسيين من قبل جامعي الاعتمادات المالية ووسائل الإعلام.

※

The Long Road Home: A Story of War and Family

الطريق الطويل حتى البيت: قصة عن الحرب والعائلة

by Martha Raddatz

Putnam Adult, 2007, 326 pp.,

$16.47



استفحلت المقاومة العنيفة في ٤ إبريل ٢٠٠٤ بعد غزو العراق حين واجه الجنود الأمريكيون هجوماً واسعاً في مدينة الصدر أودى بأرواح ثمانية جنود وجرح أكثر من سبعين جندياً. رادتز مراسلة مشهورة بمحطة إيه بي سي نيوز فازت من قبل بجائزة إيمي. من الواضح أنها تهدف بسردها لمجريات المعركة إلى مضاهاة رواية مارك باودين في كتابه سقوط الصقر الأسود وقد نجحت في إبراز الفرق بكفاءة. تقدم بالكتاب بضع مقابلات موسعة مع ضباط من ذوي الرتب العالية بسلاح الفرسان الأول وعدة جنود يتمركزون في الشوارع ليسردوا رواية جلية لإحدى الحوادث: أعدت القوات الأمريكية العدة لمهمة في منتهى السهولة. غير أنها وجدت نفسها في حمام من الدماء على حين ارتطمت جهود إنقاذ الجنود بمقاومة أشد من ميليشيا المهدي التي لم تتردد في استخدام الأطفال الصغار كمها جمين في الخطوط الأولى. عجت المعركة باللحظات البطولية كتطوع كيسي شيهان لحل محل رجل آخر بفريق الإنقاذ مما نتج عنه وفاته. لمست رادتز رد فعل أمه سيندي شيهان. ناشطة مناهضة للحرب، لكنها ليست إلا واحدة من عائلات عديدة تتبع في الجبهة الداخلية من الحرب. إن سرد رادتز المثير يتحاشى السياسة مركزاً كل التركيز على الجنود وتضحياتهم في معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

※

روايات عربية باللغة الإنجليزية



Wolves of the Crescent Moon

ذئاب الهلال

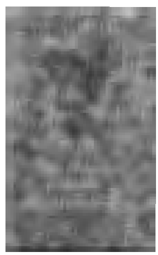
by Yousef Al-Mohaimeed (Author), Anthony Calderbank (Translator)

يوسف المحيميد
ترجمة: أنثوني كالدربانك

Penguin, , 2007, 192 pp., $11.90

ذئاب الهلال رواية استفزازية سريعة الإيقاع منعت الدولة السعودية تداولها داخل أراضيها، تؤكد رواية يوسف المحيميد الأولى على ما نقلته جريدة ذا واشنطون بوست عن مؤلفها المكلل بالجوائز: «إن يوسف المحيميد يناقش واحدة من أكثر القضايا المثيرة للجدل في العالم العربي... بأسلوب غني قد يستثير جابرييل جارسيا ماركيز.» يعثر رجل داخل محطة حافلة في مدينة الرياض على ملف يحوي تقارير رسمية حول طفل هجرته أسرته. وبينما يجمع أجزاء حياة «الطفل المزقة» تبزغ صورة أكبر تشتمل على ثلاثة دخلاء - بدوي ويتيم وخصي - يربطهم القدر معاً وهم يحاولون الأخذ بأسباب الحياة داخل مدينة مفترسة. تتكشف الرواية تكشفاً حاداً كثيفاً كحلم مثل الحمى وذلك في غضون ليلة واحدة فتطالع ذئاب الهلال القارئ بقوة لا تعدم الدهشة وتبعات أخلاقيه هائلة عن مجتمع تقليدي أيما تقليدية يواجه عالماً حديثاً.

❋



The Man from Bashmour

البشموري

by Salwa Bakr (Author), Nancy Roberts (Translator)

سلوى بكر
ترجمة: نانسي روبرتس

American University in Cairo Press, 2007, 296 pp., $17.90

مصر خلال القرن التاسع بعد الميلاد: طبقة حاكمة عربية مسلمة تحكم بلداً مؤلفاً من مسيحيين يتحدث أغلبهم اللغة القبطية. فرض ولاة الخليفة ضريبة باهظة على الأرض فاشتعلت ثورة بين الفلاحين. تم إرسال بدير - قيم كنيسة السيدة العذراء في قصر الشمع بمصر العتيقة - إلى الأراضي الموحلة في دلتا النيل بوصفه مرافقاً لمبعوث عينته الكنيسة. مبعوث مهمته إقناع المتمردين بوضع أسلحتهم جانباً. لكنه لا يلبث أن يقع في شرك دوامة أحداث وهموم تبدل مسيرة حياته بلا سبيل إلى تغييرها، إذ تضعه على سبيل لم يكن ليتوقعه أبداً. إن ما يحل به من أحداث وما يخطر بباله من بصائر يفضي إلى تحول شخصي تدريجي إنما عنيد تتفتح فيه عيناه على الخطوط الرئيسية - العملية والروحية والوجودية - الرابطة بين المسلمين والأقباط. ليبزغ عندئذ مبعوث من نوع جديد. لقد رحب النقاد برواية البشموري باعتبارها معالجة غير مسبوقة لجوانب مهملة من تاريخ العصور الوسطى. إنها سبر للشخصية المصرية في الماضي والحاضر، إذ تقدم للقارئ لمحات من الفكر المصري فيما يتعلق بكل جوانب الحياة: بدءاً من الحب والفلسفة والدين وصولاً إلى الحياة والموت.

❋



Leaves of Narcissus

أوراق النرجس

by Somaya Ramadan (Author), Marilyn Booth (Translator)

سمية رمضان
ترجمة: مارلين بوث

American University in Cairo Press, 2007, 112 pp., $14.95

تتمحور رواية أوراق النرجس حول الوطن والتشرد، حول الاغتراب الجسدي والنفسي. تدور حول كيمي، بطلة رفيقة الشاعر تعاني صدعاً في شخصيتها لعجزها عن التفريق بين أنا والأنا الآخرين. وبالنسبة لكيمي: لا تقتصر المسألة ببساطة على جدلية «أكون أو لا أكون»، بل «كيفية الحياة» في ظروف مفككة مليئة بالتناقضات.. إن أوراق النرجس - شأن الروايات العربية الأولى التي ناقشت «لقاء الشرق بالغرب» بأقلام كتاب ذكور مثل توفيق الحكيم وطه حسين والطيب صالح - تحكي حكاية طالبة شابة عربية تقصد الغرب بحثاً عن التعليم. بيد أن الشخصية المحورية هنا أنثى شابة ووجهتها أيرلندا، جزء من الغرب وفي نفس الوقت ضحية لخراب الاستعمار مما يضفي غموضاً على التصوير المعتاد لثنائية الشرق والغرب. إن سمية رمضان تصور في هذه الرواية الساحرة براعة فنية نادرة في استحضار الأفكار الأدبية ومشابكتها - من العامة إلى المتعلمين، من الشعبي إلى الأسطوري، من المصري إلى الأيرلندي - وتطرح الأسئلة بدلاً من الأجوبة، أسئلة تجعلنا نتطلع إلى أنفسنا في المرآة.

❋



The Last Of The Angels

آخر الملائكة

by Fadhil al-Azzawi (Author), William M. Hutchins (Translator)

فاضل العزاوي
ترجمة: وليام هاتشينز

American University in Cairo Press, 2007, 320 pp., $17.90

تجري أحداث رواية آخر الملائكة في مدينة كركوك بشمال العراق خلال العقد السادس من القرن العشرين، يروي فاضل العزاوي حكاية تبعث على ضحكات يختلسها القارئ اختلاساً، حكاية ثلاثة أشخاص مختلفين كل الاختلاف يقطنون في حي واحد صغير. يتحول حميد نايلون خلال إضراب عمالي بشركة النفط العراقية التي يهيمن عليها البريطانيون إلى مسئول نقابي ثم ثوري مثله مثل بطله ماو تسي تونج. يسافر أخو زوجته خضر موسى - راعي غنم - إلى الاتحاد السوفيتي للعثور على إخوة له لم يرهم منذ زمن ثم يعود أدراجه إلى بلده في منطاد ليستقبله الناس بمنتهى الحفاوة. وفي تلك الأثناء يكتشف صبي شاب يدعى برهان عبد الله صندوقاً قديماً يقبع في علية منزل أسرته، صندوق يسمح له بالتحدث مع الملائكة. وهنا يجد القارئ الرواية - بالتتابع - حافلة بالسخرية، مصورة لحياة المتشردين، حاملة لطبيعة أشبه بالرؤيا: وهكذا تستدعي جو كركوك الزاخر بالألوان، بمزيج من التركمان والأكراد والعرب واليهود والمسيحيين الأشوريين. إن العزاوي يرسم للمدينة لوحة بانورامية محببة لا يعوزها الحزن خلال السنوات الأخيرة من الحكم الملكي في العراق، كما يسرد روايته بدعابة متهكمة تليق بمارك توين وفروق طفيفة إنما ساحرة تشبه في أسلوبها كتابات جارسيا ماركيز. وعندما يلحق الواقع المظلم لتاريخ العراق الحديث بأحداث الرواية، نقف على عمق حميد نايلون وخضر موسى وبرهان عبد الله وتعقيداتهم لتصير رواية العزاوي الكوميدية حكاية مؤثرة تجسد عملية نضج البشر في عالم تحف به الأخطار.

❋



Inside the Night

داخل الليل

by Ibrahim Nasrallah (Author), Bakr R. Abbas (Translator)

إبراهيم نصر الله
ترجمة: بكر آر. عباس

American University in Cairo Press. 2007. 176 pp.. $14.78

«لم أستطع أن أصدق أن البشر بإمكانهم النسيان بمثل هذه السهولة...» لا تفتقد رواية داخل الليل رؤى عن الحب والحياة، الجنس والموت، الطفولة والقمع. تتواصل معاً لحظات مشرقة لذكريات يائسة إنما مترابطة لتشكل جسد هذه الرواية، جسداً ممزقاً لكنه يبتعد عن الكسر. تبدأ الرواية بمشهد ينم عن الرحيل، راويان يطوفان بلا اسمين ذهاباً وإياباً عبر الزمن. ينعطفان من شقاوة الطفولة إلى

مذبحة بمعسكر اعتقال فلسطيني: من الحب الأول الملتهب إلى هجرة ضرورية من أجل العمل في دولة عربية بترولية؛ من أوهام المراهقة المفعمة بالحيوية إلى حقيقة الحياة الكئيبة في إحدى الدول العربية. يشارك الراويان اختباراتهما ومآسيهما ولحظاتهما النادرة بل الممتعة مع أم وأب وعجوز يهودية متزوجة بفلسطيني وطفل هجرته عائلته ليعيش وحده في كوخ، طفل تنشر براءته جواً مقلقاً بالرعب. ومع تلك الغابة من الحكاوي المتداخلة، تنحت رواية إبراهيم نصر الله تاريخ شعب عبر نصف قرن في شظايا شعرية اللغة متعددة الحواس غنية العواطف. إن ما يخاطر رواية داخل الليل من حرية تكبح نفسها بنفسها لتطور منعش في جسد الأدب الفلسطيني والإنساني.

※



Poor

تحت خط الفقر

by Idris Ali (Author), Elliot Colla (Translator)

إدريس علي
ترجمة: إليوت كولا

American University in Cairo Press, 2007, 160 pp., $14.78

تطالعك رواية إدريس علي الاعترافية بكلمات تحث البطل على أن يتحلى بالقوة، ألا يتردد: سوف يواجه مخرجاً لا سبيل إلى العودة منه، فهذا هو يومه الأخير. يتحدث الراوي النوبي بتلك الكلمات في أحد أصال أغسطس بوسط القاهرة. لقد قرر للتو أن ينهي حياته إلى الأبد. وفي حالة من الهذيان والعطش، يهيم على وجهه وهو يصب جام غضبه على كل شيء أيا كان: على إحباطه الجنسي وشعوره بالعجز في مواجهة ظلم لا ينقطع. يسعى إلى القضاء على حياته الفاشلة في النيل: نهر ظل شريان الحياة لبلده منذ ألف سنة، نهر يُغرق الآن - مع تشييد السد العالي - أرض النوبة ليدفع بأبنائها المطرودين إلى الغربة شمالاً وجنوباً. كان الراوي واحدا من هؤلاء الأبناء منذ سنوات عديدة مضت. هرب من الفيضان والمجاعة ليبلغ القاهرة عارياً من ملبس واحد أو حذاء، في وقت رآها فيه مشتعلة بالنيران بعد أن أطاح رجال الدبابات بالنظام القديم. إن تحت خط الفقر قصة حياة تترع بإملاق طاحن وحرمان جسدي وجوع عاطفي. هي أيضاً قصة عن فرص مهدرة وآمال قايضها الأبطال بلا شيء - حياة تعاش في فقر ما بعده فقر.

※



The Smiles of the Saints

ابتسامات القديسين

by Ibrahim Farghali (Author), Andy Smart (Translator), Nadia Fouda-Smart (Translator)

إبراهيم فرغلي
ترجمة: أندي سمارت ونادية فؤاد-سمارت

American University in Cairo Press. 2007, 112 pp., $14.00

عدت لتصفية حسابي...

تحكي أصوات مجموعة من الأصدقاء المقربين رواية ابتسامات القديسين لتمتد معهم جيلاً من الزمان. قصة ملحمية كثفها المؤلف لتصير رواية قصيرة زاخرة بالتعقيدات. قدمت حنين ذات العشرين عاماً إلى مصر للتو بعد غياب خمسة عشر عاماً قضت أغلبها في مدرسة داخلية بباريس لتنقطع بذلك كل صلاتها بعائلتها عدا زيارات متفرقة من والدها، رامي. استدعتها تواًم أبيها لتعطيها ظرفاً يحوي مذكراته: مذكرات تخلو من جزئها الأخير. تقرأ حنين رواية رامي عن علاقات غرامية مشبوبة العاطفة ومغامرات روحية لا تخلو من عذاب في فترة الشباب لتبدأ حنين في فك لغز عائلة بالكاد تعهدها.

حنين نتاج زواج مسلم بمسيحية: وهي نفسها مغرمة برجل يهودي. وعليه تفكر في إضافة بعد ديني آخر إلى أسرتها. إلا أن أحدهم يرصد الأحداث عن كثب، شخصية من الماضي كانت في يوم من الأيام مرتبطة ارتباطاً شديداً بعائلة حنين. من هذه الشخصية بالضبط؟ وكيف تؤثر عليها عودة حنين؟ يسرد إبراهيم فرغلي روايته في جو عام من الغموض لتفيض بذلك بملحوظات رنانة عن تعقيدات العلاقات البشرية المتشابكة.

※



Black Magic

سحر أسود

by Hamdy el-Gazzar (Author), Humphrey Davies (Translator)

حمدي الجزار
ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press. 2007, 160 pp., $12.89

تولت النشوة ناصر في سن الرابعة عشرة عندما أهداه أبوه كاميرا تصوير ليجد فيها الوسيلة لأسر الجمال وفي نفس الوقت إثبات ذاته. كان يعمل بمبنى الإذاعة والتليفزيون حين قابل فاتن، امرأة مستقلة أكبر منه سناً؛ فرت في الماضي من زيجة خانقة، وهي الآن واثقة من الحصول على ما ترغب فيه من الحياة. تبدأ بينهما علاقة غرامية لا تلبث أن تجذب ناصر إلى زوبعة متوهجة من الهوس التهواش العاطفي. وفي عالم يطفح بسطحية ومادية وعنف وهستيريا جنسية تلتقطها عدسة كاميرا لا تعرف الصفح، تصير حياة ناصر سجناً. يدفعه الحنين إلى الهرب و تخوف من الوحدة إلى علاقة توقعه في شركها وإن تخلفه بلا التزام. يكمن حل هذا المزيج المتقلب في مواجهة عنيفة بين النفور والرغبة. فازت رواية سحر أسود بجائزة مؤسسة ساويرس في الأدب المصري عام ٢٠٠٦.

※



Basrayatha: Portrait of a City

بصرياثا: صورة مدينة

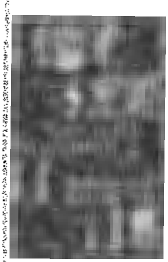
by Mohammed Khudayyir (Author), William M. Hutchins (Translator)

محمد خضير
ترجمة: وليام هاتشينز

American University in Cairo Press. 2007. 160 pp., $14.21

تحتفي رواية محمد خضير بصرياثا بمسقط رأسه، البصرة، الكائنة على نهر شط العرب جنوب العراق. وبالضبط كما يختلف قاطنو المدينة عن الدخلاء من معرفتهم بشوارعها وقصصها، كذلك يفرق خضير بين مدينة البصرة الحقيقية وبصرياثا، مدينة متخيلة خلقها عبر القصص والتجارب والفلكلور والتبصر، لتغدو الرواية بذلك مذكرات ورواية مصورة عن رحلة وخطاب غرامي وتأمل. تستدعي بصرياثا صوراً لمدينة تبددت منذ زمن. إذ يسرد خضير في تفاصيل تنطق بالحب اكتشافه لمدينته وهو طفل صغير: يصف مآدب أقامها العامة في الماضي، الحمامات العامة، متع عطلة المسلمين، أسواق السلع الرخيصة بالمدينة ومرتاديها، أفلام هوليوود المعروضة في السينما المحلية، الحياة اليومية خلال الحرب الإيرانية العراقية، قنوات البصرة وأنهارها. وفوق كل شيء يلقي الكتاب الضوء على دور الراوي في خلق المدن التي نسكن فيها كما فعل خضير نفسه مع بصرياثا. تستحضر بصرياثا الحداثة الأدبية لمؤلفين من أمثال كالفينو وبورخيس وتتلون بالشوق إلى مدينة اختفت الآن من الخريطة. إنها تكريم لا تنقصه البراعة لقوة الذاكرة والخيال.

※



Morning and Evening Talk

حديث الصباح والمساء

by Naguib Mahfouz (Author), Christina Phillips (Translator)

نجيب محفوظ
كريستينا فيليبس

American University in Cairo Press. 2007. 192 pp., $13 57

إن رواية حديث الصباح والمساء حكاية ملحمية عن الحياة المصرية تمتد عبر خمسة أجيال. تقع رواية أديب نوبل نجيب محفوظ في القاهرة متتبعة أقدار ثلاث عائلات منذ قدوم نابليون في نهاية القرن الثامن عشر إلى العقد التاسع من القرن

العشرين. يلجأ محفوظ إلى اسكتشات موجزة تصور الشخصيات بترتيب أبجدي. وعليه تنتج هذه الأداة الأدبية التجريبية نوعاً من القاموس السيرى: قاموس يتداخل فيه الأفراد لرسم لوحة جلية للحياة في القاهرة من وجهات نظر متباينة.

تتضمن الشخصيات ممثلين عن كل الطبقات الاجتماعية وكل ضروب البشر، وبينما تتكشف القصة الطويلة المعقدة، تبزغ صورة جلية لمجتمع في حالة تحول وما يليه من ثورة. إنها قصة عن التغيير والاستمرارية، عن موت أسلوب حياة تقليدي، عن الطريق إلى الاستقلال وما بعده. قصة تراها أعين المواطنين المصريين.

يعتبر النقاد تاريخ نجيب محفوظ الأخير للقاهرة مرثاة لعصر ماض وتكريم للروح المصرية. هو أيضاً واحد من أكثر الإسهامات التي حملت تجديداً على مستوى التكنيك إلى الرواية العربية.

⁂



Maryam's Maze

متاهة مريم

by Mansoura Ez-Eldin (Author), Paul Starkey (Translator)

منصورة عز الدين

ترجمة: بول ستاركي

American University in Cairo Press, 2007, 144 pp., $14.00

شابة تدعى مريم: تستيقظ من حلم مزعج يحيق به العنف لتلقى نفسها في فراش بشقة غريبة في القاهرة بدلاً من حجرتها بمبنى الطلبة حيث أدركها النوم. ومع هذا المشهد الغاص بالغموض، تستهل منصورة عز الدين حبكة مخيفة عن امرأة تنقطع بها الأسباب عن عالمها فتكافح لإعادة تشييد تلك الروابط الواهية. تجد نفسها بمفردها في المدينة، لا تعثر على وسيلة للاتصال بزميلتها في الغرفة أو بصديقها، صحفي يبدو وكأنه لم يخلف أثرا يدل على وجوده. فهاتفه خارج نطاق الخدمة ورئيسه في العمل لا يعلم عنه شيئاً، بل إن اسمه قد تلاشى من جرائد قديمة احتفظت بها في السابق. ومن القاهرة يستحضر السرد جانباً من أحداث ماضية جرت بفيلا عائلة مريم الغنية في الريف حيث كمن الأسى والجنون بين شقوق طفولتها. إن محاولات مريم اليائسة لاستعادة عالم مألوف سكنته ذات يوم يكشف النقاب عن حكاية مخيفة خليقة بحكايات إدجار آلان بو أو بولانيك. ومع تلك القصة الرمزية ذات النهاية المذهلة، سوف يجد القارئ متاهة مريم رواية خيالية بقلم واحدة من أكثر كاتبات الجيل الحالي المصريين موهبة.

⁂



Girls of Riyadh

فتيات الرياض

by Rajaa Alsanea

رجاء الصانع

ترجمة: رجاء الصانع ومارلين بوث

Penguin Press HC, 2007, 304 pp., $16.47

تنتمي اربع صديقات مقربات إلى عائلات سعودية من الطبقة الموسرة. يلتحقن بالجامعة وكلية الطب في الرياض وشيكاغو وسان فرانسسكو. تتحدث الصديقات مع أصدقائهن في غرف الدردشة وهواتفهن المحمولة. لكن حتى مع كل هذه التكنولوجيا الحديثة، لا يسعهن الهروب من التقاليد القاهرة الراسخة بعد عودتهن إلى الرياض. يتخلى خطيب سديم عنها بعد أن يمارس معها الجنس. فمرة يطلقها زوجها بعد اكتشافها انه على علاقة غرامية بأخرى. يعبد ميشيل وفيصل كل منهما الآخر لكنه يهجرها بناء على أوامر أسرته. تلقي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القبض على حبيبين في قهوة غير أن أغلب العائلات ليست في حاجة إلى معاونة رسمية للتدخل في حيوات نسائها. نُشرت عام ٢٠٠٥ إلا أن السعودية منعت هذه الرواية الأولى لكاتبتها رجاء الصانع فور صدورها بسبب محتواها الملتهب المثير للجدل بينما انتشرت نسخها في السوق السوداء انتشاراً واسعاً.

تدرس رجاء الصانع البالغة من العمر ٢٥ عاماً في شيكاغو لكنها تخطط للعودة إلى السعودية. ومن داخل المجتمع السعودي تسرد روايتها، حبكة تكتمل بتناقضات وحالات خيانة تضع تعريفا للحياة اليومية. إن تلك الدراما الشبيهة بالمسلسل الأمريكي الجنس والمدينة، سريعة الإيقاع ساخرة النبرة مؤلمة للإحساس، صوت جريء جديد ينسج حكاية ساحرة لفتيات يحاولن اجتياز القنوات الضيقة بين الحب والرغبة وتحقيق الذات والتقاليد الإسلامية. وهكذا تعري الصانع المحن الاجتماعية والرومانسية والجنسية للمرأة داخل المجتمع السعودي. لا تنفك الجدة الجريئة لرواية بنات الرياض تخلق عاصفة في كل أنحاء العالم العربي لتنتشر الإثارة إلى ما وراء الشرق الأوسط.

⁂



Chaos of the Senses

فوضى الحواس

by Ahlam Mosteghanemi (Author), Humphrey Davies (Translator)

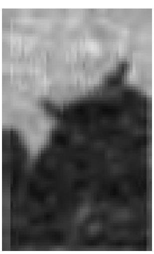
أحلام مستغانمي

ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press, 2007, 240 pp., $15.56

تستكمل رواية أحلام مستغانمي في روايتها الثانية ما انتهت عنده الرواية الأولى ذاكرة الجسد. تحكي رواية فوضى الحواس قصة حب تقع في الجزائر المحروقة الجريحة بالعقد العاشر من القرن العشرين. تصحب مستغانمي القارئ عبر شوارع الشك والتشويق، عبر أفراح علاقة غرامية محرمة واتراحها، عبر قصة تتداخل في قصة أخرى. تتورط كاتبة في زواج عاطل من الحب برجل مهم. وبلا قصد من جانبها تكتب ما سيقع بالفعل في النهاية. تبدأ الكتابة بعد فترة طويلة من التوقف: تخط قصة رجل يلفه الغموض يغازل مبتغاه بكلمات لا تخلو من تضليل. تتتبع الكاتبة في يأس طريق شخصيتها الخيالية فتجد أن الرجل الغامض موجود بالفعل وهو من قادها إلى بابه وإلى حياته. يفضي تطور مفاجئ إلى آخر مباغت فيما يظل السؤال: من الذي كتب القدر على الكاتبة أن تلقاه وتقع في غرامه؟ الفنان الغامض أم الصحفي المشئوم. إن هذه المغامرة الشعرية تغبط القارئ بحقائق أشبه بالخيالات وخيالات أشبه بالحقائق، وتخلق خلفية من الفوضى السياسية شعوراً ينذر بالشر والخوف لحبيبين لا حول لهما ولا قوة. لكن أين الحقيقة وأين الخيال؟

⁂



Pyramid Texts

متون الأهرام

by Gamal al-Ghitani (Author), Humphrey Davies (Translator)

جمال الغيطاني

ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press, 2007, 112 pp., $14.00

تحوي متون الأهرام حكايات صوفية زاخرة بالرموز عن الحالة الإنسانية. رواية يقدمها الغيطاني في أسلوب غني بتأملات قاتمة خليقة ببورخيس وأفكار محتقنة سوداء خليقة بآرثر سي. كلارك. تشغل متون الأهرام العقل وتخير الخيال. تظهر الرواية في سلسلة من الفصول تتناقص في النهاية لتصل إلى لا شيء - كل فصل أقصر مما سبقه في تكنيك يماثل موضوعات الكتاب. وفيها يستدعي المؤلف الهوس الذي اجتذب الإنسان عبر العصور إلى الآثار القديمة الغامضة. ومن بين آخرين في سلسلة من الشخصيات الغريبة، يقضي رجل مغربي يسعى إلى المعرفة سنوات في تامل الأهرام على أمل أن يفهم ذات يوم ما يلوح على أجنابها من كتابة غامضة. ينتظر آخر بكل صبر لحظة الخلود. آخر مشهور بصعوده وهبوطه المتكرر يقدم على تسلق أخير يبهر الأبصار في حين يؤدي أبو الهول رقصته السماوية. تفضي الرواية بنا إلى عالم من الممرات اللانهائية ورياح عجيبة تند عنها التنهيدات، عالم قد تضيء مساحاته الضيقة المعتمة ومضات من النشوة. ومضات تؤدي إلى تجليات متلألئة وإبادة سريعة.